ياسمين ثابت

وثالثهما الموت

رواية

وَثَالِثُهُمَا الْمَوْتُ

18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

وَثَالِثُهُمَا الْمَوْتُ

ياسمين ثابت

رقم الإيداع : / 2016
الترقيم الدولي : 978 ـ 977 ـ 85203 ـ ـ
الطبعة الأولى : 2016 م - 1437 هـ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف:

© جميع الحقوق محفوظة لـ السـراج للنشر والتوزيع، ولا يجوز، بأي صورة اقتباس، أو إعادة طبع، أو نشر فى أى صورة كانت ورقية، أو اليكترونية، أو فى وسيلة سمعية، أو بصرية إلا بإذن كتابي مسبق من الدار وإلا تعرض للمساءلة القانونية.

وَثَالِثُهمَا الْمَوْتُ

روايـة

ياسمين ثابت

السراج للنشر والتوزيع

إهداء

إليكَ..
يا تائها أحببته..
حملتَ روحي قلادة تتدلّى من عنقك
ورحلتْ.
وأحمل شوقي لك دوما قيدا في عنقي..
مسّيرة لا مخّيرة.
وترحل ما بين شوق وشوق
وتعاودني ما بين ماضٍ وذكرى
أضع روايتي بين يديك
تذكرة عودة
لأناديك حتى يبحَ الصوتُ..
وتنفد الكلمات..
عد إليّ.

المقدمة

حتى لا ننسى دمعة استصرخت إنسانيتنا
حتى لا نغفل كم دفعنا منا... فينا ثمنا للحرية
حتى لا يهون علينا ما أخذه الظلم والقهر من كرامتنا
حتى وإن التأمت جراح القيد
وانصلح اعوجاج المعصم
أكتبُ حتى لا ننسى ما كان، وكيف كان
ولماذا حدث..
حتى نسأل أنفسنا أنا وأنت:
كيف صرنا؟ كيف انتهينا؟
بعد ما كنا... قد اغترفنا شربة حرية.
حتى نتذكر دائما كيف كان طعم العبودية.

مشهد

احتكت الجلود المتعرقة ببعضها في نشيج صامت بين الأجساد، جسد من الأمام والخلف واليمين واليسار، يتعالا السخط في الهُتافات فيخفق قلبه مع كل ضغطة كاميرا.

ربما كان من المُقدَّر له ألا يشهد الريح وهي تقتلع جبال موطنه، ولكنه يملك الآن عينين وكاميرا ليسجل حدثًا مهيبًا صادف أن مرَّ به. تداخلت شعيرات لحيته الدقيقة في الكاميرا، فشدّتها وهو يتحرك مع تماوج الأجساد في منحنيات الشوارع.

ارتفع نداء المسجد للصلاة، فكبّرت الحناجر بأن الله أكبر وأعظم حتى من مجنونٍ التصق بكرسيِّ الحكم، وبطريقة ما جلس أربعة عقود فوق أعناقهم!

همس الملتحي الشاب مع الأذان، ولكنه لم يستطع أن يتوقف عن التقاط الصور، رفع العدسة إلى حركات النساء في المنافذ والشرفات، وفي اللحظة التي ركز فيها على مشاركتهم اللحن خرق العزف قرقعات آتية من آخر نقطة بالشارع!

لو لم يكن في مظاهرة لخالها أصوات ألعاب نارية، لكنها كانت صرخات تتلاحق وهو يلتقط بعينيه سطرًا من الأرواح يسقط غير مصدق، حتى صراخ النسوة لم يقنعه أن ماشاهده حقا كان قتلا، لكن انقطاع الأذان في كلمة حيّ

على الصلاة، مع صوت الشيخ وهو يتقطع، ثم يشاركهم الصراخ في آخر نفس للمذياع قبل أن يتحطم، جعله يشعر بواقعية الانتهاك الذي يشهده.

أدرك أخيرًا أنه ليس مجرد فيلم وثائقي يشاهده ليفهم، بل هو مشارك بوجوده في نفس الشارع الذي تخضب بدماءٍ ذاهلة: رجلان مرّا من أمام كاميرته، فصارَا في عالم آخر على مسافة خطوات!

وجد نفسه يصرخ، ووجد نفسه غير قادرة على الاستماع لنفسه، لأن الكل شارك في بركان صراخ حتى صمّ الجميع، تدافعته الأجساد، ولم يعد يدرك أين يسير وكيف يعود!

شاهد قبعات تحمل لونا أصفر فاقعا، شاهد أناسا يتلاحمون مع الأجساد بأسلحة بيضاء تخترق اللحم، سمع الرصاص ورآه واشتمّه.

قبضة ابتلعت كاميرته فوجدها صارت مُلكا غيره، أفاق من الاختلاط بالطوفان، ووقف يتطلع لعينيِّ سارقه، وجه مجرم كما بدَا له، وكأن تطلعه له كانت صافرة بداية المعركة، انقض عليه يضربه بكل ما في عروقه من طاقة!

لم يشعر الملتحي بالألم بمجرد أن دُعك وجهه بتراب الأرض الأحمر من الدم. هشَّمَ المجرم رأسه بكاميرته، هشمهما في بعضهما، ثم تطلع إلى عينيه وهو يقرب وجهه منه بتشفٍ.

فجأة انقطعت الألوان والصور، وما عاد يرى أي شيء!

جُنَّ عقلُه، فأطلق العديد من الصور أمامه ليوهمه أنه لا يزال يبصر، كتفه الممزق يحس بربتة أمه الحانية عليه، نظرات جده الغاضبة وشكل فمه المفتوح يقذف بكلمات غاضبة، الدفء الذي حلَّ بأصابعه حين أمسك بشهادة التخرج.

قطع الظلام خلوته مع الصور، وأظلمت أذناه كذلك فما عاد يسمع أي شيء، كلمات متسولة تتناهى إلى أذنه:

أروح لمين وأقول
يا مين ينصفني منك
ما هو انت فرحي وانت
جرحي وكله منك
أروح لمين..

شهق مع كل كلمة ترميها له ذاكرته، حتى وروحه عالقة على عتبات الموت لا يزال يشعر بذاك الذنب كلما تذكر الأغنية!

لم يكن صوت الست، لأنه استمع لها لمامًا، كان صوتها، تلك الأنثى مع البحة المميزة، ينطفئ وهي تشهق لتلتقط أنفاسها وسط السطور، بطريقة ما سكن، استطاع أن يغرق في اللا شيء عبر صوتها!

«يا الذي تطفي الهوى بالصّبر لا بالله،
كيف النّار تطفي النّار؟»

مظفر النواب

شهد صادق

فبراير ٢٠١١ الإسكندرية

نفسي تصعد معها، وهي تشتكي:

أروح لمين ومين ح يرحم أسايا

واقول يامين ومين ح يسمع ندايا

طول مانت غايب ما ليش

حبايب في الدنيا ديه

يهتز صوتي بدمعة مكتومة، وأنا أتذكره، فأكمل:

والفكر سارح والهجر جارح يا نور عنيه

أغلق عيني، وأرفع صوتي:

شوف دمعي جاري سهران في ناري

ولا انت داري بالسهرانين

أجد نفسي أنشد وحدي بينما علق لسان الست بكلمة (داري)، لو كان جهاز كاسيت، لأمكنني التكهن بعطبه، ولكن أن يأتي خطأ في نظام

تشغيل حاسوبي ليجبر الست على ابتلاع بقية حديثها مع روحي جعلني أشعر باختناق!

نعم أنا تلك الخَرِفة التي تؤمن بسوء الطالع!

انقبض قلبي، فحاولت إعادة تشغيل البرنامج لكن حاسوبي تجمّد، ضغطتُ إعادة التشغيل وأنا أرتجف..

لم يعد معي! ولم يعد من حقي أن آمل فيه، أعلم، راضية، متحسرة، ولكن حتى أغنية تذكرني به يخرسها خطأ ما؟!

أدرك أني أشتاقه، وأن قلبي يستغل هذا الشوق ليثير قلقي عليه أكثر، فيدفعني دفعا للاطمئنان عليه.

أركض لهاتفي المحمول وأتصل برقمه.. لكنَّ المعتاد ألا يجيب، فماذا جنيتُ منه سوى الصمت؟

وهو رجل مُوصَد، خلف أسواره، عالم محرم عليّ، يحتلني وأنا لم أخطُ خطوة خلف بوابة عينيه، وهو الآن في أرض المعركة، أدور حول أسواره لأتسلل من باب خلفي، وحده الإنترنت يمكن أن يرسم لي رتوشَ ما يجري حول رجل لم أستطع أن أكف عن حبه!

دخلت على موقع «ليبيا الحرة» بألوانه الخضراء، وجدت قائمة طويلة بأسماء أشخاص ما عادوا هنا، بل تحولوا لمجرد أحرف مكتوبة تثبت أنهم كانوا هنا!

تأوهت عنوة وأنا أتعثر في أي اسم يتصادف أن يكون مشابهًا لاسمه، أجد عبد الله، فيهوي قلبي في قعر الفاجعة، ثم يطفو على السطح حين أدرك من اسم الوالد أنه مجرد عبدٍ لله، لكنه ليس العبد المقصود. تلتقط عيناي آخرَ اسم في ذيل القائمة، لم يكن بينهم.. حمدًا لله.

أعلم أنه الكائن الأكثر مسالمة في الكون، والأكثر سلبية كذلك، أعلم أنه لو هوى بيته فوقه ما تجشم عناء الصراخ، وما ضيّع وقته في تحسر، أعلم

أنه سيستغرق دقائق يتطلع حوله ليدرس الوضع، ثم ينهض ببساطة ليجد مكانا آخرَ للسكن، ولو كان في أفضل أحواله لحاول بناء بيت جديد، ولكن أكثر الناس هامشية في حياتهم قد تركض خلفهم أغرب الحوادث، هذا الخاطر يغذي هواجسي حوله.

ما إن رست ثورة مصر حتى ارتفع الموج بليبيا لتغوص في دوامة الحرية، وما إن اطمئن قلبي وأنا في النار ـ لأنه هناك في ليبيا في أمان ـ حتى تحركت الأرض من تحت قدميه، وصرت أموت قلقًا عليه.

ما يقارب الألف قتيل كانوا حصيلة ثمانية عشرَ يوما من الجنون المطلق، والشوارع نفسها فاغرة فاهها عما رأت، ولكن في الجهة الأخرى من الحدود شهدت مدن ليبيا الشرقية مجازر لساعات التهمت فيها مايزيد عما فقدناه في أسابيع!

كم تحتاج روحا لتُزهق، وكم يحتاج الفقدان ليُستوعب، حتى يصير القتل مزادا تُحصد فيه حيوات وأفراح وآمال وأحلام، وخلف كل نفس تُزهق ألف نفس تُشَق روحها وهي حية، حزنا وحسرة؟

إذن، كم يحتاج القاتل ليشبع، أو حتى ليندم؟ أم أن كثرة العدد تتناسب عكسيا مع ثقل الندم!

هل كانت ليبيا حقا جارتنا كل هذا الوقت؟

لِمَ لمْ أشعر بوجودها إلا وهي تحترق؟

أم لأنه هناك؟!

يعود الاتصال الآلي برقمه وأنا أسير بالهاتف في أرجاء بيتي، أزور الغرف وأتطلع خلف الأبواب، وما أراها حقا، ولكنها عادتي حين يأكلني قلبي! أجدني في غرفتي أمام درج لأغراضي المنسية، قلبي يحيي الدرج بخفقة زائدة، نعم، فهو يعلم أن غرضا هناك أكثر أهمية من كل ما في هذا الدرج، ولن أكون مبالغة إن قلت إن هذا الغرض في عُرف قلبي أغلى من

شقتي كاملة، لكنه ليس بغرض ثمين، أو هدية جميلة من شخص أحبه، بل هي مجرد قصاصة صادف أن كان عليها من أثره!

أفتحُ الدرج ببطء، وأخرجها من بين الأغراض، مجعدة، لكنها لم تتسخ، فأنا أحفظها تميمة عندي تقيني حرَّ اشتياقي له، أمسك بها كلما اشتد بي، وأفتحها لأرقب خطه وهو يكتب جملة عادية، مجرد جملة عادية:

(أرجو الاهتمام بالفصل الثاني والخامس ـ م. عبد الله محمد)

تركها لي أثناء مراجعة الامتحانات، حين طلبت منه مساعدتي في مادة ما، وكانت تلك وقتها بادرة غير متوقعة منه!

أتذكر حتى صوت ضحكتي التي أفلتت رغمًا عني حين رأيتها بداخل الكتاب الذي تركه لي عند عامل بوابة الكلية، الكتاب كله كان ممتلئًا بخطه، لكن كون هذه الجملة وحدها الموجهة لي جعلني أشعر بتميز اللحظة!

لستُ بالتافهة المهووسة، وإنما هو الشحيح في ردود أفعاله يجعلني أقدر هذه الورقة فوق ما تستحق، وما زلت أبتسم بخجل كلما تسألني نفسي: أمعقول أنكِ احتفظتِ بها كل هذا الوقت؟

ما زلت أتردد كلما أفكر بالخروج، فأتساءل: في أي يوم نحن؟

ثم أتذكر أن المياه قد عادت لمجاريها، وأن والداي قد ذهبا لأعمالهما. انتهت الإجازة التي أخذها الوطن ليفيق، شيء ما في التنحي غيَّر الوجوه، أدرك هذا وأنا أتطلع حولي في الشوارع، سائقي المواصلات وراكبيها، لم تعد الوجوه مكفهرة حتى وأصحابها شاردون، بل صار الأمل قاسمًا مشتركًا في وجوه كل طبقات المجتمع، وصار الكلام اللين يسيرًا على الكل!

كلمة تنحٍّ ساوت كلمة ممكن، وسقوط الأصفاد أخذت معها المستحيل إلى قعر المخاوف، وما تغير قد تغير بدواخلنا فقط، فالثورة لم تهبط بمال من السماء أو وظائف أو شقق للزواج، ولم تدفع اقتصاد الوطن إلى الأفضل، ولكنها استثمرت فينا ما كنا بحاجة له لنفهم معنى كلمة وطن، ومعنى كلمة عدو!

علمونا أن اغتصاب الوطن يأتي من الخارج، من عدو مجهول لا يشابهنا في دين أو عرق، ولم يعلمونا كيف نأمن من شر يأتينا منا!

أترانا شاركنا المغتصب غباءه باعتقادنا أنها كانت له؟

مثل حيوانات وُضعت في قفص يطلّ على غابة كانت يومًا أرضها، فصار كل أملها فيما كان أصلًا لها!

مصر كانت مجرد أرض صادف أنْ ولدتُ بها، ومن أحبهم وُلدوا بها أيضا، صادف أن كوّنت فيها ذكريات تهمني، صادف أن سارت فيها أمور تعنيني.

لو أني استبدلت الأرض بالأرض، والذكرى بالذكرى، أتراها كانت ستبقى وطنا؟

أدرك أني مصرية، ولكن ماذا كانت تحمل جنسيتي من مجد حتى أفخر بها؟

وماذا كانت تفعل بلدي مقارنة بأقرانها، ونحن مهانون فيها وخارجها؟

هل كانت كلمة مصري تجعل أي عِرق آخر يتطلع لنا بعزّة، بل يتطلع لنا من الأساس؟

ببساطة، كنت أتطلع لوطني كملكية عامة لا تهمني بالضرورة، بغض النظر عن حُمَّى الوطنية التي أصابت الجميع، فصار من العيب أن يقف الشخص مع نفسه ليتذكر ماذا كانت مصر فيه قبل هذا الينايز، وسيرتعب حين يدرك أنها لم تكُ شيئا!

إن الشعور بالانتماء والوطنية أمر لا يُدرّس، ولا يمكن لأحد أن يحشوه في قلوبنا لمجرد أننا ولدنا فيها، وكُتِب في شهادة ميلادنا، اسمها وقمنا بتحية علمها كل صباح!

وهل كان ذلك العلم يعني لنا أكثر من قماش ملون، وتزنيبة صباحية، وكلمات محفوظة تُعطى إليه كقربان وطني؟

إن الوطنية تُستحق وتكتسب بحجم استبقاء الوطن لمكانه في أعماق أبنائه مكانة الوطن لا تمس بشيء أعطاه، لا آخذه!

وهل يحب الطفل إلا مَن يدلله؟

كل ما كان ممنوعًا صار مكتوبا على الحوائط بخط لا يخطئه الكفيف: اسقط، اخرج، اغرب، وأنت تسير في الشوارع، فتلتقط عيناك أزقة الحرية والحفل المقام على شرف الاكتفاء، الاكتفاء عن قناعة أننا نسير، والاعتراف بحقيقة أننا غرقنا ومتنا ودفنا، ولا نحتاج الترحم فقط، بل نحتاج معجزة للنهوض! وأقيمت مأدبة الأمل على شرف أرواح وجراح أجدد براعم الأرض..

هل كنا حقا أشجع ممن سبقونا، أم أقل وعيا بمفهوم الخوف؟

أم لأننا لم نُفطَم الانتماء كما فُطِموا ممزوجا بالخنوع؟

ولأن جرعتنا كانت مخففة، فاكتسبنا مناعة في التفكير فيما سنخسر، خافوا أن يخسرونا أكثر من خوفنا أن نخسر أنفسنا!

أكان دائما جيل آبائنا بهذا الغباء؟!

الحقيقة إنهم يخافوننا، يخافون ألواننا أن توضع خارج حدود رسومهم، وكأنهم يمتلكون مفاتيح الغيب لكل ما هو أفضل لنا!

بقَوا وحدهم البائسون المتجهمون في عُرسنا، يفضلون عبودية معتادة على حرية مجهولة، عذاب الروح لم يكن في اكتشاف الخطأ أو الصواب وإنما كان دوما اعتياد احدهما.

ومع إسقاط الطغاة اختنقنا بغبار قذارتهم، فكانت كل الحملات تشير إلى التطهير، وكم يحتاج بيت هُجر من أبسط أمور الإنسانية أن يُطهّر ليَصلُح سكنا أدميا؟ وكم تحتاج الأنفس من تطهير لتتذكر أنهم أصلًا ينتمون لفئة الإنسان؟!

لعل أطرف وأقربَ حملات التطهير لقلبي هي تطهير الشوارع.

شيء ملموس أمام أعيننا، تسابق فيه الشباب لينالوا رضا أنفسهم، طرافة انحناء الشباب لتلوين الرصيف بالأبيض والأسود على نفقاتهم الخاصة، وضحكات مبتهجة ترى أي مجهود مبذول للوطن ما هو إلا ساعة لعب واستمتاع!

وهل هناك ما هو أخفّ على قلب إنسان من ترتيب وتزيين بيته بعد عودة امتلاكه؟

وما كان أحب الساعات لقلب شاب أن يترك سريره الدافئ ليقف بالساعات في مفرق طرق ينظم المرور، وابتسامة الرضا تشي بما تغيَّر في أعماق شعب وليس وطنا! وعدٌ من الجيش بستة أشهر يكونون فيها وصايا علينا نحن الأطفال في أعينهم، حتى يشتدّ عُودنا، ونمتلك إراده حرة في اختيار شخص يقود، ومجلس ينظم!

رُفعت المشانق للذين استثمروا غفلتنا وغباءنا في حساباتهم البنكية، وما عُدنا نصدّق أن الصحف تَكتب أسماءهم التي كانت مقدّسة مصحوبة بإهانة أو حتى حقيقة! وصار خبر إلقاء القبض على مقدس سابق أمر معتاد، حتى وزير الداخلية حُبس ورمي في الجحيم الذي صنعه، ولو أني أدرك أن كلابه جعلوها له جحيمًا فندقيًا خمس نجوم، فمن السهل عليك أن توقف طاغية عند حده، ولكن الصعب ـ كل الصعب ـ أن تقتلع أثر العبودية من أنفس عبيده بعد تحررهم! وضع الوصاه أحدهم في الوزارة لتسيير الأمور حتى تمر الستة أشهر، وانهال على أفراد الشعب المسكين الفتات على هيئة بشارة بالزيادات في المرتبات زادت من مَوجة الحب التي غرق فيها المجتمع سُكْرًا!

لم يكن يهمني كل تلك الإشارات غير المبشّرة، فأنا لم أتمنَّ أكثر مما أحس به الآن، نشوى تحقيق حلم ما مرَّ بنا، لم يكن تحقيقه في حسباننا لا في منامنا ولا صحونا.

هل أنا سعيدة؟

لا بل أكثر، إني أشعر للتو أني أمتلك خيوط حياتي، وأن هناك أملا في مكان أفضل أجهزّه من الآن لأولادي القادمين.

سمعت صوت هاتفي وأنا أقود، فالتقطته بلهفة ورفعت رأسي للطريق وأنا أهتف بالتحية، لكنه لم يكن سوى ناشر كتابي. رأيت الشاب المتطوع لتنظيم المرور ينبهني أن التحدث بالهاتف والقيادة لا يتناسبان، ابتسمت له بامتنان، وأنا أحاول أن أستوعب ما يقوله الناشر عوضا عن سؤاله عن مكاني، فهو لم يصدق ولم يصدق أحدٌ ممن يعرفني أن شخصية مثلي يمكن أن تغير دَفة اهتمامها للسياسة بهذا الشكل الحاد، ولم يصدق أحدٌ نزولي في أي فعالية حرية، ولا هتافي لأي قضية!

نعم، لم نولد بتلك القضايا ولم تكن لتمر حتى بخاطرنا، ولكن ما إن فاض كيل الغضب حتى خُلقت براعم القضايا في صيحاتنا، ووعينا فجأة أن صوتنا أعلى مما كنا نتصور!

أو هكذا شعرت وأنا أصيح أخيرا بشيء حقيقي كنت أريد قوله منذ زمن، ولكني لم أعرف ماهية نطقه!

انتبهت لسؤال الناشر المعتاد متى سأبدأ في روايتي القادمة؟ إنه يسأل متى ولم يسأل عما سأروي. ماذا يمكن أن أقول وكل شيء حولنا يروي حدثًا جليا لم نكن نعلم أننا محظوظون كفاية لنشهده؟

ماذا يمكن أن أروي والكل لديه ما يرويه؟

وكأننا كنا ندّعي الخرس طوال هذا الوقت، وآن الأوان لنتكلم جميعا!

هل سيسمع أحدنا الآخر في هذا الضجيج؟

كيف يمكن أن أخرج من الشعور الذي يغمرني بحياة جديدة ووطن جديد، في كتاب واحد؟ أدرك أن الجميع يتكلم وسيتكلم عن وطنه، ولكني سأتكلم عن وطن آخر وحاكم مستبد آخر يقع بداخلي!

أثرثر مع الناشر عن أخبار الأدب ومن كَتَبَ وما كَتَبَ، وحين قال وداعا ذكرته بالسلام المؤقت، فضحك، فهو يعلم رعبي غير المبرر من كلمة وداع!

حين وقف ذاك العبد الله هناك وطائرة على بعد أمتار ستأخذه مني!

أذكر تلك اللحظة وكأنها الأمس، وأذكر القميص البني الذي كان يرتديه، وشعيرات لحيته المائلة نحو عنقه، وشاربه الحليق وتعبير وجهه التائه على الرغم من أنه يعرف وجهته، يشيح بوجهه عني، لم يكن يتطلع إليّ إلا حين ترهقه مقاومة نفسه، فينسى غضّ البصر لثوان، أنتظرها بشغف، لتلقاه عيناي بغمرة مشاعر، فيفيق سريعا، ويعود يغضّ طرفه عني.

هل يستطيع أن يغضّ قلبه كذلك؟

أدرك أنه لا يلعب دور الرجل الثقيل، فقد عانى الكثير في حياته، فتعلم بناء الأسوار بين ما في نفسه وبين ما يظهر عليه، عانى الكثير في سنوات الكلية التي قضاها أمام عيني، وعانى في الوظائف وهو الذي يملك مقعدا في أوائل دفعتنا ولم يمنحه أحد ولو قدرًا من التقدير!

عانى أيضا في معاملات الناس، فلم يكن من السهل على أحد أن يفهمه، سواي أنا وبدر، فصمته لم يكن متعلقا بلحيته وبمدى التزامه، وإنما كان في جيناته. لكن هل هذا يجعلني أغفر له صمته في آخر مرة جمعتنا في المطار وهو راحل إلى بنغازي؟ حتى المحكوم عليه بالإعدام يُسمح له بأمنية أخيرة، ويُسمع له آخر ما سيقول...

تعلم أني أضعف من أن تشيح عني في ذروة حبي ووجعي!

لا أملك أن أمنعك ولم أملك حتى أن أودعك!

نفسي تخفف عني بخاطر أنك تألمتَ مثلما تألمتُ، لم تقلها قط ولم يصدر جسدك أي حركة تشي بأن فيك ما يبادلني شيء، أي شيء، ولكن حدسي ينبئني بأنه هناك، في مكان ما فيك، وجعٌ ما، لفراقي.

لم يفلح تحايلي على فراقك بحصولي على رقمك من بدر، ولم تفلح محاولاتي بوضع نظام ثابت لوجودي في يومك، ولو باتصال واحد صباحا أو مساءً!

كنت دائما تعرف كيف تكسر هذه القاعدة، فأنت تحب كسر كل ما تتعلق به نفسك، تحب التخلص من سطو اشتهاءات النفس، ولكني ما أردت يوما أن أكون مجرد هوى نفس بقدر ما تمنيت أن أكون تلك النفس. نعم أردت أن أكون نفسك وسكنك، أردت أن أكون تعويضك عن كل لطمة من الحياة، أمسحها بقبلة مني، أطوي صفحة مؤلمة بعناق يرويك.

ركنت سيارتي لأغلق عينيّ قبل أن أغرق في أحلام اليقظة، التي عادة تبدأ بمجرد حديث نفسي مع ذكراك، أتخيلني أضحك بجنون، وأنا أحتضنك من الخلف، ثم تتسع عيناك لتُفاجأ بوجودي، لكمْ تمنيت أن أكون في بنغازي الآن معك، ويأتيني حُلم آخر وأنا أخلل لحيتك بأصابعي، تلك اللحية التي افتننت بها، والتي حرمتني منك.

أدرك أن تمسكك بدينك هو أول ما لفت انتباهي إليك، رجل غضَّ البصر عن مفاتني وأشاح باهتمامه عن تفاهات أمور كثيرة هي الشغل الشاغل لشباب جيلي، لشدة ما نسينا طعم هذه الرجولة في غمرة غياب النخوة والتعقل، وتصويرها على أنها تخلف!

ولكني أدرك أيضا أني لم أكن المرجوة، لم أكن في الصورة الصحيحة للزوجة الصالحة في أحلامك، بحجابي الذي يقتصر على تغطيه الجسد حتى لو كانت مجرد تغطيه تصف!

حتى معدلات معرفتي بديني وحِفظي لقرآني كانت ـ مقارنة بك، أو بما تتمنى أن تكون زوجتك عليه ـ مخزية، ولكنها ليست فيّ كل شيء، كنت أظن أنك ستعطني فرصة لأصبح أفضل، أو ستعطي نفسك فرصة لتراني بحق من الداخل، وتدرك أن الخير موجود بداخلي، وإن كان تقصيري في العبادات واضحًا.

كنت أدرك أن الفروق في التزامنا ستكون حاجزًا كبيرًا بداخلك للتطلع إليَّ كامرأة مرغوبة، وكنت أدرك أنه ليس الفرق الوحيد، فمن السهل أن يحبك شخص يشبهك، شخص لا يبذل مجهودا لتعجبه، لأنك مقنع بالنسبة له، وكم هو صعب أن يحبك شخص على الرغم من اختلاف كل شيء بينكما!

أفيق من أحلام يقظتي، ويعود يومي ليسير كما كان يجب أن يسير، يمر الوقت ولا يمرُّ الوجع، بل يزداد بانقطاع الإنترنت والاتصالات عن ليبيا كاملة، وأُجنّ وأنا أرى الصور المسرّبة للمستشفيات وصور الجروح والأعضاء المبتورة واليتامى الباكين والأمهات مفطورات القلوب. أعاود الاتصال وأنا أعلم أن كل شيء مقطوع، نفس السيناريو بحذافيره، ونفس غباء الجالسين على الكراسي، لا يفرّقون بين شعب ينتظر قطعة لحم تُرمى له ليصمت، وشعب تغيرت دفة غرائزه، وصارت حريته أولى من جوعه!

أعود بذهني إليك، وأندم أني لم أُلِّح كثيرا في حصولي على رقم منزلك، لأني أدرك أن ارتباطك بهاتفك المحمول متقطعا خصوصا منذ رحيلك إلى بنغازي. شعرت أن اكتئابا حادا أصابك هناك، تشي به نبرة صوتك وحركة أنفاسك، في كل مرة ترد عليّ فيها. كلما سألتك إزددت هروبا مني، وكنت أملك من الجنون والتفاؤل ما يكفي لأظن أن فراقنا سبب في هذا الاكتئاب، ولكنك لم تجب اتصالاتي بشكل منتظم، مما جعل عقلي يزجرني لعليِّ أفيق من وهم الحب المتبادل!

لا أجد مفرا من الكتابة، ترتعش أصابعي على أزرار الأحرف، كيف أهدأ لأستفيض، فأكتب وذاك الرجل يسكنني؟

يجب أن أستسلم وأكتب عنك، أو لك، أدرك أنك لن تقرأ وأن كلماتي ستلقي مصير مشاعري المهدرة، ولكني سأمتهن نفس الجنون لأكتب ليوم قد تصنع الأقدار مصادفة تلتقيك كلماتي فيها، ولكن سيظل السؤال الأهم: أأبحر في أعماقك أم في أحلامي؟

أأكتب ما يجب أن يُقال أم ما أريد أن أقول؟
وفي حالتنا سيختلط الاثنان!

أخرجني صوت هاتف منزلي من حالتي فنظرت للرقم ساهمة، كان رقما من ليبيا، شهقت وتعثرت يدي بسماعة الهاتف فسقطتْ أرضا قبل أن ألتقطها سريعا.

كنت أعلم يقينا أنه هو!

أجبت بلهفة:

ـ كدت أجن عليك!

ـ .....

ـ ألو؟

ـ شهد...

أُعتِصَر قلبي حين وجدت أن الصوت لم يكن صوته!

«ألا تعلمين بأني أسير اثنين؟

جناحاي أنتِ وحريتي،

أحبكما هكذا توأمين»

محمود درويش

بدر الأورفلي

٢٠ فبراير ٢٠١١ بنغازي

شيء ما في خلق المرأة يجلب العذاب، يجعلك ترغب في تمزيقها بينما تعانقها، خاصة وإن كان بركان شعورها يتعلق بتفاهات، ولكن تلك المرأة تستعصي التمزيق، أو حتى العناق، في كل مرة يجمعني شيء بها يفقد قلبي ذاكرته، وأتساءل إن كنت أحبها أم أكرهها، إن كنت أريد أن أتوسلها همسا، أم أن أحطمها بصراخي في وجهها؟!

دوما تخلق طريقًا إلى ظلام العمق، فطرة فيها الغزو، وإني من المفترض غازيها، حرب غير متكافئة هي بين البشر والملائكة، ولكنها ملاك بلا أجنحة، كيف تطير وهي تربط قلبها بثقل رجل مثل عبد الله؟

كيف أمكنها أن تحب رجلا مثله؟

كيف تحب وردة عابدة للشمس دودة تختبئ من ضوئها في الرمال؟

أتطلع من النافذة وأرى امرأة تنتقل من دار إلى دار، لا أكلف نفسي عناء إشعال ضوء غرفتي، لأني أؤمن أن الظلام حين يسكن الإنسان يستطيع أن يتلف وظائف دماغه، فيجعله يراه في كل شيء وكل لون! ولأني صِرت أسيرة، فقد أصبحت أفهمه أكثر مما مضى، حاولت الهرب

منه في صوتها، لكني محاصر بكل ما يستمتع بطرق رأسي، كل بحة في صوتها لأجله تطرقني، تلك الغبية كانت تسأل عن اسمه وهي تسمع صوتي، يمَسني بالجنون ألا تحاول حتى أن تحفظ كرامتها أمامي. ولأني أعرفها وأعرف أن صاعقة قطع الاتصالات هبطت عليها بالجنون، فبمجرد أن تم قطع الاتصال حاولت تجنيبها كل هذا واتخذت أسرع طريقة للوصول اليها.

هاتفتها من هاتف أرضي قبل أن يطاله القطع، لكن كيف صور لها ظنها أن عبد الله قد يفكر في قلقها عليه ويشغل باله بطمأنتها؟!

لو كانت أمه على قيد الحياة لنسي أن يعلمها بسفره!

أدرك أن طبيعة نشأة عبد الله تدخلّت في خلق المزيد من الأسوار بينه وبين التفاعل الطبيعي مع البشر، فليس من السهل على ولد صغير أن يرقب أمه تموت أمامه حزنا على رجل هجرها، والذي من المفترض أن يكون والده، ولكنه قط لم يشعر بحقيقة هذه الكلمة، وأدرك أيضا أن شهد تعيش في عالم وردي حالم ليس مرتبطًا بالكرة الأرضية، التي نعيش فيها وذلك بالطبع يرجع للبيئة الأسرية القائمة على الحب حولها.

إن من ينشأ تحت جناح الحب يظن أن الحب مسلم به في أعماق الجميع وطباعهم وحياتهم!

لم أكد أنطق اسمها حتى سألتني بإلحاح:

ـ بدر كيف حال عبد الله؟ هل هو بخير؟

ـ .....

ـ بدر؟!

ـ اهدئي... إصاباته خفيفة...

ـ أصيب؟!

ـ اشتبك مع أحد المجرمين المندسين، وأصابه في رأسه ببعض

الجروح، ولكن لا توجد كسور ولا إصابات عميقة.. لا تقلقي...
ـ أعطه الهاتف.. أريد التحدث إليه.
ـ أنا أحدثك من مكان بعيد عن بيته، وهو لم يفِق من إغمائه بعدُ، لكنه..
قطع حديثي نحيبها، حاولت إلهاءها بالمزاح، فقلت:
ـ لكني بخير... ألن تسألي عني؟
ـ .... أنا آسفة لقلة ذوقي...
قلة حب، وليست قلة ذوق يا شهد!
ـ كيف حالك، وحال أسرتك؟ كيف هو خالد؟
ابتلعت الغصة، فخرج صوتي مبحوحًا، فلم أكن لأخبرها لولا سؤالها:
ـ خالد الناجي؟
ـ أجل... كيف هو؟ هو في البيضاء أليس كذلك؟
ـ لم يعد بناج!
ـ ماذا تعنيً؟!
صرخت في وجهي وبكت، لأني وصفت موته بطرفة!
هناك قاسم مشترك بينها وبين عبد الله، وهو تقديس الأشياء من ضمنها الموت، والمزاح بشأن شيء مقدس ـ برأيهم ـ أمر مخزٍ.
حسنًا، لأدع على نفسي بالموت عقابا، ولكني سأظلُّ أسخر من موت خالد ما حييت، فمن المفترض أنه الناجي، ولكنه كان أول الشهداء! ألا تستحق هذه المفارقة وصفها بمئات الطرف؟!
تجاهلت سبابها، وأكملت:
ـ ألم تقرأي أسماء الشهداء؟ أمه بمجرد أن سمعت بموت أول شهيد في أحداث البيضاء، حتى عرفت أنه ابنها، قبل أن يبشرها أحد! أخذ

طلقة في قلبه مباشرة! ألم تسمعي بشيء كهذا؟ ماذا حدث مع مصطفى رجب شهيد السويس؟ اسألي أمه لو كان قلبها قد التقط في ذرات الهواء أنها لم تعد تدخل رئتيْ ابنها مجددا... هل يستأذن ملك الموت أُمّ الشهيد قبل أخذه؟

ـ كفى...

يحرقني بكاؤها، يغيظني، أعيد السؤال، فتخرج شهد القاسية من أعماقها لتواجهني:

ـ إنها لا تعلم ولا تصدق! لا أُم تريد أن تصدق أن ابنها سيُغطى بالتراب قبلها وعمره نصف عمرها!

ـ نعم، فالأولاد قد ولدوا ليدفنوا آباءهم، فكيف يمكن أن يحدث العكس؟ ليتهم ما ولدوا قط، ليتك ما ولدت يا ناجي!

ـ كيف أمكنك أن تكون قاسيَ القلب بهذا الشكل؟ لقد كان خالد صديقَ طفولتك، لقد سكنت في شقته عندما درست الهندسة هنا في مصر، وساعدك في كل مشاريع الدراسة؟ كيف يمكنك أن تسخر ببساطة من حدث كموته؟!

ـ نعم عِشنا معا خمس سنوات أيام الكلية، عشتِ معنا كذلك، وكان عندك كل الوقت لتعرفيني لكنك ما زلت لم تعرفيني! ولم تسألي سوى عن عبد الله!

دائما ما يخرسها العتب، ويبكيها لاحقًا، أعرفها أكثر مما تعرف نفسها، وأعرف أنها تفضل الهجوم حين تشعر بالتهديد، بدأت بتقريعها لي، لأني تركتُ عبد الله يتعرض للخطر، وهل لأني دعوته ليعمل في ليبيا معناه أن تكون وظيفتي جليسة أطفال له؟

كما أنه ليس من المتوقع إطلاقًا أن يقع كل هذا لشخص مسالم مثله! انتابني خاطر لحظتها جرحني:

هل تراها استهجنت أني بخير؟ أتراها تمنت ولو لثانية لو أني أصبتُ بدلًا منه؟! أخرجتني من هواجسي بصوت قد هدأ وأرقّه الندم، فسألت:

ـ كيف سينتهي الوضع في ليبيا يا بدر؟

ـ لن تكون نهاية سعيدة مثلكم شهد، ستكون القيامة! مخلوعكم كان عسكريا قاسيا، ولكن أضيفي لرئيسنا فوق كل هذا أطنانا من الغباء!

ـ جميعهم، وإلا كيف يكررون نفس الخطأ ويتوقعون نهاية مختلفة؟

ـ الشعب الخانع يغري الجبار بالفُجر، فيبخل حتى في خداعه أن يُجهد عقله! ومن كان يظن أن إفاقة الشعب ستأتي على هذه الشاكلة وفي هذا التوقيت تحديدا؟! ربما لا يجب أن نسأل لماذا ثورنا، بل أن نسأل كيف صمتنا كل هذا!

ـ لئلا نخسر وضعًا تعوّدنا عليه!

ـ أجل لوضع مجهول... دائما هو المجهول!

صمتنا صمت متوتر، ثم اغتالتني:

ـ بدر أرجوك...

صوتها كان يعتصرني، كنت أريدها بين ذراعيّ، كان يجب أن تصمت، لماذا لا نصمت حين يكون الخيال أقدر على رسم كلمات أفضل؟!

ـ أرجوك، اطلب منه أن يعود إلى مصر.

ثم تداركت خطأها:

ـ عد أنت أيضا... يمكنكما معًا استئجار شقة حتى تهدأ الأوضاع... أرجوك لأجل سلامتكما.

ـ لا أبرح بيتي حتى وهو يحترق، إما أن أتحول معه إلى رماد أو أعيد بناءه... شهداء مصر رجال، لسنا نقل عنهم في شيء.

انتهى كلامنا بخيبة قلب لي ولها، هل كنت أريد أن أريح قلبها حقا أم أني كنت أريد رشفة منها؟ عطش أنا لابتسامتها الخجول، وغزل الصباح

الباكر في طرقات الجامعة الباهتة، آتي باكرا لأنتظرها وتأتي بعدي لتنتظره، فنثرثر حتى يشرفنا هو بعد بَدْءِ المحاضرة!

أحب طرف لسانها وهو يُحشر بين أسنانها حين تفرط في الضحك وأنا أغازلها، تتحداني بطرف بيت شعر، فألصق به طرفه الآخر من ذاكرتي، أجن إن لم أكن أول من يقرأ قصصها، نتبادل الآراء بخصوص شعرائنا المفضلين وقصائدنا المختارة وأجمل وأمتع الكتب من وجهة نظرنا. أحدثها لساعات بشأن مشهد أثَّر فيَّ برواية أو قصة أو حتى فيلم، فتلتمع عيناها وهي تصف، وهي تقطب حين تهاجم شخصًا ما أو فكرًا ما، وأحب معاكستها لتخرج كل ماعندها من غضب!

أنا وهي نتحدث نفس اللغة، وهو يجلس بصمت بجواري، وتتعمد إذلال قلبي في جعلي الوسيط بينها وبينه، قربها مني جاءني بنتيجة عكسية، فلم تعد تشعر بالحرج من إذلال نفسها أمامي، وهي تتودد لعبد الله، حين كانت تكتب له وريقات صغيرة تمنيت لو أنها مرة واحدة كانت لي، فتعطيني إياها في يدي في وسط المحاضرة لأوصلها له يدا بيد، ولكي يسكتها يظل محتفظًا بها بجانبه دون أن يفتحها، وتتعلق عيناها بوجهه ويده وورقتها، لساعات، ولا يحتاج قلبي سوى للحظات، لينفجر فيها من فرط ما هدر أمامه من مشاعر كان يتمنى ولو رشفة منها!

شيء ما في المصريات يجعلهن يظن أن ثمة خطيئة كبيرة في حب رجل ليس بمصري، وكأن هناك جينا ناقصًا في رجولة أي رجل من جنسية أخرى! ربما كانت تربية وتقاليد، ولكن القلب لا يعرف مثل هذه الأشياء، فلما لم أخرج في أعماقها من مكانة الصديق؟ ألِأَنه كان هناك؟ هل كنت حظيت بفرصة لو أن عبد الله لم يتعرف عليها؟

سأظل أندم طوال حياتي على أني عرفتهما على بعضها البعض!

حكاية عبد الله تفي بالغرض في وقوع أي إمرأة في حبه، فضلا على

أنه رجل ثقيل، قلبه بيده يعرف كيف يتوقف في الوقت المناسب، أظن أن التزامه ساعده على هذه الخاصية!

شعرت أنه في بداية معرفتهما انجرف قليلًا، ولكنه أعاد سحب نفسه من تذوق هذا الشهد، أما هي فعلى النقيض كلما ابتعد عنها زادت التصاقًا به، وهو أمر يكاد يقضي على كل عرق نابض فيّ، إنها لا تحبه، إنها تشفق عليه، طرف واحد في الحب لا يكفي لبناء بيت، لا يمكن لهما أن يتزوجا حتى وإن كان يتمتع بورقته الرابحة كونه مصريَّ الأصل، لكنه لم يكن قط مناسبا لها، فلم يملك نفس الاهتمام لقراءة الأدب، واتجه للقراءة في الدين والتاريخ.

لا أظن أنه قرأ لشهد نصًا بإرادته، سوى ما كنت أدس أنفه فيه غصبًا حفاظًا على مشاعرها!

ألا يملك أدنى درجات الفضول لمعرفة ما في أعماقها؟

مخدوعة هي بمظاهر تدينه، تحلم بالرجل المثالي وكأن كمال العبادات يحمل في طياته كمال الأخلاق! يثير عاطفة الأمومة اتجاهه، لا أدري ما في الرجل مفلس العاطفة ما يثير رغبة النساء بالقرب منه والاهتمام به وهذا شيء لا أريد أن أفهمه، لأني أجده مهينا جدًا للمرأة، خاصة لتلك المرأة، امرأه مثل شهد لن يغنيها عشق الرجال كافة، لقد خُلقت من الحب وللحب، وستظل أبدا ملكته وأسيرته!

غطى زفير سجارتي مجال رؤيتي، فانتزعني من هواجسي. التفتُ إليه، كان هناك قابعًا على سريري لا يظهر من رأسه سوى لحيته التي لم تطالها الضمادات.

من كان يظن نفسه؟

هل ظن أن تقليده لأحمد بسيوني سيجعله ينال الشهادة؟ من حسن حظه أنه لم يصبه أيًا من الرصاص الحي الذي كان يتمايل بالأجواء!

وجدتني أجلس على حافة سريره. هل كنت أحس بالغيرة؟ ليس لأننا نتنافس فقط على قلب امرأة، وإنما على قلب وطن، وطن حتى لم يكن وطنه!

خرجت إلى مصر أطلب علمًا لا يملكه وطني على الرغم من كل تلك الثروات، التي ترك عبد الله وطنه لأجلها. علم ولقمة عيش، صفقة معرفتنا. بحثت له عن عمل بمجرد تخرجي، لأرد له ما فعله معي في غربتي في مصر. ماذا سيفعل الذهب الأسود في أسرة حاكمة لا تعرف الشبع؟ ونحن رقم عشرة في قائمة النفط في العالم تتبدد الأنهار السوداء من بين أصابعنا لرجل مريض استقبل وجهه ذات صباح بابتسامة بلهاء حين صار فجأة رئيسًا! بأعوام عمري لم أستوعب عبث الأقدار في وصول من هم مثله إلى كرسي حكم وطن بحجم وطني.

صمت الليبيون على السرقات والمهانات، لأن خير ليبيا ما كان قد انتهى بعد.

هل يمكن أن يكون البله على وجه الحاكم نبوءة ببقائه أكثر؟

أكثر الإجابات استهجانًا هي للأسف الإجابات الصائبة! أتفهم صمت الليبيين، ولكني لم أفهم قط كيف استطاع هذا المعتوه إخراس الأمازيغ، لمولدي واسمي وعرقي طعم الحرية، ما زلت أُنادى ـ كما كنت أحب أن يناديني الجميع ـ بدر الأمازيغي، بدر الحر، وهل من جبان يمكن أن يطالب بتحريم التحدُّث بلغة مثل لغة الأمازيغ حتى في الهواتف لأجل أن يَطمِس مَعلما آخر لمعالم الحرية في عهده؟

يخاف النساء وهن يفطمن أولادهن بالأمازيغية، فيدّعي أنهن يسممّن أطفالهن، يظنه قادرا على طمس لغة وعالم وحضارة بالسلاح، ولكن السلاح لا يميز بين الجينات، يقتُل ليسكت ضجيج الفشل، يخرس الكلمات قبل أن تغتاله، أربعين عامًا وهو يظن أنه ناجٍ، لكنَّ الموتى يعودون، دائمًا يعودون ليكونوا جحيم قاتلهم في دنياه.

كم دفع لقبيلتي الأورفلي وقبائل ليبيا ليعلّموا أولادهم السكوت؟ والغريب أن قبائل منهم قبلت بالمال وباعت دماء غيرهم ثم اجتمعوا وفرضوا على أبنائهم الخذلان. يريدوننا أن نقدس مجرد عفن! لقد ألف الخرافة وصدقها، وصدرها لنا دينًا في كتاب أخضر أُوُحِيَ إليه بوسوسات طغيانه الجامح! يسير عمره، لكنه دائمًا يعود لنفس التاريخ، تاريخ فعلته السوداء في سجن بوسليم، وهل ينسى أب حرقة قلبه في ولده حين يموت مرتين، مرة بدون علمه ومرة حين يعلم بعد سنوات، ولم تقر عينه حتى بدفنة تليق بابنه، مئات الأرواح والدموع عالقة بعنقه، فكيف يمكنه الخلاص وقد أراح نفسه بالنسيان..

لولا أن حرقة القلوب تشكلت على هيئة قضية ضده في منظمة حقوق الإنسان، شوكة غير قادر على نزعها قط من حَلقه مهما امتلك من نفوذ، وحتى بعد كل تلك الدعاوَى الإلكترونية لثورة مماثلة عليه كان من الغباء، بحيث اعتقل محامي أهالي ضحايا بوسليم، فتحي تربل يوم الثلاثاء الماضي، ونشطاء آخرين ومدوّنين لاذعين ليسوا على مزاج النظام.

أتذكر شعوري حين سمعت هذا الخبر، عرفت أني جالس على بركان سينفجر ويجرفني، لقد عجَّل هذا الأحمق بميعاد الطوفان، وماذا كان ينتظر الناس أكثر من قشة كهذه لتتصاعد صرخاتهم في وجه الأمن، وبالهجوم على المكاتب الحكومية، وأي شيء يمكن أن يخص حكومة هذا المعمر؟

حتى بعد أن أفرجوا عنه لكي يهدأ الوضع لم يكن هناك مجال للسيطرة على غضب النفوس نهائيًا من جديد.

توقعت أننا سنشهد مظاهرات مماثلة لمصر وتونس، توقعت أن الأمن سيبدأ بالخرطوش والخراطيم ثم الرصاص، توقعت أن القتل لن يكون

بمثل هذه الوحشية، لكن الاشتباكات فاقت حد تسجيلها في مدن الشرق، والقذافي راقد في فراشه يراقب ويزم شفتيه بملل، يرفع أصبعه، فيرسل المئات لحتفهم في ساعة! فقط لأنه لم يكتفِ بتوزيع أموال الشعب على بنوك العالم باسمه!

وهل كنا ننتظر الحريق في بيوت جيراننا لنحرق بيوتنا المسقوفة بأغلالهم؟

جاءتني الإجابة حين استيقظت صباح الخميس لأجد طيران القذافي يقبّل بنغازي بالقذائف! حين يقذفك زلزال من سريرك فيوقظك الارتطام، وحين تصحو، لتجد الأرض المائلة لبيتك تجهدك في السير حتى النافذة، لتفتحها فتجد بيتًا كان يقبع بجوارك وفيه بشر وأطفال ونساء ورائحة طعام شهية وضحكات وتلفاز وعرائس وألعاب! تجد فيه هوة سحيقة مسحت نصفه وتركته رمادًا أسود، وغبار قبيح يتصاعد منه، وتجد رائحة خانقة للحم قد تم شيُّه، بل تفتيته!

هل احتمى الناس ببيوتهم؟

بل تجردوا منها ليتظاهروا عراة من أي حماية في وجه قصفه، كانت تلك نقطة اللاعودة، لحظة كأنها بوابة تصل إليها حياتك لتأخذ منعطفا ما كنت تتخيل أن تجد نفسك فيه، وتعلم جيدًا أنك قط لن تعود كما كنت في السابق.

نزلت من فوري إلى الشوارع، ولم أصدق ما شاهدت! حسدت المصريين وقتها، لأن القتل طال الأجساد فقط، لكنه لم يطل البيوت والشوارع، خراب فقدان شخص، يلحقه خراب فقدان شارع، فقدان بيوت بأكملها، الشخص وامتداده يختفيان، الشخص والذكرى، إنهم يمحون ذكرياتنا ويمحون الأرض من تحتنا!

ركضت بسرعة لألحق بمحمد نبوس بكل ما استطعت أن ألتقط من صور في هول فزعي، وحين وصلت لدار المحكمة التي كان يعدّها ليبثَ

جرائم القذافي على الهواء مباشرة، حين دخلت عليه كان يلفّ حول نفسه، ويردّ على العديد من الأخبار حين يكاد كلامه يكون بلا معنى، يمسك بصلعته، ثم تأتي عينيٍّ في عينيه، فيمسك بياقة قميصي، وهو يهزني ويطلق كلام، كل ما فهمته منه أنه من أثر صدمته، لقد شاهد القتل بأم عينيه بأبشع الصور في التحرير وفي شوارع بنغازي، ووضع كاميرات التصوير متصلة مباشرة لموقع لايف ستريم.

رأى أبشع ما يمكن أن يرى، ولكن خياله لم يصل إلى قصف ليبي لليبي آخر بقنابل بالطيران! كانت زوجته الطرابلسية تجلس في الزاوية وهي تنتحب، بل حتى زهير نفسه ـ شريك نبوس ـ كان ينتحب!

كانت دقائق قد مرت حتى استجمعوا شجاعتهم وواصلوا العمل. نبوس تحدى قطع الاتصالات ووصل كاميراته بطبق إرسال فضائي، حتى يوصل للعالم ما حاول القذافي جاهدًا أن يخفيه.

انتزع مني الكاميرا، وأخذ كل ما عليها من صور، وسألني عن الأماكن. كل الناس تسير في كل اتجاه، والأسلاك هي ديكور المكان، خارجة وداخلة من الأبواب والنوافذ، يُجلسون المتحدث وخلفه قماش أو ملاءة سرير، لتصنع خلفية بلون محايد، فيبدأ بالحديث مباشرة ارتجالًا عن آخر ما وصلت إليه جرائم القتل، وآخرون في اليسار يتلقون الاتصالات بشأن ذويهم وبشأن أسماء الشهداء، ثم قائمة جديدة تجهز لأسماء من قتلوا لتبث. تطول القائمة فتصير قائمتين.. ثلاثة.. أربعة.. عشرين!

يعجز صوت المتحدث في القناة على أن يواصل نطق كل الأسماء، فيتم بثّ القائمة كما هي على الشاشة. التقطت الإشارة قنوات CNN والجزيرة، فامتلأ قلبي بالأمل، فلا أسوأ من أن تُقتل في الخفاء ويخرج قاتلك للنور باكيًا عليك!

رأيت أشخاصًا تحوّلوا إلى أخبار في ثوانٍ، رأيت كيف تصير الثواني

فاصلة بين السعادة وفوهة التعاسة، سمعت عدة أسماء أعرفها ولا أعرفها، أحيانًا يكون هول الفاجعة أكبر من قدرتنا على الحزن، فنتبلد ونسايرها حتى نجد في عقلنا قدرة على استيعابها!

عدت إلى بيتي وأنا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم، وما كنت أتوقع قط أن يكون أول جسد يُسلَّم لي هو جسد عبد الله!

في البداية حال دمه دون تعرف الجيران على ملامح وجهه، لكني عرفته من أجزاء كاميرتي المهشمة فوقه. مسحت عن وجهه الدماء، فعرفت أني سأكون على موعد مع دموع شهد حين أخبرها. لم أكن قد تعافيت بعدُ من فقدان خالد الناجي، حتى أفقد صديقًا آخر!

وجدت نفسي أخرج كل ما حبسته بأعماقي من صراخ، وأذرع كثيرة تشدني وتتلقفني حتى أخرسني باهي خليفة بيده على فمي، وصرخ:

ـ اهدأأأأأأأأ! اهدأ لم يمت! لم يمت! سننقذه.. تعال نحمله.

حملناه إلى سرير غرفتي، وباهي يستغفر الله ويتضرع إليه وهو يضبط وضعية جسد عبد الله في سريري. أمي تبكي دون أن تدرك حتى ما الموضوع. خرج إلينا الحاج خليفة ـ والد باهي ـ وهو يسأل الله اللطف في البلاء. احتضن يد عبد الله وهو يبكي وصوته يترنح بالدعاء، وكان باهي قد رحل يستدعي أقرب طبيب. لحسن الحظ كان صديق باهي يملك من الوقت ما يجعله يكشف على عبد الله في منزلي دون أن نضطر لسحبه إلى مستشفى قد يُقتل فيها ونحن نيام!

أخبرنا أن جروحه طفيفة، مجرد كدمات دون أي كسور، وارتجاج في المخ مع جرح سطحي لفروة الرأس والكتف.

محظوظ عبد الله حتى في كسب قلب الموت!

كنت أتطلع لوجهه بعد ساعات من كل ذلك الجنون، أعجز عن فَهم ماهية شعوري اتجاهه، أريد أن أبكي في حضنه بكاءً خفيًا، وأريد أن

ألكمه بكل ما استطعت من قوة، وجدتني أقول بصوت عالٍ:

ـ أنت حتى لا تستحق كل هذا الحب!

رمشتُ لجزء من الثانية، فوجدته يتطلع إليَّ بعينين ثابتتين، وكأنه يريد أن يقول: أعلم!

«لقد كُتب عليّ أن ألجأ مرتين إلى المنفى.. هاربًا أو مرغمًا على الفرار من أقرب الأشياء إلى الرجل وأكثرها تجذرًا في صدره:

الوطن والحب»

غسان كنفاني

عبد الله محمد

لا أحد يتذكر الظلام حين يغرَق فيه.

يتذكره فقط حين تعكره الأحلام! صور كثيرة متداخلة من الماضي القريب والبعيد متشعبة أربكتني وأشعرتني أني بينما كنت أطفو بدأت أرتفع إلى أعلى وشيء ما يسحب تنفّسي حتى ظننت أنها لحظة نزع الروح!

عِشت في عالم موازٍ لا يزوره الزمن! للحظات، ربما لسنوات، قلت كلامًا لا أدري لمَ قلته، صرخت وفزعت وهدأت وبكيت، ووجدتها أمامي، وتركتها خلفي، تلك التي هدأت حين سمعت صوتها في أذني ثم غبت عن الوعي!

رأيت أناسًا كنت قد فقدتهم، وأضعت آخرين كنت أظنهم من المسلمات، ثم تداخل اللاوعي بالوعي وبدأت أشتم رائحة دخان سجائر. شعرت بأجفاني ثقيلة، كأنما التصقت ببعضها البعض بالصمغ، وألم حاد في رأسي، فتخيلت للحظات أنها ربما تكون مفتوحة!

أحلم أني أحاول النهوض، وأشعر بألم معاناتي مع جسدي لأنهض وأتحرك وأحلم أني مشلول أو عاجز وأبكي وأصرخ، وفي الحقيقة أني عاجز حتى عن تحريك فمي، ثم شعرت برجة في جسدي، وكأن روحي

قد طفت على السطح، ولفني ضجيج الحياة، ففتحت عينيَّ ببطء.

كانت الصورة غير واضحة، ولكني كنت أعرف أنه بدر!

شعرت بسكاكين في عينيِّ أجبرتني على إغلاقهما من جديد. ليست المرة الأولى التي تقترب منها روحي إلى الموت لهذا الحد، متُّ آلاف المرات ذهنيًا، ولكنها المرة الأولى التي يموت فيها معا الجسد والروح ثم تساءلت: كم مضى عليّ من الزمن لأرجع إلى الحياة؟

سبحانه وتعالى كان خيرَ حافظ لي.

شعرت بحركة بدر، وكدت أجزم أنه التفت لي وتطلع إليِّ باشمئزاز، لكنَّ نفسي اطمأنت حين تأكدت من وجوده معي، شعرت بخطواته تقترب مني ثم اهتزَّ السرير هزة خفيفة بجلوسه.

أفهم أنه غاضب.

بعض الناس يعبرون عن قلقهم على من يحبون بالغضب، لكن بدر من وجهة نظري يعبر عن كل ما يحس به بغضبه، إذا أحبَ غضِب أو اشتاق أو حتى تألم لوطنه لغضب عليه، حتى وإن أخفى غضبه ـ وهو شيء نادر الحدوث ـ فإنه يتصاعد في حوار وصدام شخصي بأعماقه ينتهي بجملة كتلك التي ألقاها في وجهي، وأجبرتني على فتح عينيِّ: «إني لا أستحق الحب!».

ليس أول من قالها لي، وكأنه يخبر رجلًا لا يرى سوى الظلام بأنه ربما يكون أعمى! أعلم يا صديقي، شكرًا على هذه المعلومة الجديدة!

يقولها وهو يظن أني لن أسمعه، يراني أحدِّق به ولكنه يظل هادئًا، يعلم أن الجملة لن تجرحني، لا تجرحني الحقائق، وما تبقَّى ما عاد يجرحني، تمسكي بالحقيقة لا يؤلمني ولا يخذلني كما خذلتني الكثير من الأماني والأحلام!

تطلعت إلى عينيه وشعرت بأساه، والسؤال يخيفني، ولكنْ تَرَنُّحُ الإجابةِ يُفقِدُ ضربات قلبي اتزانها! جاهدت لأتكلم، فخرجت الكلمات أنصافًا، اقترب برأسه مني، فحاولت إعادة الكلام، ارتجفت حدقتا عينيه حين التقط كلمة ناجي، ثم تبللتا!

أدركت أنه قُضي الأمر، ومات الصديق، وأن كل ما حصل لم يكن مجرد هلاوس! تطلعت إلى السقف وأنا أحاول استجماع قوتي، ولم أفلح في تذكر شيء منه سوى ابتسامته، تمزق قلبي على الرغم من أني تذكرت ألمي الذي شعرت به لحظة معرفتي الأولى بموته، فلقد اختبرت فقدانه مرتين!

لم يكن في حيلتي سوى الدعاء.

همست بالدعاء لروحه وضقتُ بغيرتي منه، لطالما تمنيت ميتة كميتته فكما قال نبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ «*أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل*».

وهل كانت لي أمنية أقوى من هذه؟ لكن الله يقدّر وهو اللطيف الخبير.

اختبرتُ حركة أطرافي واطمأن قلبي، ثم تناهَى إلى مسامعي كلام بدر، وقد أخرجني من أفكاري، كان يشرح لي كيف وجدني مَن وجدني وكيف جاء بي، وكيف انتهيت هنا، كان يتحدث بسرعة وأنا اتألم ببطء، وأحاول جاهدًا تركيز ذهني في معنى كلامه، شعرت في آخر كلماته بضيقه لعدم ردي، صمتَ لدقائق بنفاد صبر، ثم قال:

ـ كيف كان يبدو؟ أتذكر ملامحه؟

كانت للجملة معانٍ كثيرة، لكن عقلي ترجمها على الفور باسترجاع صورة بائسة للملامح التي التقطها من بين ما طالني من السباب والضرب من المجرم، الذي تسبب في غيابي عن الوعي ساعات، وجهه المستطيل، وعيناه الضيقتان، والشامة فوق حاجبه الأيسر، بدا لي مألوفًا على الرغم من أني لم أقابله شخصيًا، ولكن وكأن الإجرام يُحيل الوجوه إلى توابيت!

ما زلت لا أستوعب كيف يهاجم شخص بكل هذا الغل والحقد شخصا آخر لا يعرفه لمجرد أنه ينتمي لفكر أو فصيل لا يعجبه، أكاد أجزم بأنه لو

رآني مجددًا لَمَا تذكرني، لا يتذكر الإنسان وجه مَن ظلمهم وإنما دائمًا يتذكر بوضوح من ظلموه، وفي ذاكرتي تقبع آلاف من تلك الوجوه، فهذه مأساتي، فلقد اعتدت النبذ والتهجم الدائم لمجرد أني أحاول...

كنت أصف الملامح بقدر ما أستطيع أن أتذكر. باغتني بدر بعتاب في صيغة سؤال:

ـ لماذا خرجت؟ ماذا كنت تحاول أن تفعل؟

أصابني الجمود وأنا أتعجب، كيف يعرفني كل هذه السنوات ولم يعرفني بعد؟ يسيءُ الظن بإنسانيتي ورجولتي لمجرد أن الأرض ليست أرضي، ولا الوطن وطني، يظن أني سأسمع صوت القذائف وأرى آثارها على البيوت والأجساد المتفسخة والمتفحمة، وسأستطيع أن أصمّ أذنيَّ ببساطة عن النواح والعويل، وسأُحكِم حماية قلبي من الفقدان، يستوي الجميع في الفجيعة، ولن تخرج ردود الأفعال عن فطرة الجزع والحاجة الماسة لرد فعل. رأيت من تبرمه أني أطلت، فأجبته:

ـ أخذتُ كاميرتك ونزلت إلى الشارع.

ـ لماذا؟!

ـ لأنك لم تكن موجودًا.

ـ وهل هذا سبب؟

ـ كان على أحدنا أن يفعل شيئًا ما.

ـ لم يكن على أحدنا التصرف بجنون، وأنت تهورت يا عبد الله، كان من الممكن أن تُقتل، أفاتتك الشهادة في مصر، فجئت تطلبها هنا؟!

ـ أنت ذهبت بكل ما لديك من صور إلى نبوس، ولا بد أنه نشرها الآن، وستصل إلى العالم، كما يمكنك أن توصل إليه مواصفات الذي تهجم عليَّ، لعلنا نستطيع أن نلقي القبض عليه قبل أن يؤذي آخرين. كنت أريد المساعدة.

ـ إذا أردت المساعدة فابقَ كما أنت، لا تفاجئني، فيكفيني ما يدور في عالمي من جنون!

ـ ......

ـ ستجعل شهد تقتلني!

ـ .... !!

كنت أعلم أنه سيتحجج بها، وكنت أعلم أن اسمها سيُنطق في أي جلسة عتاب بيننا، لا بد وأن يُطعّم بدر محادثاته معي بها وكأنه يختبر ردة فعلي، ليبحث عن شيء يعلم أني أجيد إخفاءه، وتخذله ملامحي كالمعتاد، ولكن ما استغربته هو القهر النازف من صوته، وهو يتطلع إليَّ بوهن لم أعهده به. أكمل حين استطال صمتي:

ـ يجب أن تعود يا عبد الله، لا مكان لك هنا، هذا البلد لم يعد صالحًا لمعيشة أهله فيه، فما بالك بزائريه، يجب أن تعود مع المصريين الذين سيعودون في المعابر، ما إن يسيطر الثوار على الطريق إلى معبر السلوم حتى ترجع.

ـ أنا لن أعود.

ـ وماذا ستفعل هنا؟! ستقاتل؟

ـ لا تستخف بي يا بدر.

تختفي الابتسامة الهازئة على وجهه، فيكمل:

ـ إنها أوامر عليا عليك تنفيذها.

ـ ... ؟!

نهض فجأة وسار سريعًا ناحية الباب ثم توقف قبل أن يختفيَ عن ناظري، وقال لي بوجه متألم:

ـ شهد اتصلت بك كثيرًا، كانت قلقة عليك، اتصلتُ بها من هاتف عمومي وأخبرتها بإصابتك. طلبت مني أن أترجاك لترجع. لم تكن تعلم بموت ناجي، لن يهدِّئ من روعها سوى عودتك.

ثم رحل، وتركني أستوعب كلامه على مَهل.

دائمًا شهد، دائما تكون هي الحبل الذي يرفعني إلى السطح حين أتمنى الغرق، أو ربما كانت الثقل الذي يعيدني إلى الواقع، إلى الماضي، إلى الوطن!

لو أني هجرت القارة التي تسكنها، بل الكرة الأرضية كاملة، لوجدتْ طريقة لتلحقني بها، مثلما فقدت وعيي في تلك اللحظة وبطريقة ما تسللت ذكرى غنائها لأغنية أم كلثوم المفضلة لها أمامي، ونحن واقفون في الكلية لساعات في انتظار ورق النتيجة أن يُعلق، فجاءت هي بصوتها ـ الذي تعلم جيدًا مقدار فتنته ـ وغنت للجموع دون أن تفكر لحظة فيما تفعل، ثم وبعد عدة جمل انضم إليها الزملاء في الغناء بعد أن استوعبوا ما يجري.

كان وجهها ـ يومئذ ـ حيًّا كما لم يكن من قبل وكأن السعادة حفرت ملامحه! هل كانت تلك اللحظة الأولى التي ينبض قلبي لها؟ لم أحاول التأكد من هذه الفكرة، ولكني كنت متأكدًا أن ما شعرت به في تلك اللحظة، كان شيئًا يفوقُ الإعجاب، ويختلفُ عن كل شعور بات في صدري من قبلُ.

ثمة وجع يمكن تجاهله، وهناك أوجاع تعجز النفس عن التخلص منها والحياة دونها كذلك، أغمض عينيَّ وأنا أحاول طردها، وهي تأبَى أن تريحني!

ماذا يضيرك يا شهد لو أني مِتُّ؟

وإن مات الجسد أو عاش، فالروح هي الحقيقة الوحيدة والصيغة الوحيدة لمعنى كلمة حياة، وقد ماتت روحي منذ زمن بعيد، وتعلمين ذلك.

أنتِ أكثر من يعلم الحقيقة، ولكنك تأبين التصديق، تظنين أنه بمحاصرتك لي فأنك تهتمين، أنك تعوضينني ما خسرت، لا تريدين أن تفهمي أن حبًا لا يحل محل حب من نوع آخر، وما فقدته في طفولتي وشبابي أشاخني،

ولن أتمكن من تعويضه بكِ، سيرويني حبك، لكنه لن يمسح آثار أقدام داست عليّ، وعلى روحي وكرامتي وكل ما يعتبر أنا، ظننتك تعرفيني، لكن كل ما ترينه فيَّ هو انعكاس لنفسك، ولِمَا بداخلك من حب ليس إلا.

ارتجفتْ أطرافي وشَعرتُ بالبرودة، تدثرت وقَرَّرت ألا أعودَ، إني أعرف ما يكون الصقيع فقد عشت فيه وما زلت، وسأظل أعيش فيه، وشهدٌ شمس أشرقت بغير أوانها ولا مكانها على نفسي، وعرفتُ أني قبلها ماعرفت الدفء، لكن شهد ليست دافئة فحسب وإنما حارقة، تكاد تذيبني، فأحاول الهرب منها في كل جُحر أختبئ، ولكن بطريقة ما تجد أشعتها طريقًا أو فتحة لتصل إليَّ!

اعتدت الظلام يا شهد، فلمَ تجبرينني على النور؟

تظنين أنك تنقذيني ولكنكِ ـ أحيانًا ـ تكادين تدفنيني بحبك الجارف، ومشاعرك الفياضة التي لا ترويني بقدر ما تغرقني، لو أنكِ ترفقتِ، لو أنك فكرتِ، لأدركتِ أن رحيلي كان القرار الصحيح.

تظنين أن فارق التدين بيننا هو الذي جعلني أتركك، هو الذي جعلني أستبعد فكرة زواجنا، نعم كان جزءًا من قراري، ولكنه ليس السبب الوحيد، تستغربين أن يتعارض شعوري تجاه امرأة واختيار قلبي لها مع الصورة الصحيحة التي أتمنى زوجتي عليها؟

كيف يمكن أن تفهمي وحبك هو الذي يفكر؟ أدرك شعورك بأني ظلمتك بمثل هذا التفكير، أراه كل يوم في عينيكِ وأنت تضغطين عليَّ بكل ما تملكين من أساليب تؤلم قلبي، ولماذا عليِّ أن أكون أنانيًا في حبك حتى لا تشعري بالظلم؟

ألستِ أول الناس المنادين والصارخين بالحرية، أَوَليس من حقي أن أظفر بذات الدِّين؟

أأكون في نظرك متخلّفًا إن فكرت بهذه الطريقة فقط، لأني حكمت

عليك بشيء من وجهة نظرك لا يجب أن أحكم عليكِ به؟ ولكن لا بأس أن أكون أنانيًا وأجبرك على طبيعة حياة لم تعتادي عليها، أو لم تفعليها بنفسك، أو حتى تفعليها لأجلي فقط؟ أليست تلك قمة الأنانية مني إن طالبتك بتغيير طباعك، وحياتك، وطريقة ارتدائك لثيابك، وعباداتك ومعاملاتك، لتصيري كما أتمنى مِن الزوجة الصالحة؟

أليس من الأفضل لي أن أختار امرأة تحبذ هذا، وتعيش بهذه الطريقة من البداية، فلا أجبرها على شيء وأقتطع من ثوابها، وفي نفس الوقت تستطيع أن تعينني على تحمّل الحياة والناس، تحميني من المعاصي والشهوات، فإن ضعفتْ نفسي تبقى هي خلفي تدفعني لما هو أفضل، وإن ضعفت نفسها أفعل لها المثل؟

أليست هذه قمة الحب والشعور بالأمان؟

لماذا يتهم المنادون بالحرية الدينَ بأنه يقلصها، فصارت الحرية هي التي تحارب الدين!

أما كان اسمها منذ قليل حرية؟ أم أنها حرية على مقاس الشهوات والمعاصي؟ إنكِ تذكرينني بالذي يصاحب جرّاحًا في بداية مشواره، ويختار غيره حين تحتاج أمه عملية خطيرة، فيختار لها الطبيب الأفضل والأكثر خبرة ليضمن سلامتها، فيغضب ذلك الجراح الصغير ويقول إنه ظلمه!

لكنها جراحة مسألة حياة أو موت لا مجال فيها للتجرِبة والمحاباة، كما هو الزواج والحب. الحياة مأزِق كبير أرى أنه من حريتي أن أختار من يعينني عليها وعلى عباداتي فيها، لا تريدين تقييما دينيًا لكِ؛ لأن الدين بالقلب وبالأخلاق وليس بالعبادات من وجهة نظرك، ومن قال إن مَن يملك ناصية العبادات لا تؤثر ولو بنسبة ضئيلة في أخلاقه، ومن يقف طويلًا بين يدي الله، ألا يهديه هذا إلى أن يكون أفضلَ في المجال الأخلاقي والدنيوي؟

ولماذا عليّ أن أتوقع دائمًا حسن الأخلاق من شخص ليس كبيرُه ربَّه، وأتوقع النفاق وسوء الأخلاق من شخص يحرِص على العبادات، وهي أضعف الإيمان؟

إنكِ لا تفهمين أن الدين بالنسبة لي ليس مجرد طاعات وعبادات اعتدتها، بل صار بالنسبة لي أسلوبَ حياة ومنهج، لا يمكنني التخلي عنه لأجل أن أنالك ولا أقحمك فيه إن لم تدخليه بكل ما تتمني وبنفسك، وهل تستطيعين أنتِ أن تحبي رجلًا لأخلاقه ورجولته، ولكنه لا يعرف ماهية الحب، فتقبلينه لشخصه فقط، وأنتِ المرأة الأكثر إيمانًا وحاجة للحب ما دمتِ تتنفّسين؟!

أوليس الحب هو منهجك الأوحد؟

لا أظلمك، بل أنتِ من تتعمدين ظلمي، وظُلم نفسك معي!

تركتكِ تظنين أنه الفارق الوحيد بيننا حتى أريح ذاتي من التبرير، فلو ذكرت لك اختلافاتنا في كل ما تبقى فينا، لَمَا اقتنعتِ ولا استمعتِ وأنت ملكة الجدل، وقد ربَّاكِ والدكِ على أن كل شيء ممكن، وأن كل قصة حب تنتهي نهاية سعيدة، إن ضحَّى الطرفان، مثل ما حصل مع والدكِ ووالدتك! لقد ربَّياكِ على أنه يمكن لأي رجل وامرأة ـ إن تحابا ـ أن يظفرا ببعضهما البعض.

أظن أنكِ عِشتِ حياتكِ كاملة في فيلم سينمائي، ولكن حياتي واقعية بائسة وأحاول ـ بقدر الإمكان ـ أن أعيش فيها بسلام، ولكن هيهات، مَن ذا الذي سيتركني أعيش بسلام سوى ربي، الذي يمنحني الصبر والسلام بين دِفتي كتابه الكريم؟

حتى في المطار لم تتركيني أرحل قبل أن تحمّلي أكتافي بوزر صدّك، لا أطيق نظراتك المتوسلة التي تُشعِرني أني أجرمت في حقك وفي حقي إن لم أرضخ لك، بل إني أنفر ـ إلى حد الهرب ـ من كل شيء يخصك، حتى

أنفض عن نفسي حُمَّى تخييبي الدائم لظنك، وبقيت أنا حيث أنا فيكِ الرجل الذي لا قلب له الذي تركك خلفه تبكين فراقه، ولن أكون أبدًا عندك ذاك الرجل الذي يعرف حدود قدراته على ما يستطيع أن يعطي لغيره، وقدراته المحدودة جدًا في إسعادكِ، فاختار ألا يرهقكِ باسم الحب ـ وهو يعلم قدسية الحب عندكِ ـ بتحمل ما لن تطيقيه.

هبطت طائرتي في مطار «بنينا» عصرًا منذ عام، وحملت حقيبتي الوحيدة، وسرت في طرقاته المحدودة وأنا أشعر أني للتو وجدت متنفّسًا، بعيدًا بمئات الأميال عن وطن كاد يصير قبري، راحلًا لقبر آخر قد يصير وطنًا أرفقَ وأكثر رحمة!

الناس حولي يشبهونني ولا يشبهونني! لم أكن أعلم أن ليبيا تشبه مصر لهذا الحد! استقبلني المطار المكون من طابق واحد بممراته المحدودة، ولونه الأصفر، ويافطة عريضة محاطة ببرواز تحمل اسم المطار، فتشعر للوهلة الأولى وكأنك ما هبطت في مطار، وإنما في منزل لأحد الأثرياء، ففي خلفية قصره الزرع الأخضر، والغابات، وتقف أسقفه وبواباته على أقواس تصل الأرض بأعمدة بيضاء ضخمة رأسها أحمر داخل حوائط المطار، وخصلاتها مثبتة في السقف!

بساطة المطار وحميميته خففت الكثير من التوتر الذي لحق بي من خوفي من الغربة، وكأن ما كنتُ فيه لم يكن غربة! وكما توقعت كان بدر باستقبالي بصيحة ودّ ورغيف وعربة، وفي الطريق وحتى منزله رأيت ما يقرب المائة لوحة تحمل صورة القذافي، وكأنه نوع من الحصار!

إعلانات لا تحمل صوره فحسب، وإنما تلميع لشخصه وكلمات حب له تكاد تجعلك تتقيأ!

بقي بدر طوال خمس سنوات دراسة في مصر يذكرني أنه سيرد لي ما يزعم أني فعلته من خدمات له، بأن يجد لي الوظيفة المناسبة، والمرتب

اللازم الذي يتمناه شاب في مثل عمري قد يقف سنوات في طابور العاطلين، ظنًا منه أن المال هو ما أبحث عنه، أو أن السفر كان في نيتي، ولكنه كان ـ دائما ـ يردد أن السفر لليبيا لا يعدّ سفرًا ولا غربة، فهي الجزء الثاني من مصر، ويقول بلهجته الليبية البدوية:

ـ إن بنغازي هي رباية الذايح!

أي بيت مَن لا بيتَ له، وطبعًا كان وصفه لي في محله.

الخامس والعشرون من يناير الماضي كان اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بالندم لأني رحلت!

الوقت والمسافة هما القاتلان الرئيسيان لأي شعور يتمنى الإنسان التخلص منه تجاه شيء ما، ولكني منذ أن جئت واستوطنت ليبيا ما نسيت مصر، أو شهد، أو ماتت مشاعري نحو إحداهما، ولكني تجاهلت الألم، تجاهلته وتناسيته ودفنته ومع ذلك بقي يتنفس، ثم خرج إليّ ليصفعني كل ثانية حين علمتُ بحدوث ثورة يناير، وشاهدت شبابا في مثل عمري وحالي يريدون الموت، لأنه أسهل ـ قطعًا ـ من الحياة في أرض موبوءة بالفساد!

كدت أتمزق وأنا أسمع عن كل ما يحصل للناس في الشوارع، وكيف تُساق المظاهرات إلى تيار من الرصاص الحي! لم أكن لأتخيل في حياتي حدوث شيء كهذا ولم يكن ليصل خيالي لمدى تبعاته، بل إني لو شاهدته في السينما لانتقدت مثل هذا الخيال الجامح!

ولأني أعرف جنون شهد، وأعرف أن رأسها الصغير لن يرى الخطر بحجمه، بل سيرى الحرية أكبر حجمًا وأهمية من الجسد، تطلعت لرقمها، ربما لساعات قبل أن أتخذ قراري أخيرًا بالاتصال بها، فأحاطني عالمها الوردي من جميع الاتجاهات، وهي تذكر لي الشعور المربك الذي تخلفه الحرية وأنت تهتف باسمها! استخدمت العديد من الألفاظ والتعابير التى

أقف أمام كل منها مندهشًا، كيف لها أن تملك هذه القدرة على التعبير عن كل ما يخطر ببالها، وكأن الأفكار تولد في رأسها حروفًا!

قلتها أمامها ألف مرة:

ـ لا تخرجي، الزمي المنزل حتى تهدأ الأمور.

ـ لو كنت مكاني هل كنت ستلزم بيتك؟

ـ أنتِ امرأة يا شهد!

ـ وماذا يعني؟ هل هذا يعني أني أقل منك؟ هل هذا يعني أني لا أملك الحق في الدفاع عن وطني؟ هل هي مهمة الرجال فحسب؟ من قال لك هذا؟ حتى الدين لا يقول هذا!

كنت أدرك أن التفاهم معها سيصل بنا إلى مواضيع فرعية، ولن تفهم أبدًا السبب الحقيقي لطلبي لها أن تلزم بيتها. تتهمني بالحب وتعجز عن تلقي إشاراته، فاستسلمت في النهاية إلى الصمت وأنهيت المكالمة، وبقيت الشاشات وصفحات الإنترنت هي ما تصلني بها يحدث معها مع كل مصري، حتى نبهني بدر إلى الصفحة التي أطلقها حسن الجهمي، والتي تدعو لثورة مماثلة في ليبيا. لم يكن هناك يومها أسعد من بدر الذي بدأ ـ تلقائيًا ـ بحشد معارفه بينما شعرت أنا بأني أريد أن أجثو على ركبتي من وقع الزلزال الذي يهز الأرض من تحتي!

لم أستطع أن أصل لشهد مجددًا بسبب قطع الاتصالات، والذي كان صاعقة بالنسبة لي!

أدركت ـ حينئذ ـ أننا على حافة الطوفان، وليس من سبيل للموت سوى الموت!

لأول مرة بدت كلمة (لا) تحمل أبعادًا منطقية ولا منطقية في تحرك الجميع نحو الهاوية، إما الموت أو الخراب!

ربما هذا ما نبه السلطات الليبية ـ التي حاولت حل الأزمة بشكل

آخر ـ فاجتمعت برؤساء كل قبائل ليبيا، لتقلص حجم الخسائر ببضعة مليارات في يد كل قبيلة، تحت شعار نبذ العنف وعدم الانسياق خلف الغوغاء، كرجل رأى صديقه الخائن لزوجته يخسرها، فقرر أن يعقد صفقة ليقنع زوجته بخيانتها بمعرفتها وبرضاها أفضل من الكذب! بات بدر يغلي يومها ـ والدم الأمازيغي الحر يفوح منه ـ فأنا أعرف تلك الحمية في الأمازيغ، فهم لم يأخذوا اسمهم هكذا سدًى!

ما كان سيقبل مثل تلك الإهانة على رجولته لو أن قبيلة الأورفلي انحنت برأسها الشامخ أسفل أحذية المال، لو أنهم فعلوا هذا لتنازلت كل القبائل بالمثل، فكما عرفت أن قبيلة الأورفلي أكبر وأهم قبائل ليبيا. لم يهدأ له جفن حتى انتهي اجتماع القذافي مع رؤساء القبائل، واجتمع كل شيخ قبيلة برجال قبيلته يتشاور معهم. لم أجد في الموضوع شيئًا يدعو للتشاور، لكني ـ بعد أن عشت ورأيت ما رأيت ـ أدركت أن الأمر كان يستحق الكثير من التروّي، فالتعامل مع عدو أقوى أو أكثر عدد أمر، والتعامل مع عدو مجنون أمر آخر أكثر خطورة!

ما إن رفضت القبائل أموال القذافي حتى دعيت كل القوى السياسية لمؤتمر وطني، للتشاور فيما بينها، بعد أن انطلقت شائعات بأن السلطات تجهز الخطط للتضييق على أي أمر يصدر من الشعب، يمكن أن يكون فتيل ثورة، حتى تلك اللحظة وحتى رأيت بأم عيني موقع «ليبيا الحرة» يدعو للتظاهر كما حدث في مصر!

شيء ما جعلني لا أصدق أن شيئًا يمكن أن يهز هدوء ليبيا، ربما لأن المأساة هنا أخف وطأة بكثير من مصر، وربما لأن البطالة لم تصل إلى الحد الذي وصلنا إليه، ولا الأجور ولا غلاء الأسعار، ربما لأن فائض الذهب الأسود الذي تملكه ليبيا لم يكن قد جف بعدُ ليجوعوا، وهل من الممكن أن يثور الناس فقط ضد الظلم، أمَا ثار الناس دائمًا لأنهم جاعوا، لأن

مصالحهم الشخصية الأساسية توقفت؟ ألا يردد المواطن كل يوم، في كل ساعة: نفسي نفسي، حتى وإن رأى الظلم يطحن غيره؟

أفقت من اطمئناني حين سمعت خطبة الجمعة تدعو إلى السلام، واستخدام ورقة عدم الخروج على الحاكم، بل إن جميع المساجد وجميع برامج التلفاز وحتى الراديو في كل وقت دعوا إلى السلم، وشددوا على العواقب الوخيمة التي يمكن أن تصدر عن ثورة، مشيدًا بالمجازر التي تحدث في مصر وكل أم فقدت ابنها، وكأن تفشي ظلم يمكن أن يحذر الغير من الوقوف بوجهه لا للسرعة في الثورة عليه!

سماع الأخبار السيئة عما يحصل في بيتك أصعب بكثير من العيش فيها! ندمت على كل تلك الأيام التي لم أردُّ فيها على شهد بغية نسيانها، واشتقت لشعاع من الدفء يجعلني أطمئن أن لي شمسًا ما زالت تشرق، مرت الأيام ـ وما استطعمتها ـ حتى جاءني بدر في ساعات قليلة انقطعت فيها عن الأخبار السياسية يوم الجمعة الثاني عشر من فبراير حين تنحى الطاغية، الخبر الذي هزني وهدم صرح اليأس من أساسه في أعماقي. لم يمهلونا، فأرسلت القوات السياسية الليبية الكارت الأحمر للقذافي في بيان موحد تطالبه بالتنحي هو الآخر، وبدون اللجوء للعنف وحقنًا للدماء.

حِرتُ في أمري، في مدى صحة الفتوى بوجوب عدم الخروج على الحاكم، فلا أنا أعرف الغيب لأدرك إن كنا سنخسر أكثر ما نكسب وستُزهق الأرواح، أم أننا فعلًا سنمنع الظلم مرة واحدة وللأبد. النهاية المفتوحة شبه السعيدة التي حدثت في مصر، قد لا تطابق ما سيحصل لنا هنا، لكن غباء القذافي لم يمهل الناس وقتًا ـ مع شعلة الفرح والأمل التي أطلقها خبر سقوط طاغية آخر من طغاه العرب ـ حين اعتقل رجاله أحد أهم الشخصيات للشعب الليبي، وهو محامي كارثة بوسليم.

داس معمر الجرح الذي لا يلتئم وأدماه! فماذا كان ينتظر من رد فعل

سوى الصراخ في وجهه واقتلاع رأسه؟ انعكست الدفة، وصارت شهد بأمان، بينما مرَّ بي هنا الموت بكل أشكاله، وتحولت البيوت إلى مقابر، وصار العويل والنواح لا ينقطع ولو بالنوم، والرجال يُصلبون على جدران رجولتهم قبل أن يردوا الظلم عنهم وعن أطفالهم! قُطعت الاتصالات لدينا قبل أن يتمكن أحدنا من مداواة قلق الآخر، ووجدت الشوارع من حولي تعجّ بالمتظاهرين.

كان بدر يحمل كاميرته، ويصور ويرسل الصور سريعًا إلى نبوس، حتى نبوس نفسه لم يسلم من فرط قداسة الموقف، فقد كان يصور على بعد أمتار من القصف والرصاص الحي!

حاولت أن ألزم بيتي، لكني لم أستطع، يكفيني ما فاتني والرجال يتصارعون من حولي لنيل الشهادة. نزلت إلى شارع جمال عبد الناصر الذي باغتني باسمه حين جئت لبنغازي، وكأنه ذنب يلاحقني، فمن الطريف أننا نملك شارعا باسم ليبيا!

رأيت الناس يسيرون بالمقشات المغبرة بتراب السنين التي كانت وما عادت، وبالأحذية القديمة والجديدة في أيديهم يهتفون:

يا معمر يا حقير.. اركب طيارة وطير

وسقطت نفس الصور للمعمر التي أحاطتني في كل ركن من أركان بنغازي تحت أحذية الناس يكتبون عليها الدعس إجباري! استشعرت رعشة ضارية، وأنا أراهم يكسرون كل تمثال له أو لكتابه الأخضر، ويقذفون حطامه ويطحنونها تحت أرجلهم والغضب يفوح من ملامحهم، غضب مكبوت لأربعين سنة وكأن روح القذافي ستُبعث في تمثاله وتتألم فيه!

سيطروا على العديد من الأماكن الحكومية بسرعة تفوق سرعة ما حدث في مصر!

أصبحت دار المحكمة من نصيب نبوس يبني فيها صرحه الإعلامي، الذي كان النافذة الوحيدة للوجه البشع من القذافي، وصرنا نبث فيه ما يخلفه الموت في الأحياء، وما يخاف الأحياء في الموت. لست أدري ما إذا كان لطوفان الغضب نهاية، لكني سرت خلفهم، حتى صرت وسطهم، ثم أصبحت أنطق معهم:

لا إله إلا الله.. القذافي عدو الله

الله اكبر على من تجبر وتكبر

استسلمت لقدري وتوكلت على الله، فهو حسبي، فليس في صخب الحرية مقعد لصمتي!

«الجهل وطن، والوعي منفى!»

إميل سيوران

شهد صادق

جُرِحَ حبيبي!

إن لي جرحًا ينزف في جسد من أُحبُّ.. وروح جزعة محبوسة في جسدي تريد أن تفر من المسافات لتصل إليه، تبكي على صدره أو تدفعه لصدرها!

لو أنه قرأ أفكاري الآن لرحلت عيناه بعيدًا عني بلا عودة، خجلًا ونفورًا!

أحبي لك وانجذابي خطيئة؟

أعلم بما ستجيب في نفسك، ليس الحب نفسه هو الخطيئة وإنما الإجهار به، وأعلم أني سأجادلك لمنتهى العمر، في قواعد دينية لا أعرفها قدر معرفتك، وأعرف أني أجادل بجهل، ولكن حُرقتي علي قلبي يدفعني دفعًا، فكيف أواري جلدي؟ كيف أواري لون طبعي؟ كيف يُوارَى القلب إن كان هو الحاكم والمحكوم والأرض والعدو؟

وتقع أسوأ كوابيسي ولا أحتمل أي سوء يصيبك، بل إني أتمني لو أنه أصابني أنا بدلًا عنك! لأن تحمل ألمي هو ألم مفرد، بينما تحمل ألمك وألمي هو عذاب مضاعف، حتى لو كان نتيجة لأفعالك وقلة اهتمامك بذاتك!

لماذا يا عبد الله؟

لماذا تمعن في استدعاء شتى أنواع العذاب إلى حياتي؟

وأتخيل الآن وقلبي يهتز شكلك وأنت مهزوم في سرير الوجع وأبكي، وأتمنى من أعماقي لو أني أعانقك، أخفف بكائي بإغلاق عينيِّ، وتخيُّل وصولي أمام سريرك، أتخيل وجهك المجهد ولحيتك المشعثة وأنا أمسدها.

إنك لا تستطيع أن تعارضني في خيالي!

أتخيل أني أعانقك، وأحس بوخز لحيتك على جفوني وأنفي، أتخيل أني ألملم أصابعك في كفي وأحسُّ بخشونتها، كما أحسستها في ذلك اليوم صدفة، أتذكر؟ حين سحبتَ دفترك من يدي سارحًا فتلامستْ أصابعنا لثوانٍ انتفضت بعدها من عالمك السارح فيه، وأنت تتطلع إلى يدك بذهول، تؤنبها أنها تصرفت من نفسها!

وأدركت أني لك، نعم وقتها تأكدت أني لك وكأن هذه اللمسة قد أطلعتني على شيء من الغيب، انتفاضتك واستمرار رعشتك بعدها لم تشعرني إلا بالصراع الذي يدور بداخلك بين وخز الضمير وبين المشاعر، التي تحاول كبتها وإخفاءها! لست مغرورة ولا واهمة، ولكني أعلم يقينًا أن ما فيّ يقبع فيك أيضًا!

إنه ليس حبًا من طرف واحد، بل الاعتراف به هو فقط من طرف واحد، تتجاهله بتخاذل وكأنه خطيئة دون أن تفكر حتى في التعامل معه!

تركت الهاتف على الطاولة، وارتميت على سريري أبكي وقد أغلقتُ الأبواب حتى لا يقاطع قلق أهلي عليّ خلوتي مع حسرتي! آآآه كم كان عتاب بدر قاسيًا، وهو الذي يعلم كل شيء، لكنه يظن أني أحب رجلًا لا يحبني.

لا يدرك أن الحب في قلب الرجل يرسل للمرأة ذبذبات تستطيع وحدها التقاطها حتى رغمًا عنه إن أرادت ذلك دون أن تكون واهمة!

يظن بدر أن حبي لعبد الله فقط لأنه مستعصٍ عليّ، أو لأنه وُلِدَ بين أبوين منفصلين، ولأن امه توفت، فهذا يحرك فيّ الرغبة في الاعتناء به.

لا يدرك أني أهتم به ليس لأجله وإنما لأجلي، لأن اهتمامي به احتياج لي لأشبعه يشعرني أني خلقت لفائدة! اهتمام أهلي بي وعطاؤهم اللامحدود يجعلني لا أتمنى أي شيء قبل أن يصل إليّ. لكن كل هذا العالم المثالي يجعلني أشعر أني أعيش بلا ضرورة واضحة لوجودي!

لو مِتُّ من سيحزن؟

نعم، سيَحزنُ الكثيرون، لأنهم يحبونني، ولكنهم سيستمرون بحياتهم، لأنها ليست قائمة على حياتي أنا، لا أحد فيهم يحتاجني ليعيش ليتنفس، لا أحد سيموت بعدي!

إذن، فلا ضرورة قصوى لوجودي!

قد يظن البعض أن هذه المشاعر نوع آخر من الأمومة، ولكن المرأة تحب الرجل ليس لتحتاجه فقط وإنما ليحتاجها! إني أحب عبد الله لأن حبي له يسعدني، وجُلَّ ما يقهر قلبي في صدِّه لي هو أني بحاجة لاحتياجه، حتى أشعر بوجودي، ليس لأني أريد المشاعر المتبادلة، فهناك العديد من المشاعر المعلبة التي يمكن أن آخذها من أي شخص دون أن أدرك حقًا مدى عمقها! وحده الاحتياج، حد الإدمان، حد الموت، هو قاع الحب.

لكن بدر يعشق إقحام نفسه في الفراغ الذي يخلفه اختلافي عن عبد الله، وكأنه إن حقق نقاط أمامه، سيجعلني أنقل مشاعري إليه!

أدرك أن الاهتمام هو المغذي الأول للحب، وأدرك أني لو كنت أحب رجلًا غير عبد الله لاستطاع بدر إمالة قلبي دون شك إلى عالمه، ولكن حبي لعبد الله مختلف، لأن عبد الله رجل مختلف، حتى بكل ما يحمل من عيوب!

بعض الرجال يظنون أن الحب حاصل ضرب عوامل التكافؤ والتشابه

والاهتمام، ولا تتدخل الأرواح وتآلفها في الموضوع، ربما الأمر مختلف بالنسبة لامرأة مثلي تحتاج رجلا يقتحم دواخلها عُنوة، رجل مثل بدر، محدد، يعرف كيف يفرّق بين أنواع النساء، وطريقة الوصول إلى قلوبهن، خبرة توصله إلى هدفه أسرع، لكن نفس تلك الخبرة هي ما جعلت قلبي يرفض الانصياع له!

بدر جاذبيته مدمرة، لكنها لم تأتِ من فراغ، بل أتت على أنقاض قلوب آخريات، مثل القلعة المحصّنة التي بُنِيت من أجساد ضحاياها! امرأة مثلي مجنونة حب، هي أيضا مجنونة غيرة! يظن الرجال أن خبراتهم بالنساء لا تضايق النساء، بل تجعلهن يشعرن بتفردهن لو اختار إحداهن، لكن الحقيقة أننا مثلهم نغار، ومثلهم نفضل الرجل محدود العلاقات، ومثلهم نتمنى أن نكون أول من يدخل قلبه، وأول من يحظى باهتمامه!

إني مقتنعة أن الرجل مثل المرأة تمامًا في كل احتياجاته الإنسانية والنفسية، وأكره جدًا التفريق في شعور أحدهما عن الآخر في الخيانة والتعامل مع الجنس الآخر، على الرغم من عقلية بدر التي ترفض أي قيْد، لكن طبيعته البدوية أبت أن تنفذ من عروقه، مما يجعله يبدو كالغبي وهو يغار عليّ من تصرفات هو نفسه يفعلها مع أخريات! ثم يتحجج بأنه رجل وأني امرأة، ويتذكّر فقط وقتها أننا شرقيون! أمر عجيب! أنحن شرقيون نساءً وغربيون رجالًا؟!

كنتُ أشعر بمدى تناقض بدر، فهو ينادي بالتخلص من قيود الدين والتقاليد والعادات، ودينه الوحيد هو الحرية، في الوقت الذي لا فيه يعرف كيف يتخلص من نخوته؟ أدرك أن هناك العديد من الرجال قد تخلوا عن نخوتهم منذ زمن، ليندمجوا ويكونوا مثل الجميع، ليقبلوا على أنفسهم ونساءهم ما يتعارض مع ديننا وأسس أخلاقنا، فقط ليكونوا في نظر من حولهم متحضّرين، ولم يسألوا أنفسهم أصلًا: من وضع قواعد التحضر، وفرضها على هويتنا بما يناسبه؟!

أحب حمية بدر وعصبيته وإيجابيته ووطنيته، واعتزازه بنفسه، ولكن كل هذا يسقط أمام برود أعصابه في أي شيء يخص دينه، فلا أراه يحترق إن استهان أحدٌ أمامه بأحد قواعده وبنوده، حتى لو لم يكن بدر نفسه ينفذها! تلك النقطة الوحيدة التي تثير أعصاب عبد الله، وتجعلني أرى منه وجهًا آخر ما اعتدته منه قط، وأراه يهتز وعروقه تبرز في رقبته، وهو يتكلم ويرفع صوته على الرغم من هدوئه وسلبيته في معظم أمور الحياة تقريبًا، حياته هو على الأغلب، لأني أراه دائمًا يفكر في الجميع، وفي الأمة والمجتمع، فهذه فطرة من يتمسك بدينه، فأولويات كلٌ منهما مختلفة. أولويات بدر كل شيء ما عدا دينه، وأولوية عبد الله دينه ثم أي شيء، لأنه يرى تقصير أي طرف في أي قاعدة دينية، سيؤثر على بقية المجتمع، سواءً بتأثير قريب أو بعيد!

كان عبد الله يخنقني أحيانًا بتمسكه بأصغر قواعد الدين وأبسطها، وأحسُّ بالضيق حين يتشاجر مع بدر في مثل تلك الأمور، ويتعمد بدر إحراجه وإثارة أعصابه والسخرية منه، ليُخرِجَ منه أي ذلة يمسكها دليلا ضده، ويحاول عبد الله جاهدًا التحكم بأعصابه، ولكنه بشر، فيفلت منه صوت يجلد بدر، فيقول له:

ـ ليس هناك شيء تافه في الدين، خذ الدين كله أو اتركه كله، وإن لم تقدر على فعل الأمور الكبيرة، على الأقل افعل الأمور الصغيرة، حافظ على أبسط خَيط بينك وبين الله، فلا جهد يضيع عند الله، حتى لو كان في أبسط الأمور التي تراها أنت تافهة.

لا تزال كلماته ترنُّ في أذنيّ، أدرك أنه على حق، وأدرك أن بدر أيضًا على حق، فما الداعي لكل العبادات لو لم تتبعها الأخلاق، لقد كان تفكير بدر يوقفني أحيانًا على الكثير من الأمور والعبادات حين كنت أرتكب معصية كبيرة، لأني كنت أقول لنفسي: ما الفائدة، فالله لن يقبلها مني في كل حال؟

حميّة الدين جزء لا يتجزأ من الرجولة في وجهة نظري، ولا علاقة لها إطلاقًا بالحرية، هذا كان يجعل بدر يصغر في عيني شيئًا فشيئًا، فأنا أمقت تكبّره على أي نصيحة في الدين، وتقبله للنصائح في أي امور أخرى في مثل هذه الأمور، وإقحامه للحرية في كل أمر ما عدا نصيحة الدين!

لا أكره بدر، لأني أدرك شعوره، فقد كنت مثله في يوم من الأيام، حتى توقفت شهد القديمة وعجرفتها عند موقف حدث لي وأنا خارج المنزل، فقد كدت أضيع صلاة العصر، فدخلت أقرب مسجد لأصلي فيه، وحين انتهيت من صلاتي كانت صلاة المغرب قد بدأت.

كنت ـ أثناء الصلاة ـ أشم رائحة عطر نفاذة جدًا، وقد جعلني هذا أخرج عن خشوعي في الصلاة، وأتخيل أنها تلك المرأة الشقراء بجانبي ـ التي لا تبدو مصرية ـ هي التي تضع هذا العطر!

ما إن انتهيت من الصلاة حتى تطلعت إليها، فوجدتها تتطلع إليّ وعلى ملامحها نفس التساؤل، ثم فاجأتني بسؤالها باللغة الإنجليزية ما إن كان هذا العطر ينبعث مني، فأجبتها بالنفي، ثم سألتها عن جنسيتها، فأخبرتني أنها أمريكية مسلمة وصلت منذ شهر إلى مصر، تطلعت تلقائيًا إلى ملابسها، وذُهِلتُ لإتقانها تنفيذ كل ما في شروط الحجاب حرفيًا، لا يشفّ ولا يصف، وطرحة رأسها تُخفي ما لم يستطع ثوبها أن يخفيه من صدرها.

قطع تأملي فيها صوت فتاة تصرخ:

ـ أتقولين أني زانية؟ كيف تجرؤين؟ وما دخلك أنتِ؟ أنا حرة.

فوجدنا جسد المنتقبة التي تكلمها قد تصلب، وأمسكت عن الكلام، وقالت بصوت يسمع بالكاد:

ـ فقط أردتُ تذكيرك بالأمر، ولم أقصد الإساءة.

وحين سارت بجانبنا سألتها الأمريكية بفصحى صحيحة:

ـ ماذا قلتِ لها؟

التفتت لنا المنتقبة بخجل، وقالت مهمومة:

ـ فقط قلت لها: حبيبتي، عطرك جميل، لكن الشريعة نهت النساء عن التطيّب خارج المنزل، فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أيما امرأة استعطرت، فمرّت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية».

فوجدت الأمريكية تربت على كتف المنتقبة بهدوء، دون أن تعلق ثم وجهت إليّ الكلام، لكن بصوت مرتفع ليسمع من يسمع، وقالت بالإنجليزية فلم تسعف غضبها عربيتها:

ـ تركت أمريكا وأتيت إلى مصر، لأنها دولة مسلمة، فمن الصعب علي أن أمارس ديني بحريتي في مجتمع غير إسلامي، ولكن خيبة أملي كانت كبيرة حين أتيت هنا منذ شهر، فلم أجد أي مظاهر للإسلام، المسلمون هنا يتكبّرون على كلام رسولهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويهينون مَن يذكرهم به، ولست أفهم أين أذهب لأعيش آمنة وسط مجتمع إسلامي حقيقي؟

ساد صمت مُطبق في المسجد كاملًا، كلنا بلا استثناء استشعرنا حرجًا لن يرفعه عنا شيء!

انكمشتْ كل واحدة منا على نفسها، ورحلت الفتاة الغاضبة من المسجد.

انتقدتها في أعماقي، وقلت: كم هي متكبرة! ماذا كان سيحدث لو أنها تقبلت النصيحة، وهي تعلم أنها على حق دون أن تثير مثل هذه المشكلة، فوقفت وقتها مع نفسي وأنا أتذكر مواقف مماثلة حدثت معي، وكانت نهايتها كبري وأنا أعلم الحق. سبق وتناقشت مع بدر في هذا الأمر، فقد كان يجن إن وجَّه له عبد الله أي نصيحة بخصوص أي شيء في الدين، مع أنه يتقبل منه النصح في أمور أخرى، فكان يقول:

ـ يظنون أنهم أعلى منا وأنهم أقرب الله ويجرؤن على نقدنا، فلينظروا لأنفسهم قبل أن ينتقدوا غيرهم، لو أن كل شخص التزم بإصلاح نفسه، لكان هذا أنفع وأفضل للجميع. بل تكرهين النصيحة من أفواههم وطريقتهم الفجة المنفرة للنصح، وهم لا يكادون يفقهون دينهم.

أضحك في سِري، وأنا أكاد أجزم أن بدر لا يذكر من دينه سوى الصلاة وسورة الإخلاص، ويتهمهم أنهم لا يعرفون دينهم! يرفض النصيحة متعللًا بالطريقة المنفّرة للنصيحة، ولكني أعلم أننا جميعًا ننفر من النصيحة، سواءً كانت بأسلوب منفر، أو مناسبا لهوانا، وأعلم أنه قادر على استخلاص النصيحة والعمل بها، ورمْي الأسلوب في أقرب حاوية نسيان إن أراد حقًا أن يكون أفضل!

لكن تلك الأمريكية بقيت عالقة في ذهني طويلًا، وأول سؤال بادرني به ضميري: ماذا فعلت أنا لأكون مثلها والإسلام يعنيني أكثر مما يعنيها؟

وحين أرى عبد الله يعاني ليلتزم بإسلامه في مجتمع يدفعه للعكس، يجعلني أزداد احترامًا له يومًا بعد يوم، فأنا أعرف ما معنى أن يسير الإنسان طوال حياته عكس التيار، وأعرف كم هو مجهد التعامل مع سخرية الناس الدائمة من أي مظهر ديني، حتى في اشتراك التيار الإسلامي في السياسة، لم يسلم من السخرية على الرغم من أننا الآن في أمس الحاجة إلى التكاتف والتعاطف والتقبّل، وكأن من يحمل بداخله علوم الدين يستعصي عليه تقبل أي علم آخر، فتجد أكثر الدعاة لتقبل الآخر يتقبلون كل أنواع الآخر إلا صاحب الفكر الديني!

والفكر الديني الإسلامي فقط، فبقية الأديان معفاة من هذه المهزلة!

حين أفكر في تصرفات من حولي، فأنا لن أفهم أبدًا لماذا نخاف الدين بهذا الشكل؟

هل لأننا خائفون حقًا من بطش من يستعملونه في الحكم على ديننا؟

أم أننا خائفون لعلمنا أننا مقصرون؟ أم لأن تطبيق الدين وواجهة دولة دينية قد تواجهنا بحقيقة ملذاتنا، وحقيقة بُعدنا عنه، وحقيقة أننا ما عدنا مسلمين ولن نكون، فنرتاح بتوجيه أصبع الاتهام لكل من تعب ليلتزم دينيًا في مجتمع ووقت كهذا، حتى نشعر بشعور أفضل اتجاه أنفسنا وتقصيرنا؟ أم أن علينا أن نحذف كلمة «مسلم» من بطاقتنا؟

وها قد مات ناجي في ثانية! كيف تكون اللحظة التي تُزهق فيها روحه سريعة إلى هذا الحد؟ والذكريات قد تصل في تعذيبها لنهاية العمر! إني سأظل ما حييت لا أفهم الموت، ولا أفهم كيف يتركنا لسنوات وعقود ويأتينا كصفعة، كل هؤلاء الشباب الذين وقفوا بصدور عارية أمام رصاص الأمن، هل كانت شجاعتهم نابعة من حبهم لوطنهم، أم أنها نابعة من مقت الحياة، والجهل بحقيقة ألم الموت، فهو يغري بالخلاص!

لقد كان ناجي يتمناه طوال الوقت، الاستشهاد، كان اللون الرمادي بين بدر وعبد الله، والذي كان يجمع بينهما، مثلي، بأعماقه حيرة بين ما يجب أن يكون عليه وما هو عليه، وما يؤمن به وكيفية تنفيذه! كان يتمنى الشهادة ويدعو الله بها في كل صلاة، ويشعر أنه ليس أهلًا لطلبها. إنه لمن الغريب أن أشعر أنه ليس بميت، بل إنه مختبئ في مكان ما، فالموت للأحباء يستعصي استيعابه، وهو كان مجرد صديق، فماذا لو كان ابنًا، أو أبًا؟

جاءني خاطر الاتصال ببيته، اتصلت مرارًا على مدار ساعات من اللوعة والأمل بتخفيف حمل الحزن علي أي من أفراد أسرته. جاءني صوت والده ملطخ بالبكاء، فوجدتني أقول: ناجي، ثم تعالتْ شهقاتي، وطَفَا البكاء على سطح نفسي، وفشلت أن أكبحه، بكائي هزَّ والده، فردّ ليصبرني ويصبّر نفسه:

ـ ناجي في الجنة، سيشفع لنا.

ـ ناجي كان جنة.

في جزء في نفسي كان ناجي جنة، تقاطرت عليّ الذكريات مع كل دمعة، فخجل والده ونادى أمه لتكلمني، خفت لحظتها من الحديث معها، فأنا لن أجد ما أقوله، كيف يمكن أن تعزي أم في كبِدها؟

لدهشتي كانت قوية وثابتة، ربما أكثر بكثير من والده، فخورة به تُطعّم كلامها بالدعاء على القاتل، على الظالم، قوة الظلم تشعّ منها، فالظلم يعطي المظلوم مناعة ضد الانكسار، وهو متيقن من عدل الله، بقيت تحتسب وتدعو حتى هدأت نفسي وأنا اسألها بتردد خشية ضغط جرحها:

ـ كيف مات ناجي؟

ـ رصاصة في قلبه الله ينزع قلب الذي أطلقها، لم يودعني قبل أن ينزل، ولم أعلم إلا من قناة «الجزيرة» حين جاء خبر باستشهاد أول شهيدين في البيضاء، وقبل أن تصل إليهم تفاصيل الاسم، كنت أعلم أنه ابني.

ثم أمسكت عن الكلام، لتمنع شهقة.

لم تشتكي، ولم تحاول أن تثير دموعي، بل ظلت تدعو له ولكل من يسير على دربه.

قلت لها:

ـ انتبهوا لأنفسكم يا خالة، أخاف عليكم وأتمنى لو أستطيع أخذكم إلى مصر، لتأمنوا فيها حتى تنتهي تلك الأحداث.

ـ لن تنتهي بهذه البساطة، فنحن لا نسامح في دماء أولادنا، ولن نقبل إلا بالقصاص. يا بنتي هذه النار لن تُخمد، فقد بقيت مشتعلة في صدورنا أربعين سنة، نحتاج أضعافها لتخمد. الله يوفق شباب بنغازي ويحميهم من المجزرة. القذافي يبيدهم كالجراد بالطائرات، ومعتقد أنه بعض مظاهرات من مؤيديه عالتلفاز ستقنع الناس بالسكوت؟

ـ والله يا خالة نفس السيناريو حدث في مصر، وحتى الآن ما زال يحدث، حين تظاهر عدة آلاف أمام مسجد مصطفى محمود بشارع جامعة

الدول العربية في جمعة الوفاء، للمطالبة بتكريم مبارك، وما زالوا حتى هذه اللحظة يتجمعون للمطالبة برجوع أيامه!

ـ عبيد السلطة الذين كانت حياتهم أفضل وقت الظلم الذي لم يقع عليهم لا بد وأن ينزلوا... سارق يعيش في كنف سارق كيف له أن يقبل ثورة؟ حتى مصطفى عبد الجليل وزير العدل لم يتحمل وزر الجرائم واستقال، فكيف بالله عليكِ يمكن أن يظن معمر أنه يستطيع احتواء ما حصل؟ خلاص والله لن نسكت. مات ابني كيف أسكت وعلى ماذا أخاف؟ الله يوفق شباب البيضاء ودرنة وأجدابيا.. النار عمْ تمتد وراح تطال كل البيوت.

وهل يجب أن تطال النار الجميع ليتكاتفوا على إخمادها؟ رحلت النساء إلى مصر عن طريق المعابر وقد كنت أتمنى لو أن والدة ناجي تفعل مثلهن، توسلت إليها، فأوقفتني حين قالت:

ـ لن أترك الأرض التي سال عليها دم ابني حتى يُعاقَب قاتله، حتى لو حوَّل القذافي بيتي وجسدي إلى رماد بطائرته.

إننا نتوقع قوة الرجال ومكابرتهم على الألم، لكن قوة النساء مع بلاء فقدان الولد يُزلزل!

تركتها لأحاول استجماع شَتات نفسي، وأحاول معرفة ما فاتني من أخبار ليبيا. فات أوان محاولة تجاهل الأخبار خشية الألم، إذن، استقال وزير العدل!

أعمدة صرح القذافي تتهاوَى، وهذا إنذار وشيك على قرب النهاية!

فرحت كثيرًا بمثل هذا الخبر، وتخيلت مدى سعادة بدر في حالة كهذه، لكني عاجزة عن تخيل معنى أن أصحو في النهار، وأسير في الشوارع أطالب بحقي، فأجد طائرة تقصفني وكأني عدوة مثلما يحدث في مدن ليبيا، وهي طائرة جيشي الجيش الذي نهض من مالي وعلى حسابي ورجاله من شعبي!

أهذه الدرجة حمل السلاح يصبغه الكبر، ويعطيه الشعور بأن حامله أقوى، وبالتالي أرقى وأهم، وبالتالي حقوقه أكبر من غيره؟

إن صار الحارس هو السارق فكيف يمكن أن يبقى في الوطن وطن؟

أحمد الله أني لست ليبية وأنا أشاهد وأقرأ احتجاج الجميع على مجازر بنغازي عند بوابة كل سفارات ليبيا في العالم. استقالة مصطفى عبد الجليل سحبت معها استقالات في العالم من مستشارين وسفراء، حين تقترب المشانق من أن تطال الرقاب لا بد من الاستقالة، فهي ورقة لعب ـ دائما ـ رابحة!

في أحلك الظروف وأقوى المذابح، أرى ابتسامة شاحبة في وجه نبوس على شاشة ليبيا الحرة، وهو يعلن تحرير بنغازي بعد انضمام الشرطة للمحتجين. تعلو الحناجر بكلمة «الله أكبر» من مشاهد في مختلف شوارع بنغازي، التقط ما أستطيع من الخلفيات المتحركة خلف المحتجين، لأدرس حالة البيوت المُسوَّدة من القصف والفاقدة لأجزاء منها، وأحاول أن أمنع نفسي من التفكير في حال من كانوا فيها إن لم يكونوا فيها وهي عارية بهذا الشكل!

تهتز الكاميرا ثم تقترب من الجروح والأعضاء المشقوقة والمصابة، وأجساد تحملها أجساد، وأرواح تودّع أرواحا، والمهزلة مستمرة، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى وما أسمع، حتى يجيئني ما هو أفظع منه، فحتى تكدس المستشفيات بالجرحى كان يُعالج بقتل المصابين وخطفهم من أسِرّة خساراتهم!

أقف مذهولة، أستمع لهلوسات القذافي، ولا أكاد أفهم منه شيئًا في خطابه الذي يعاتب فيه بنغازي، فهي الأرض التي بذر فيها فساده، وهي التي تحركت من تحته وبدأت في ابتلاع أنفاسه، يهتز بتكبر ويضرب بقبضته كل ماهو أدناه، وهو يتوعد بمحاصرة البيوت والحارات والنفوس، ربما كان هذا الوعد الوحيد الذي نفذه وهو يُحرس الجرحى والضحايا في

المستشفيات ويطالهم حتى هناك! لا يعلم أنه يحررهم!

شيئًا فشيئًا أدركت معنى الكلام الذي كان يردده عبد الله دائمًا أمامي، ولماذا كان دائما يتمنى الموت، فلقد صار طعم الحياة مُرًّا في حَلقي وأنا أتجرّع كل يوم فاجعة جديدة، حتى حين أخبرني والدي عرضًا أن القوات المسلحة أطلقت بيانا باستقبال ما يزيد عن الأربعين ألف مصري هارب من ليبيا عبر معبر السلوم ـ بعد أن سيطر ثوار ليبيا على الدفة الشرقية ـ اتصلت على محمول عبد الله كالمجنونة، وأنا أتمنى أن يكون بينهم، وأعلم يقينًا أنه لن يرجع، وأكذب نفسي ومعرفتي به وأقول: ربما أجبره بدر، بل ربما جاء معه، لكنه يبقى مغلقًا في وجهي وعلى وجعي!

ذهبت إلى موقف محرم بك، لأبحث في وجوه العائدين من ليبيا بأم عينيِّ، فرأيت المكان مكتظًا بالأرواح اللاهثة والأجساد المتعرقة، منهم رمى نفسه على الأرض من إعياء الرحلة ومنهم من مات من الجوع والعطش، فقد انتهى غذاؤه في الطريق، ومنهم من سُلب كل شيء من قُطّاع الطرق في ليبيا، ومنهم من شحذ المال من المارة ليردّ ثمنًا طلبه صاحب السيارة الذي أقلته إلى مصر، فكثيرٌ من السائقين اعتبروا مثل هذه المحنة فرصة ذهبية للرزق!

وأي رزق هذا الملطخ بالحاجة والظلم؟!

رأيت النسوة صامتات، والرجال باكين على ما أُهدر من مالهم، وأملاكهم، وكرامتهم في سبيل الحياة! حين تطلعت إلى وجوههم والقهر يملؤها، شعرت أن الحياة نفسها ليست ثمنًا كافيًا لكل هذا، بل إني قد أفضل الموت هناك مع من سيموت!

ربما كان هذا شعور عبد الله، لكن قلبي الغبي يلاحق ما يقنعني به عقلي!

كلما سرت في الشوارع، ورأيت الوجوه الليبية السمراء الحادة الملامح

تتناثر من حولي وتزداد، كلما تمنيت لو أنهم اختاروا البقاء، اختاروا النجاة من فك الطوفان، إن كان يمكن أن نحتسب الهرب نجاة!

جُرح عبد الله وسيُجرح وقد يقتل ولن يعود، أحاول أن أصدق، أحاول أن أستسلم، شوارع ليبيا ومدنها تحترق، وأناسها يُبادون، النفوس لا تحمل كل الخير الذي كنا نظنه، كل هذا يدور في حياتي ومن حولي، فكيف يمكن أن أكتب رواية وأنا في حفلة موت جماعية؟!

ماذا سيتبقى لقلمي ليسجله إن كان عقلي يستعصي عليه التسجيل؟

مشاعري المتناقضة بين الغضب والرفض، ومحاولة القبول بقضاء الله، القلق الذي يغتال نومي وأنا أرى الفصائل السياسية في مصر تنجرف لهاوية تقسيم الغنائم، أحاول أن أفهم لماذا لا يبقى شيء جميل دون أن تدنسه الرغبات والأهواء والمصالح؟

أحاول أن أخمد الشك في قلبي وأنا أذكّر نفسي بما حصل في ٢٥ يناير وفي التحرير، كيف طُمست الفروق، وكيف وحّدت المصالح! أغمضت عينيِّ لأحتفل مع من احتفلوا وأفرح، لأني كنت جائعة للفرح حتى وإن كان وهمًا، فوجدتني أصحو على دم يراق في دير وادي النطرون في أول يوم لرئيس الوزراء العسكري شفيق، والأرض التي تخيلت أني أمنتها وأمنتُ نفسي فيها، وجدتها هي الأخرى تبتلعني، فتشعر وكأنك أعمى يسير في طريق لا يعرفه، ولا يدري من أين قد تأتيه الطعنة ومِمَّن!

كان الرد عليها احتشادا في التحرير، وأنا التي كنت أول المنادين برجوع الناس إلى بيوتهم للبناء، فلقد هدمنا ما فيه الكفاية، لكن العمار الفاسد فاسد من أساساته في أعماق الأرض، بل في حالتنا كانت التربة نفسها فاسدة، وقبل أن نفيق جاءنا بيان اعتذار عن الدم المراق بالخطأ!

ولكن متى كانت الدماء تُمسح بالبيانات والاعتذارات؟ أليس التحرير أرض الحرية التي من حقنا أن نجتمع فيها وقت ما أردنا، وكيفما شئنا،

لنتذكر أننا هنا، وسنبقى هنا نسند ظهر الثورة حتى لا ترجع إلى الوراء؟

ولكن بعد فض الشرطة العسكرية للتحرير بوحشية، أدركتُ أن هناك خيوطًا لا نراها، وأن للفساد أذرعًا تلتفّ حول أعناقنا بصمت كجسد الحية تنتظر اللحظة المناسبة لقطع أنفاسنا! كمّ الوحشية والاعتقال للمدنيين جعلني أخاف أن ننزلق إلى بالوعة الدم كما في ليبيا، فما أسوأ أن يطعنك من تهبه ثقتك العمياء!

ربما ليس هذا الوقت المناسب لأكتب، ربما لن تكفيني الصفحات لوصف وجه الحرية وهو بلا ملامح الآن، لن تكفيني وأنا عالقة في وطن أعرج، وفي صدري قلب مُكبَّلٌ بالشوق، فلمن أكتب وعلى مَن، الوطن أم الدين أم الرجل، أم الدم أم الفواجع؟

هذا ليس وقت الكتابة، فلا وقت للحِنَّاء حين يأتينا المخاض، ولا وقت للغناء حين تتكاثر الجنائز! إنه وقت الحداد، ووقت الولادة!

«فاشهد لنا يا قلم
أننا لن ننم
أننا لن نقف بين «لا» و«نعم»
ما أقل الحروف التي يتألف منها اسم ما ضاع من وطن»

أمل دنقل

بدر الأورفلي

في جحيم القذافي الكل ملعون، فلا كفاني لعنة أجدادي الأمازيغ من قبل الميلاد وبعد الميلاد وحتى المهات، لم تكفني ٥٢ بطنًا من الأورفلي حتى ييأس الأمل من ملامح حزني، ملعون والدم الذي في عروقي يحرقني، يربطني كالجذور بأرض تسعى لدفني، مع أن دم الأمازيغ حر لا يتعلق بأرض، لا يفور إلا لعِرض وكرامة، لكني نزيل لدى القذافي فشكلني وشكل الوطن فيّ، وأبقاني مدمنا للبَصق، فهذا هو الفعل الوحيد الذي يختصر عليك اعتراضا وتمردا وتقززا، ويناسب كرم هذا الوطن في طيَّات حاكمه!

لكنه يبقى يفاجئني، فأجدني أمام مواقف في حياتي يعجز البصق فيها على أن يعبر عما في أعماقي، أدرك أن الإنسان بمقدوره أن يصير أكثر حيوانية إن كان الأمر يتعلق بالمال أو السلطة، ولكن خيالي الجامح لم يصل إلى قذارة امتهنتها أسرة القذافي التي ساندتها قبيلتي يوما ليصلوا الحكم ليبيا، ظنًا أننا نفعل الأفضل لبلدنا، وها نحن ندفع الثمن!

أدركت أني أدفع ثمن ذنب لم أقترفه، ولكن الذنب يُورث من جيل لجيل، كما تورث الجينات، ويبقى الدم يلطخ براءة الجبين!

أربعة عقود من الدماء طالت الجميع بداخل ليبيا وخارجها. كم حرب دخلنا لخدمة مرضه النفسي، فحين عجز الكرسي ـ الذي يقبع فوق رقابنا ـ أن يشبع صورة المجد في داخله أوهم نفسه أنه يمكن أن يحكم قارة!

خطاب زوارة المشهور في ١٥ إبريل ١٩٧٣ بمناسبة المولد النبوي الشريف، الذي أعلن فيه القذافي ثورته الثقافية ـ أَما كفانا ثورته العسكرية! ـ معلنا فيه الحرب على ما يعتبره الدولة الكلاسيكية ذات النمط الرجعي، مشيرا إلى عصر الانعتاق والتحرر من كل القيود القانونية، إلا من أغلاله وحده، بل تعطيل القوانين، وتطهير البلاد ممن سماهم المرضى سياسيا، أعداء الثورة، فالكل في نظره عدو إلى أن يثبت العكس، وإعلان عصر الثورة الشعبية والثقافية والإدارية، وبعد عام ألغى رسميا وظائف سياسية وإدارية فيما أبقى على ألقاب رئيس الدولة ورئيس الأركان.

ثم خرج علينا بدينه الجديد باللون الأخضر الذي اعتبر نفسه فيه صاحب اكتشاف، فلقد ابتكر نظرية العالم الثالثة! أكثر من ٣٠ ألف ليبيّ قُتِلوا في حرب التشاد ثمنا لمجده، وأضعافهم قتلوا من التشاديين المسلمين الآمنين، والنفط ـ الذي يعتبر العائد الوحيد لنا كدولة ـ يُغدق علينا بمليارات الدولارات، كان يعتبره نهرا قد تفجر من تحت قدميه!

يغدق منه على مسرحية قد تسليه في مجده، فلوّح به للنيكاراجوا حين دعم حركات التحرر فيها على حسابنا، ودفع به ثمن تدريبات الكابيلا وجنوده من دولة الكونغو، وسيراليون وإيرلندا وحتى من متمردي السودان، حفلة من الألعاب السياسية التي لا تعنينا، والتي دفعنا ثمنها من مالنا ونفطنا ودمائنا فقط؛ لأن الأمر يسليه!

والليبي ها هنا يعيش مهانا، إما أن يكون مومنًا بالكتاب الأخضر ـ وكل ما جاء فيه من هلوسة ـ ويجعله نور إيمانه والكتاب المنوط بحكمه، وإما أن يكون كافرا يستحق ما هو أبشع من الموت، فالدين ليس في ليبيا الإسلام!

محاكم التفتيش لم تندثر كما يصوّر المؤرخون، فلدينا في ليبيا تقام حتى لطلبة المدارس في قلب مدارسهم، وفي داخل الحرم الجامعي لكل من سوّلت له نفسه أن يعصي ربه القذافي، ثم تُبث هذه المشانق في التلفاز، لتصفية متمردي البيوت ولو حتى بقلوبهم، ثم تطال التصفيات حتى الهاربين خارج البلاد، فأينما تهرب ستلحق بك لعنة القذافي!

حين تصير قبضة الشيطان هي العليا، ينقلب ميزان العدل، وتصير الظلمات نورا والمهانة غذاءً يملأ البطون، فعلى الرغم من أن لا شيطنة تعلو فوق شيطنة معمر، لكنَّ مناصريه كانوا أكثر مما يمكن أن يحلم هو نفسه! لا أتحدث عن مرتزقة يقتلون ليأكلوا، بل أتحدث عن مهانة تحللت في البطون، وصارت في خلايا العقل والروح، لا بمنطق النساء بأن الحال المعتاد مقبول عن مجهول أفضل، وإنما أتحدث عن رجال تعلّموا وعلّموا منهم أساتذة كنتُ أحترمهم وجيران وأصحاب، وها هم الآن أمام الظلم البيّن لا يكادون يفقهون قولًا!

القنابل من السماء والرصاص على الأرض، وبقايا الأجساد أشلاء تزين الطرقات، وهم يحتشدون ليقولوا كفى، لا دين غير دين القذافي! بلا مال أو مكسب خاص من القذافي، بل هو عن اقتناع أكيد بأن طعم المهانة المعتاد أفضل من حرية لم تُذق، فما يدرينا لعلها تصير مُرَّة، ولعل حلاوتها تموِّع النفس! رأيتهم في مسيرتهم يرتدون قبعات صفراء على رؤوسهم، يهتفون بحناجر لا تخجل.

(الله ومعمر وليبيا وبس!)

تكاد تضيق الطرقات وهي تحتويهم، تطلعت إليهم العيون الباكية بنظرات خوف غير مصدقة ونحبتْ ليبيا والله يراقبهم، جاؤوا ليثبتوا بالأجساد أن الحزبيْن متكافئان، وتابعوا مسيرتهم يكافئون الظلم بالوقاحة في الشوارع الرئيسية! ساروا حتى وصلوا إلى شارع جمال عبد الناصر، وتناوشوا مع

السائرين. خرجت الأسلحة البيضاء لتطفئ الحناجر في التحام اختلط فيه الغضب بالحق والباطل بالشرف!

انقسم الإعلام في تصويرهم، وطبعا أعلام البنادق التلفزيون الليبي الذي يقبع تحت أقدام رجاله صورهم على أنهم أبطال صورهم قبل المعركة، ليثبت أنهم ليبيون مسالمون يلوحون للشاشة وكأنهم في نزهة في بلد آمن كل الأمان، لا مجال فيه لمظاهرات، ولا عدوان، يرقصون ويهتفون، ويرفعون الأعلام الخضراء جاؤوا ليعبروا عن إرادة الشعب، طبعا الشعب الذي من وجهة نظر القذافي، أما بقية الملايين ففي عُرفه متمردون كفرة، حلال محوهم، وعلى قناة «ليبيا الحرة» بكل ما استطعنا الوصول إليه من تسجيلات كانوا قتلة مجرمين هجموا على الناس بالأسلحة، وروعوهم وقاتلوهم. وعاد جسد ابن جارتنا العجوز مطحونًا من الأقدام التي داست عليه، وهي تبكي وتصرخ وكأنها تظن أنها هكذا تستطيع أن تغزل روحه في جسده من جديد، فيعود ليخبرها بالحقيقة!

هل كان موت ابنها عقابًا من الله، لأنها أشركتْ مع الله القذافي ربا، وقبلت الموت والظلم لغيرها على يديه، أم أنه كان إنذارا لها؟ فَفُمُ ابنها مغلق بالموت على حقيقة مقتله، وحقيقة ما حصل من أصحاب القبعات الصفر، وما فعلوه أو افتعلوه في المتظاهرين، والسلاح الأبيض دليل إدانته، وموته دليل براءته، ولكن أعماله الماضية سراب الآن وهو بين يدي ربه، أهو شهيد أم قاتل؟ سينظر الله إلى نيته وقلبه.

وجهها المذهول يطالع الإصابات والكدمات على جسده ووجهه الذي يحمل تعبيرًا عن الجزع، تستعطفه أن ينطق وهي تهزه وتحدثه، وكأنه سيجيبها وعقلها العنيد لا يرتدع، فتدعو وتسبّ وتلعن وأصابعها تطال وجهه بالصفع، وأنا ـ الذي كنت أمقت ابنها ما حيي، وأمقته أكثر بعد الممات ـ أتحمل وزر حمل جسده لها، فبعد أن انتهت المسيرة جمعتُ الشباب لنحمل

الجرحى والقتلى دون أن نميز بين دين أحد منهم، أهو الإسلام العادي، أم إسلام القذافي الأخضر؟!

ولأني أمقت التصنيف وسأظل أمقته، لكن وحده القذافي أنطقني، عبد الله الذي خرج من المسيرة مبكرا لم يستطع أن يفتينا في حقيقة ما حصل، وما استطاع أن يحمل لنبوس صورا من الحقيقة سوى ما قبل حدوث الصدام، حتى في موقف كهذا كان بلا فائدة!

حين علم بخبر موت ابن الجارة ظل يستغفر وكأنما رأى ملك الموت!

اهدأ ياصديقي، فسوء الخاتمة ـ وإن كنتَ لا تملك ما يكفي من علم لتعرف إن كانت سوء خاتمة، أم لا ـ لم تطلك أنت، وإنما طالت جارك المزعج الذي أغدق عليك الكثير من سخريته، فالعبادات عندك أداة تصنيف، ربما تكون النقطة الوحيدة التي تتشابه فيها مع شهد، تلك المتناقضة التي أقامت لك محكمة في أعماقها، وحكمت عليك بأنك مذنب، لأنك حكمت على مدى صلاحها زوجة بملابسها وعباداتها وتركت قلبها، وها هي تحكم عليّ بنفس المبدأ، ولست أفهم لماذا تدخل هي الدين بالرجولة!

تلك المرأة المدللة التي لا تعرف ما تريد، تطمح للكمال وتلعنه في قلب واحد! لا بد لي أن أرتدي ثوب التطرف، لأثبت لها أني جدير بها، وأني سأحافظ عليها، ولكنها قط ما ذاقت الأمان لتعرف قواعده!

لست بحاجة لأن آخذ شهادة من بشر بأني مسلم جيد حتى أكون زوجا جيدا أو حتى رجلًا جيدًا. لا أمقت أكثر من حكم بشر على بشر، فمعنى الإله أنه الوحيد المنوط بالحكم على من خلقهم، لأنه الوحيد الذي يعلم ما في نفوسهم، ومما تشكلت قلوبهم.

حين أريد أن أعانقك يا شهد سأفعل، ولن يوقفني وقتها لا أخلاق ولا دين! حين أردت تقبيل شفتيك، فعلتها متى شعرت برغبة في هذا، وأنتِ تراقبين طفلًا يلوح لك وهو لا يعرفك!

ضحكتِ، فكانت ضحكتك الفتيل، ووجدتني أشدك إليّ، وأخرسك بشفتيّ دون أن أفكر لحظة! لم آخذك في الخفاء أو الظلام خشية الكلام، بل أمام الناس ودون أن تشوب نفسي قطرة ندم، حتى بعد صفعتكِ ووجهك الممتقع ونظرتك المغرقة في العار، مع أن شفتيكِ لا تكذبان، وجسدك المستجيب الذي تظاهر بمقاومتي كان يحتاج رجولتي لتغتاله، وتغتال في حبي له كل منطق وكل قاعدة!

تريدين حبا مجنونا، وتحبين رجلا يحرم الجنون!

على الأقل أنا متسق مع نفسي، لا ينتابني ذنب في اشتهائك ولا حبك، ولا أفعل الخطأ في الخفاء وأخرج على الناس بقواعد وأحكام أنا نفسي عاجز عن تطبيقها!

نحن خلقنا بهذه الغرائز، فإن طمسها وكبتها لن يخرج علينا إلا بمجتمع منافق له وجهان، وجه شريف عفيف يقابل به العلن، ووجه قذر يضاجع به الخفاء!

إن كنت تريدين النفاق فهذا ليس الشيء الذي أستطيع منحك إياه، فإذا أردتِ أن تعيشي دعي الباقين يعيشون بسلام، وإذا أردتِ هيكلا دينيا لتتشكلي بداخله، فعلى الأقل اتركي الآخرَ يتشكل حسب الهيكل الذي يراه مناسبا له. في بعض الأحيان أستغرب: كيف يمكن أن يحمل عقلك جانبًا بمثل هذا التفتح والثقافة، وجانبا آخر بمثل هذا التطرف والانغلاق؟!

ويصيبني قلبي بصاعقة أني على الرغم من كل شيء أعشقك، بل أعشق كل ما يمكن أن يصدر منك أو يُخفى فيكِ، تلك القبلة التي انتزعتها منك عُنوة صارت جنتي التي تَحول بيني وبين تمني الموت، فإن طال عمري لأنسفنك بين ذراعيّ!

شوارع بنغازي صارت ملعب دم، والهدف فيه بروح، شارع عمرو

بن العاص، وشارع عشرين، والكورنيش، لا تكفي الأوراق لتسجيل الفواجع التي شاهدتها، والرصاص الحي جراد حطَّ على أجساد الجميع، لا يفرق بين مؤيد أو معارض، ذَكَرا كان أو امرأة، حتى لا تكاد تفرق بين القاتل والمقتول، فكليهما يغطيه الدم، لولا أن الجسد لا يزال يتحرك، ولولا أن ملامح الوجه قد تحمل لك إشارة ما!

في الشوارع يُقتل الرجال، وفي البيوت تُكسر أبوابها، وتُغتصب النساء المختبئات فيها أمام أعيننا دون أن نملك من الوقت أو القوة الذي يمكن أن نحول فيه بين وقوع مثل هذا الخزي والعار، ونحن لا نزال رجالا ولا نزال أحياءً، والصراخ لا تستطيع فيه تمييز ما إن كان يصدر عن رجل أم امرأة!

مات الأمان واندفن ونحن نشاهد أبشع ما يمكن أن يصدر فينا أو منا، ما كنت أصدق أن للموت سُكرا يمكن أن يهرول فيه العقل، فلا يعود، فلقد فُتحت السجون، وصار السجين مخيرا بين تعفنه في الزنزانة، أو إهلاكه لأعداء السجان، لاسترضائه ونَيل الحرية التي تأخرت حتى نُسيت!

تماهَى المجرمون في الشوارع يركضون، لا تدري أهم يركضون خلف الموت أم الموت الذي يركض خلفهم!

أتراه المال كان الهدف أم الحرية؟

سِيقت النساء إلى ترك المدينة إلى المعابر مع المصريين بعيدا عن مدنهم، وبيوتهم، وذكرياتهم، وبلا أمل للرجوع وإيجادها، لا مكان لنساء وأطفال في غابة فيها وحوش مسعورة، لا مكان لوالدتي هنا، لهذا أرسلتها بعيدًا.

ماذا فعلنا بالسلام، وماذا كانت نتيجة المظاهرات السلمية، وهل كانت هناك نتيجة غير التصفية؟

اعتمدنا على أن العالم سيتحرك، حقوق الإنسان ستشجب، صبرنا

وبقينا نقاوم سلميين، لكن إن كنت ستقاتل مجرما، فلا تنس أن تتخلى عن كل قواعد المباراة العادلة، لأنه سيستغل أي نقطة شرف فيك ليطعنك بها!

القوة لا توقفها إلا قوة مثلها مساوية لها، ومضادة في الاتجاه، هذا ما أؤمن به، بعدما رأيت من خسارة للأرواح وظلم وهوان، وبعدما ترك القذافي مجرمي السجون ومرتزقته من التشاديين والنيجر يفعلون ما بوسعهم، لترويع من هو مختبئ في بيته، حتى إن لم تستطع العائلات الهرب عبر المعابر، فلن تسلم من الموت غدرا أو جوعا، فكل المتاجر إما نُهبت أو تساوت بالأرض، وكل الأسر اختبأت في جحورهم كالفئران، يحاولون اعتياد العيش بما لديهم من غذاء!

ماذا كنا ننتظر أكثر من فاجعة القصف العشوائي بـ«الآر بي جي» للعجائز والأطفال والنساء؟

فقط لمن تسول له نفسه الخروج من جحره! المجرمون في الشوارع من حولنا، والطائرات الحربية من فوقنا تقصف أي مسيرة كأننا في لُعبة «بلاي ستيشن»! حناجر تهتف: الله أكبر، يطالبون القذافي باللحاق بجبان تونس قائلين:

(يا قذافي عدي لجدة..... الشعب الليبي واصل حده)

(يا قذافي صبرك صبرك.... بدك الشهدا بنحفر قبرك)

ثم تأتي قذيفة لتحول جسدا كان يمرّ بجانبك إلى مجرد غبار، أو قد تسير، فتُفاجأ بأصبع أو قدم قد قُذِف إلى وجهك بعد أن تحول صاحبها إلى أشلاء، وتطالك الدماء من كل جانب، وتفقد الشعور بالألم، بل تفقد الوعي الحقيقي بكل ما حولك، وتسير وكأنك منوم، لكنك ـ قطعا ـ لا تستطيع التوقف، وتتداخل الدماء، فلا يمكنك أن تميّز الدماء على جسدك، أهي لك أم أنها أصابتك من جسد آخر قد تفسَّخ!

والبيوت من حولنا مسودّة الوجوه بدخان القصف، وروائح العرق ممتزجة برائحة الدم الطازج والموت المخيم على الجميع، هل كنت أصرخ؟ وهل كنت أملك الخيار؟ وهل كان السباب علكة في ألسنة الجميع؟ لكن الألسنة أفلتت، وماعادت تصيغ حديثًا يُفهم، هل كنت أقتل؟ وهل كنت أملك الخيار؟ هل يصير القتل أقل وطأة على نفس إن صار جنونا محضا، في بقعة العيش فيها أبخس من امتهان الجريمة؟

لم نكن نهرب، ولم يكن ركضنا رغبة في البقاء، بقدر ما كان استيعابا للمشهد من زاوية أفضل.

كم صباحا وكم ليلة مرت ونحن نرتقب النهاية؟

البيضاء تتمرد، وطرابلس ومصراتة والزنتان وجبل نفوسة ونالوت والرجبان وقناة «ليبيا الحرة» منارة تأتيها إشارات الاستغاثة من كل مكان، أرقام شهداء هنا وهناك تتجمع لتصنع جسدا قبيحا للخسارة، وسواد حالك لنهار الأمل!

أيدفع الزلزال السجان لإنقاذ سجينه؟

ربما تلغي القيامة مثل تلك الفوارق، ربما كانت تلك قيامة ليبيا! غاص الضباط بيننا يبكون وهم يخلعون ثيابهم وانتماءَهم معها، هل كانوا يبكون الماضي أم الحاضر أم اللامستقبل؟ هل كانوا نادمين وهم يرحلون عن أقسامهم التي كانت قلاع تعذيب، رموا أسلحتهم في أيدينا في شيء من التوبة المتأخرة، وهم يهتفون أمام الكاميرا بنخوتهم وإنسانيتهم التي أبت الاستماع للأوامر!

من الغريب أن قرب الانتقام وقوته ذكّرتهم بأن لهم نخوة وإنسانية يجب أن يستشيروها في أوامر كانت عندهم أولى في التطبيق من القرآن!

صارت الأقسام كَنزا مكشوفا يهرع إليه الرجال من المناطق كافة، لتغيير قواعد تلك الغابة، الكل يختطف سلاحًا وكأنه صار غذاءً، فصارت الأسلحة

في متناول الجميع، انتصر السُّكر، وصارت المباني الحكومية هدفًا سهلًا، سُحقت الأبواب والنوافذ، صار كل واحد منا يفرغ طاقة القهر في أي شيء يقع تحت يده من ريح الحكومة، يدعس ويكسر، ويبصق ويحرق!

طحننا الموت لأيام، لكن سقوط المدينة جاء يسيرا، وكانت الأخبار تتوالى على نبوس وزهير بحيث لم يكن من الممكن إعلانها في لحظة حدوثها. سقوط جميع الإدارات الحكومية، سقوط أقسام الشرطة، انضمام ضباط إلى الثوار، وتوحد القبائل ورفلى والزوى وترهونة وغيرهم، واستقالات سفراء ليبيا في العالم، ومناديب القذافي، الدفة تعتدل لتشير إلى بنغازي، والليبيون وغير الليبيين يهتفون حول سفارات ليبيا في العالم برأس القذافي!

استقالة مصطفى عبد الجليل مع سقوط مبنى الإعلام الرئيسي في طرابلس، تلتها استقالة وزير الداخلية ـ الذراع الأقوى للقذافي عبد الفتاح يونس ـ شاهدته بأم عينيِّ لأصدق وهو يجلس على مكتبه بكل هدوء يصف ما يحدث في الشوارع، وكأنه معلق رياضي محايد، ثم يخفت صوته، وتهدأ وتيرة أنفاسه وهو يعلنها على الهواء، مثله مثل رجاله، رجال فقط أمام الكاميرا!

أتراه فعل هذا ليفلت مما طال وزراء الطواغيت في مصر وتونس؟

وهل تُقبل الاستقالة بعد الفاجعة؟ هل تُقبل التوبة في سكرات الموت؟

يبدو كمن ينظف بدلته من الدماء الطازجة دون أن يتذكر أن لونها تغير من الدماء المتخثرة الجافة لمن سبقوا، فالدم يلتصق بمريقه وإن نزع الثوب لا ينزع الضمير ولا الجلد!

استيقظ الآن مجلس الأمن الدولي، وبدأ يمنُّ علينا باحتجاجه وفرض عقوباته على القذافي ونظامه، ربما كانوا ينتظرون خبر هرب القذافي، ربما كانوا ينتظرون منه رد فعل ينقذ مصالح الكل، وينقذ أصابعهم من أن

تُقطع في جيوبنا، ولكن هيهات، فلقد خرج علينا سيف الإسلام ناصحا يطالب جميع الأطراف بوقف الدم، وعدم الانزلاق لحرب أهلية مسلحة.

لست أدري أي أطراف يخاطب وهو الطرف الرئيسي، وأي وقف إطلاق النار ذاك الذي يطالب به؟ من فينا صار القاتل ومن فينا كان الضحية؟ كيف يطالب السفاح ضحيته بالتزام السلام والهدوء وهو يُشرِّح لحمها؟! ألأننا الآن صرنا الأقوى؟ ألأن الكتائب انضمت إلينا ماعادت تنصاع للأوامر، وتقذف الناس إلى فوهة الموت؟

ألأنه دورنا الآن لنرد صار الصمت من ذهب؟! ضبع من صلب ضبع، أبوه يصورنا بالجرذان وبأنه سيلاحقنا في كل مكان، وهو المُهان الناكر للبركان من تحته، خرج للعالم في خطاب يخاطب به نفسه، ليجعل منها أضحوكة وهو يذكّر الناس بأنه ليس برئيس ليرحل، إذن ماذا كان طوال هذه العقود؟ أكان ملاكنا الحارس؟ أم كان ملك الموت؟ هل أخطأنا وظننا عصره تابوتنا وهو ولي نعمتنا مثلا؟ يكاد عقلي يتفطر وأنا أشاهد خزعبلاته على الهواء مباشرة!

تخلص عبد الله من فراشه وخرج للمساعدة، فلقد تركت الفوضى أثارا في المدينة، وفي النفوس لا تمحى في الأيام التي بقاها طريحًا. اصطحبنا معنا باهي خليفة نسجل الشكاوَى من المستشفيات، ونستمع إلى حكايات الممرضات والأطباء التي تنشطر لها الرؤوس عن مرتزقة القذافي وهم يعتدون على الجرحى ويقطّعون لحمهم أحياء، ويزهقون أرواحهم فزعين، ليسكتوهم، ليس في الليل وإنما في وضح النهار، ومن سمع ورأى ليس أقل تشويها ممن تأذى!

التقطنا الصور للزوايا التى كُدِّس فيها المصابون. ما رأيته في ذاك المشفى فحسب من مصابين وقتلى يفوق الأعداد، التي أعلنتها قنوات العالم! صوّرنا وسجلنا كل من تبقى، وكل من اختار أن يبقى ليسعفَ مصابا، وكل فتاة

تخلت عن ثوب أنوثتها واختارت جهادا من نوع مختلف، يتحملن ما لا طاقة للرجال به دون حماية ودون مقابل!

أتعجب وأتساءل: أينا أقوى، نحن في قتالنا للعدو، أم هن في حماية ظهورنا؟

تبرع عبد الله بدمه، وهو المحتاج، فحذوتُ حذوه، فكلنا تبرعنا أصلا بدمنا في هذا الوطن.

وقف باهي ملتصقًا بالجدار، وكأنه يطلب منه أن يخفيه! ما إن انتهى صف المتبرعين حتى التفتت الممرضة له تشير إليه أن يتقدم. بقى كالصنم صامتا متحجرا، وبقيتْ أعين المرضى تجلده وهو الرجل الوحيد الذي يرفض التبرع، إذ إنه كان سالمًا معافىً بلا أدنى جرح!

لا يعلمون أن أعمق الجروح تلك التي لا تظهر، فمنذ إصابته بمرض الإيدز ـ حين كان محبوسًا في سجن بوسليم ـ وهو متشح بالعزلة، الاقتراب منه كالإمساك بنصل سِكين!

لا مجال لحل موقف كهذا، فالتبرير فضيحة، والسكوت إدانة!

جذبناه ورحلنا قبل الكلام، وسِرنا فوق الخزي!

عاد منكسرا إلى أبيه الحاج خليفة، الذي فقد ولديْن في سجن بوسليم، وعاد له الثالث معطوبا، لا يمكن أن يقبل بخسارته في ثورة وقد دفع ولدين ثمنًا لجحود وطن، لكن العجوز لا يدرك أن الانتماء مرض لا شفاء منه، ولا راحة فيه.

لكن براعم المعطوب أزهرت، فقد تحققت أحلام باهي التي بقي يرددها منذ اليوم الأول للثورة. بدأ الشرق المتحرر يؤسس مجلسا وطنيا يمثل ليبيا أو ـ على الأقل ـ ما تبقى منها، وما يحسب من شعبها رجالًا، وهذا يعني تشكيل جيش تحرير وطني مختصّ بالمقاومة، وهذا يعني أنه ستتاح له الفرصة أخيرًا ليسهم أو ليقاتل، ولن يظل أبدا في طور الدفاع، فباهي

سيف محبوس في غِمده، فارس مكبّل بمرضه وبحاجته للحياة!

التفتت كتائب القذافي على البريقة، وبالمقابل تجمع عشرات الآلاف من المتطوعين غير المدربين على السلاح في أجدابيا استعدادا للحرب. نعلم أن القذافي يكره أن تخرج بنغازي خاصة عن طوعه ومجده ولد فيها، وخرج منها إلى أنحاء ليبيا كافة، نعلم أنه لم يجد ثغرة في أسوارها، فقرر الالتفاف نحوها من البريقة ثم أجدابيا.

جمدت البنوك العالمية أرصدة السفاح. أتراها الأموال ستعود إلى أرضها، وإلى من سلبت منهم؟ لكننا كنا في وضع يجعلها آخر ما نفكر فيه، فكل ما كان يهمنا أن تشل هذه الحركة تحركاته وتقلل من عدد مرتزقته. ما إن بدأت معارك البريقة حتى وصلت إلينا تسجيلات مفجعة، تسجيلات قتل جماعي كتحذير لكل من يقع في قبضة خائن من الخونة من أحذية القذافي، فتحناها وأفرزناها، وجمعنا وجوه من قُتلوا غدرا.

حاولت أن أنحي أعصابي جانبا وأنا أسجّل الوجوه والمعلومات، حاولت أن أتماسك، فالكثير منا انهار من البكاء، أو القرف، كنت أحاول أن أقنع نفسي أنهم قتلى علي تسجيلهم، لا تربطني أي علاقة بهم، وأنهم ليسوا حتى ليبيين ولا عربا، حاولت أن أختبئ خلف الوهم حتى تنقضي سويعات الفاجعة، لكن وحده منظر الطبيب أحمد صديقي، الذي أفزعني وأخرجني من نطاق العقل والمنطق، وهم يدوسون على وجهه بأرجلهم النتنة، يطالبونه أن ينطق الشهادة باسم القذافي مع كل صفعة، والدم يسيل من ذراعيه وقدميه، يُقلبونه على ظهره، ووجهه مُعفَّر بالتراب يستصرخونه:

ـ قل عاش الفاتح.... قل عاش معمر

يطلبون منه أن يعبده ويقره ربا، لكنه يلهث منقطع الأنفاس والأوصال وهو يقاتل بلسانه:

لا إله إلا الله... لا إله الا الله.. محمد رسول الله

ثم ارتجفتُ واهتززتُ في مكاني مع صوت الرصاصات، التي سكنت جسده لترديه حرا في زمن فيه الحياة عار! مات صديقي أمام عينيِّ وأنا أميز وجهه من بين صفوف الشهداء والدموع تعصف بي، مات بين ضحكاتهم الساخرة وسبابهم النتن، وهم يرمون جثته في سيارتهم!

تحرر وتركني أسير ذنبه وانتقامي له، أُلمح بريق عينيه وهو يتطلع إلى زاوية قصية عنا كبشر، ليتركني بركانا!

يعوي الكلب
إن أوجعه الضرب
فلماذا لا يصحو الشعب؟
وعلى فمه ينهض كلب
وعلى دمه يقعي كلب
الذل بساحتنا يسعى
فلماذا نرفض أن نحبو؟
ولماذا نُدخِل أبرهة في كعبتنا
ونأذن للكعبة رب؟
نحن نفوس يأنف منها العار
ويخجل منها العيب
وتباهي فيها الأمراض
ويمرض فيها الطب
حق علينا السيف وحق الضرب
لا ذنب لنا، لا ذنب لنا
نحن الذنب!

أحمد مطر

عبد الله محمد

أحيانا أتمنى لو أني أغمض عينيّ عن حقيقة، فتختفي، ولكن ما إن التفت إليها حتى أجدها أكثر توحشا! ما الذي يجعل الحقائق تختفي ولا تعود، خصوصا تلك الحقائق التي لا نملك حيالها تصرفا، والتي تسبب ألما لا نملك من التحمّل لنتعايش معه؟

أعترف أن ما شاهدته وما سمعته وما عرفته في الأيام القليلة التي سبقت تحرير بنغازي جعلني أتمنى لو أني لم أعش من الأساس! يظن من حولي أني متبلد، لأني لا أصرخ لا أتكلم! بعض الصمت ألم لو يدرون، وفي حياتي أنا الكثير منه ألم، بل ربما كله! أحاول أن أجمعني في صومعتي، إصابتي وحزني، وذكرياتي وشوقي، أضعهم في سلة واحدة، وهي احتياجي لربي!

تحتاج الكثير من الكلمات لتوصل للبشر كيف تشعر ومع ذلك لن يتفهموا، بينما ربي هو الوحيد الذي يقرأ ما بالنفوس، ويعرف ما بي دون حتى أن أتكلم! بينما كنت أشكو حزني إليه صمتا سمعت طرقات خجلة على بابي، طرف ردائها الكحلي كفاني لأعرف أنها جارتنا، وهي تقول باللهجة الليبية التي لا تزال مستعصية ـ بالنسبة لي ـ على الفهم على الرغم

من مرور كل هذا الوقت عليّ في ليبيا، شيء ما يجعلها لا تبدو لغة عربية على الرغم من أن كلماتها عربية، بعض الكلمات من لغات الاحتلال المختلفة تزاحم الكلمات العربية، لكنها تبقى مفهومة، خصوصا الكلمات الإيطالية في حديثهم، لكنْ شيء واحد يجمع كل من يتحدث الليبية، إنه الكبرياء والعنفوان، لهذا فمهما حاولت تقليدهم والحديث بها يكتشفون أني لست ليبيا!

لا أعرف كيف أُضفِّر الكبرياء بنبرتي وحروفي، لا أعرف كيف أنطقها مثلهم وأسرع بها مثلهم، دائما ما تفقد اللهجة الليبية هيبتها على لساني! كل ما فهمته من كلامها السريع إشارتها إلى أسفل. كنت أعرف أن الحاج خليفة لن يقبل انغلاقي على نفسي أكثر من هذا، وآلام عظامه تمنعه من الصعود المتكرر إلى الغرفة، التي حبست نفسي فيها محاولًا استيعاب حفلة الفواجع!

وقفت عند الباب مترددا، أنظر خلفي وأمامي، ثم اتخذت قراري ونزلت إلى الأسفل. لم تكن جراحي قد شُفيت بعدُ، ولكني أعلم أن هذا العجوز لديه من الجراح ما يكفي لإيهامي بسلامتي. لم أكن أريد الاستماع إليه لأهوِّن عليّ بلواي، وإنما لأهون عليه بلواه، لكن تلك النظرة التي يقابل وجهي بها في كل مرة يراني فيها، كانت توخزني بعنف، تلك النظرة القابعة فوق ملامحي بألم وشوق وحسرة، اشتياق لشخص أعلم أنه ليس أنا، فتظل عيناه تتأرجح بين محاولة نكران ملامحي والهرب منها، أو محاولة التملّي منها كمخدر مؤقت، فأجلس بجانبه مستسلما لنوبات شوقه وذكرياته.

يجلس دائما على كرسي مهترئ ـ يصرّ على أنه الكرسي الوحيد الذي يريحه ـ لم يعد يريحه، فلقد مضى زمن صلاحيته، لكنه يرفض التخلي عنه، يرفض التخلي عن الكثير من الأشياء، محاولًا أن يظل وفيًا لعل هذا الوفاء

يُرد له من أي شخص آخر، يتشبث بهذا الكرسي؛ لأنه يرى نفسه فيه، مهترئ ومنتهٍ، لكنه ما زال حيا، لا يرفض الموت، لكنه لا يستطيع أن يأتي به وقت ما يحب! يجلس على هذا الكرسي وفوقه مستطيلان متوازيان على الحائط، يعلق عليهما كل حياته وتعبها ونتائجها، خيباته وذكرياته وأحزانه كلها في هذين الإطارين اللذين يحملان صورة ولديه المتوفيين، والذي كان من حظي العاثر أني أشبه أحدهما بشكل لا مجال فيه للتفريق، وأشبه الآخر بملامح قهر ولحية وحلقات داكنة غائرة حول عينين لا ترتاحان في نعاس، وأسنان غير منتظمة تخفيها شفتان مطبقتان!

حالُه من حالي، حالهما من حالي، حال كل من يحاول أن يكون مسلما في بلد مسلمة! يطالعني أساه حارقا مثل حب شهد، فأتمنى لو أني ذبت، وما تبقى مني شيء يضطر أن يواجهه!

أيها العجوز، ترفّق هذه المرة في صَوغ الحكاية التي كانت نهايتها مرضك وانهيارك على كرسي مهترئ.

أرجوك ترفق بي هذه المرة.

المرأة التي طرقت بابي جاءتني بشاهي العالة. أنظر إليها مستغربا والبلد في مثل هذه الحالة من الحرب لا يزال الليبيون يحترمون عاداتهم اليومية، ويحافظون عليها أكثر من حياتهم! كان هذا الطقس هو أول ما قابلني في ليبيا، مائدة تحمل برادي شاي ونشافة وسخانا للماء وأكوابا. أدوات كثيرة وخطوات يجب أن أتبعها وأنا أشرب الشاي. مجرد شاي، لكن الشاي بالنسبة لليبيين طقس أساسي تجتمع فيه العائلة لهدرزة العشية، أي: حديث المساء، وتجتهد في إجادته النساء، ثلاثة أكواب من الشاي الذي لا يظهر لونهم من سطح ممتلئ بالرغاوي البيضاء، تحرص النساء أثناء التحضير على زيادتها باللقامة، قيل لي إنها لو لم تكن موجودة، فمن حقي ألا أمد يدي إلى هذا الشاي متأففا! يجب أن أشرب ثلاثة أكواب،

وكل كوب منهم بطعم مختلف وقوة مختلفة في التأثير، تصاحب الأكواب الفول السوداني الذي يسمونه الكاكاوية، والكوب الأخير يصاحبه اللوز تحديدا أو أي نوع من المكسرات. معدتي لا تتقبل شيئا كحداد يصاحب ضيقي من أي أمر، ولكني أضطر للقبول، وأحاول التلكؤ، لعلّ ضياع الوقت يعفيني من التكملة. يفاجئني العجوز خليفة بعناق حار قائلا:

ـ حمدا لله أنك تعافيت يا ولدي.

أقف حائرا مع نوبة حنانه، فتتصلب ذراعي، أجاهد للابتسام، وإن كنت أشك أنه تعبير الوجه الصحيح الذي يجب أن أضعه، فأنا لا أعرف أي ولد يقصد، يقصدني أم يقصد ولده الذي لم يتعافَ قط، ولم يعد قط! لم يسعفني التعامل مع حزن يتوشح بالأمل، حتى بعد تأكده من موت ولديه شيء ما يجعله يأمل أنهما سيعودان إلى أحضانه يومًا ما.

أتذكر نوبة البكاء الهيستيري التي التقاني بها على عتبة بيته، وأنا أصعد السُّلم إلى شقة بدر. عجوز غريب يبكي ويتوسل، وهو يكاد يخنقني بين ذراعيه، حتى فُتحت أبواب الشقق المجاورة، وخرج منها نساء يبكين أيضا! شعرت أن حضور يعجّل بجنازة متأخرة، ولكن الاحتياج الذي كان في ذراعي هذا العجوز جعلني أشعر أن لحضوري أهمية ما. أنقذني حضور بدر من ابتكار حل للوضع الذي كنت فيه، وأسى العجوز وهو يربت على كتفيه دون أن يذكر له اسمي. شدّني العجوز من ذراعي إلى داخل منزله، وأنا مجرد غريب لا يعرفني ولا أعرفه، فهمس بدر لي بأسًى أنه أب فقَدَ ولديْهِ في سجن بوسليم، وقد عرف بخبر موتهما منذ أشهر قليلة، بينما ماتا منذ أكثر من عشرة أعوام! لم أفهم شيئا ولم أستوعب سوى أن عليّ مجاراته، وكانت تلك المسرحية أكثرها ألمًا لنفسي.

مرت أيام قبل أن نقنع العجوز حين يستفيق أنني لست ابنه العائد، وأن ما يربطنا فقط هو ملامح متشابهة في لحية وجسد هزيل وقَدْر متشابه

في اضطهاد حكومة ومجتمع لهذه الملامح! كنت حائرا أيهما يؤلمني أكثر، حكاية العجوز خليفة، أم حكايتي التي هربت منها، منتقلاً إلى بلد عربي مسلم كنت أظن أنه سيتقبلني بشكل يلائم المنطق أكثر، ولكني بعد أن استمعت إلى حكاية ولديْه، علمت أن غربتي لم تكن ذات فائدة، وأن بحثي عن مكان يصون ديني وكرامتي أمر لا نتائج منه! كنت مهموما بسياسات الفساد في مصر، فما كنت أفهم سر كل هذا حتى أني كنت أستهجن ـ أحيانا ـ كُره بدر الشديد لسياسة القذافي، ولكني بعد مجيئي إلى هنا، أدركت أن فساد الأنظمة العربي هو أخطبوط واحد طالت أذرعه كل الدول، وتقود أذرعه الرأس نفسه!

هربتُ من مجتمع يشير إلى لحيتي بأصبع اتهام، فرحلت إلى أرض حاكم يحسب نفسه مسلما، وهو يستنكر حتى مجرد الصلاة على نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ! يتطاول لساعات بكل وقاحة في التلفاز على الصحابة والسنن، خدَعَه مجدُه الزائف، فظن أنه أعلى منهم، يملك من الحجة والتفكير ليرسم مسارا للصحابة وتاريخهم، بل يعلن أنه كان الأفضل لهم أن يتبعوا فلسفته الوجودية التي ـ ويا للأسف!! ـ لم يحالفهم الحظ ليعرفوها! ألا وهي مؤتمرات شعبية يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه!!

لست أفهم كيف يؤمن شخص بدين يحتقر أئمته، ويرفض معظم قواعده جملةً وتفصيلاً! إن كان دين الإسلام لا يعجبه إلي هذا الحد، ويثير فيه كل اشمئزاز ـ كتاريخ وسنن وقواعد وأفعال ـ فمن أجبره عليه؟ أم أنه دخل فيه ليشكك فيه؟ طالما ارتضاه دينه، فإما أن يأخذه باحترام أو يتركه باحترام!

ما الذي أفقد ولديْ خليفة حياتهما؟ لعنة دين معمّر، التي جعلته يطلق رجاله في كل مسجد خلف كل شاب يريد الله ربه وحاكمه، خلف كل لحية وكل نقاب صارت الأيدي تمزق أي مظهر من مظاهر الدين مع تبرير

بالفساد والإرهاب المحتمل، فكل لحية وكل التزام هو رفض للفساد، وبالتالي رفض واضح للسلطة الفاسدة، ومن ثم قد تكون نقطة في تحول المجتمع ـ من مجتمع يجري خلف حرية تبرر شهوات نفسه، وتلهيه عن مفهوم الحرية الحقيقي من ضمان العدل وحماية حق كل فرد في عبادة ربه ـ إلى مجتمع يدرك المعنى المحرم لكلمة حرية ومساواة وديمقراطية، يدرك ما خلف الشعارات الرنانة من تنفيذ.

يخاف الحاكم من دين يفتح العقول، التي أغلقها بمسميات مخدرة للحرية، ويخلق صراعًا وهميًا بين قواعد الدين ومفهوم تلك الحرية التي ابتدعها! من الغريب أن كل الحريات مسموحة إلا تلك التي تمَس نقد الحاكم أو تقرّب إلى الله! كانا مجرد شابين مجتهدين يبغيان صلاح دينهما ودنياهما، يتلقيان العلوم في مجال دراستهما، ويحافظان على تلقي علوم الدين في دروس في المساجد، أو ليلة اعتكاف، أو تعمق في الفقه والحديث. تلك الليالي التي قضياها يبذلان كل ما في وسعهما؛ لفهم دين يسخر منه، ويشكك فيه من لم يقضِ ليلة واحدة في محاولة فهمه ومعرفته! قضيَا ما تبقى من حياتهما في ظلمات الزنازين، كل حاكم وكل نظام يخاف الملتزمين كالخفاش الذي قضى حياته مقلوبًا في ظلمات الفساد، يخاف صلاتهم ولِحاهم كما يخاف نور الصباح وهو أعمى!

في أوائل التسعينيات تم ترحيلهما بدون تهم ـ مثلهما مثل الآلاف ممن كانت تهمتهم لحاهم وصلاتهم ـ إلى جهنم الأرض، بوسليم، القريب من طرابلس. أحدهما كان عائدا من فريضة الحج لم يكد يصل إلى المطار، ودون حتى أن يختطف لحظات في حضن أمه تم ترحيله إلى السجن، ولحق به أخوه بعد شهر واحد، ثم الثالث ـ باهي ـ بعد ثمانية عشر شهرًا، وماتت زوجة الحاج خليفة كمدا على أعتاب السجن، تتوسل حراسه أن ترى أيَّ واحد من أولادها للمرة الأخيرة! لسنوات لم ييأس خليفة، وظل يقف

مكان زوجته الراحلة على أعتاب السجن، يرغّبهم بالتوسل مرات، وبالمال مرات، ليرى أيًّا من أولاده الذين كانوا ثمرة تربيته على الدين والاجتهاد في الدنيا والآخرة، فكانت نهايتهم نتيجة ما آمنوا به في مثل هذا المبنى المُوحش معرّضين لأسوأ أنواع التنكيل والتعذيب.

«ولا هم قتلة ولا مجرمون» قالها لي وهو يبكي وينتحب جالسًا أسفل الحائط الذي يحمل صورهم:

ـ ندمت والله أني ربيتهم على الأخلاق، لو كانوا قتلة مجرمين مثل رجال هذه الدولة، لكانوا يحتلون أكبر المناصب الآن! هذه هي نهاية أي متمسك بدينه أو أخلاقه في هذا الزمن الأغبر، زنزانة لا تناسب حتى مقاسه واقفا!

ظل يسرد الحكايات لي على مدار أشهر من الزيارات الصامتة، يسرد لي كيف كان يرتحل كل يوم إلى سجن يبعد عنه آلاف الأميال على أمل الاطمئنان فقط على أولاده، حاملًا المال والطعام والملابس والأغطية، لعلها تخفف عنهم وطأة مثل هذا الجحيم، فكان الحراس يَعِدونه بإيصالها لأولاده. سنوات وهو يتكبّد عناء التمسك بالأمل، ويرسل الشكاوى لكل مسؤول في الدولة بالتوسل والغفران لأولاده الذين لا تهمة لهم ولا ذنب. كان يتوسل من داسوا عليه وعلى أبنائه وحقوقهم بأن يملكوا قليلا من الرحمة وهم يدعسونهم!

وهل يقبل الإنسان المهانة في أي وضع إلا لأجل سلامة أولاده؟

طوال سنوات ابتزوا احتياجه وأمله، حتى فاحت قذارة الجريمة! أكثر من ألف وثلاثمائة سجين أعزل قُتل في السجن، ودُفن تحت أنقاض المبنى! لسنوات كانوا جثثا منسية تحت أقدام الظلمة! عاد له باهي ودَمُه ملوث بالإيدز من جراء مرضه، وحقنه بحقنة ملوثة، فلقد كان مجرد سجين، فما الداعي لأخذ الاحتياطات لسلامته؟ أعادوه ليصير خروجه ثمن سكوته، أعادوه وهو راغب في البقاء، فماذا تبقى له ليكون راغبًا في العودة؟

أتذكر تلك الليلة في منزل بدر حين خرج لنا صوت قلبه، وهو يقول هامسا:

ـ كنت أشعر بالخجل من لقاء والدي! أشعر بالعار، العار من تلك الفضيحة التي تسري في دمي، وعار أني لم أمت مع إخوتي، وعار أني لم أفعل شيئا لموتهم! كنت أعلم أني سأرى في عينيّ والدي ألف دمعة وحسرة!

ـ ويلك يا باهي، إنك لا تعرف أنك كنت طوق النجاة لوالدك من الجنون، لو كان فقدك أنت الآخر، لما كان هناك من سبيل له إلى أي منطق أو حياة!

ـ إنه لا يزال مقتنعا أن عبد الله هو ابنه العائد! عن أي عقل تتحدث وعن أي حياة؟ لا رجوع ولد يعوض عن فقدان آخر.

لذا كان ارتباكي في كل مرة أدخل فيها بيت خليفة، وأجلس بين يدي فقده، أحسّ أن ملامحي تضغط على جرحه، وحنانه يضغط على جرحي، وبيني وبين نفسي ـ غصبًا ـ أخذتْ ملامح وجه هذا العجوز تحتل صورة الأب في مخيلتي، لأن صورة أبي ممسوحة منذ أن بُنيت لي جدران ذاكرة! لا أعرف له وجهًا ولا ملامح إلا من خلال نحيب والدتي الصامت ليلًا! لا كان سني الصغير ولا نومي حائلًا لأفهم أن غياب أبي، كان خطأً ما في حياتي، وأن غيابه لم يكن شيئا مؤقتًا، بل هو قدر دائم، ولم يكن مجرد غياب زوج بالنسبة لأمي، بل كان سقوطًا في حفرة النبذ، نبذ رجل أحبته وهجرها!

لم اسأل ماذا كان السبب، ولم يسأل كل من كان يلقي اللوم عليها، افتراضًا بأنها لا بد وأنها لم تعرف كيف ترضيه، لا بد وأنه وجد من كانت أجمل منها وأفضل منها، فالفراق كان دائما خطيئة أمي، لأنه استمر بحياته وهي تخلفت متمسكة بأنقاض العلاقة! كبرتُ على متابعة درجات انكسارها ووحشة

عُزلتها، راقبت أطوار انطفاء الحياة فيها وذبول أحلامها، حتى استيقظت ذات صباح على برودة ذراعها الذي يحيط بطني، التفت لأجد زرقة باهتة شابت ملامحها كلها، لم أكن أفهم وقتها طبيعة الموت، ولكني أتذكر جيدًا أني في ذاك الصباح ـ حين تحسست فقدان دفئها ـ كنت أدرك أني فقدتها!

ما تبقى من سنوات حياتي كنت فيه أعيش منعزلا في غرفة أمي القديمة في منزل جدي، ذاك الرجل الغارق في الصمت والذي يخشى الأصوات أكثر من الموت، منذ أول يوم عشت معه فيه أدركت لماذا تمسكت أمي بكل أذيال المهانة والرغبة في بقائها في ظل زوجها، الذي ما ترك مساحة في كبريائها إلا وطعنها!

أدركت كيف يمكن لأب أن يجعل عالم النبذ الذي عشتُ فيه مع أمي أولى سنوات طفولتي، أهون ألف مرة من أُنس معاشرته! كان يجب علي أن أتعلم كيف آكل في صمت، وألعب في صمت، وأبكي في صمت! ذاك العجوز الذي عاش طويلا ومات كثيرا في أحلامي، كان الكائن الوحيد غيري الذي تمنيت له الموت، والذي عرف كيف يعلمني أن أفضل طريقة لمعاشرته أن أكون خفيا، بلا صوت ولا وجود ولا طلبات، وإلا واجهت نوبة طوفان من عصبيته وغضبه! حين عانقني العجوز خليفة تصلبت عضلاتي، وأدركت فجأة أنها ربما المرة الأولى التي أتلقَّى فيها عِناق حب! أني أعرف جيدًا كيف أتعاطى مع أي مصاعب في الحياة، لكن ما أجهله هو كيفية التعاطي مع الحب.

شهد لم تعطني حبًا، بل أغدقت عليّ بمشاعر يعجز الكثير من الرجال على مجاراتها، على الرغم من أنها كانت الوحيدة التي عرفت ما لذي صنعني من أحداث حياتي، لكنها لم تفهم الفارق الجوهري بيني وبينها. كيف يمكنها أن تفهم أنه بالنسبة لبعض الناس تلقي الحب أصعب من منحه؟! كيف وشعارها في الحياة الحب، ثم الحب، ثم الحب، فالحب يسكن معها طفولتها

وبيتها، ويمنح لونًا لا يُمحى لكل ذكريات حياتها، أما صورة الحب في أعماقي هي أمي المنكسرة، التي تقضي لياليها وحيدة باكية متحسرة. لا أعرف كيف تكون الأسرة حتى أبني واحدة، ولا أظن أني سأكون أفضل حالا من أبي!

فهل يمكن أن احتمل رؤية شهد في وضع أمي، أو حتى أي امرأة أخرى؟

أدركت ـ بمرور الوقت ـ أن الحب والزواج أمران يجب أن أتجنبهما لأعيش دون ذنب ودون فشل! لقد خيبت أمل الجميع، فلن أقبل أن أخيب أمل شخص يحمل مكانة فيّ مثل مكانة شهد، تلك المرأة التي يحييها الحب ويميتها! لا بد للرجل الذي يحبها أن يتعلم كيف يسبقها في الحب ليرضيها، وكيف يمكن أن يسبق رجل مثلها عاشقة لا تلتقط أنفاسها في سحق أي حواجز؟ كيف يمكنني أن اتعامل مع كل مواهبها وكل أوجه شخصيتها، وأنا بالكاد أتلكأ في معاملة الآخر؟ روعتها تخيفني، ومثاليتها وحياتها السهلة تدفعني دفعًا لأرحل، فلا أجرحها وأكون أنا خيبة أملها الكبيرة في حياتها! لا يوجد رجل يمكن أن يكون ندًا لامرأة مثل شهد، فما بالك بإرضائها وإسعادها، وأنا العاجز عن فهم أصلا معنى كلمة سعادة!

أكاد أرى الدموع تتجمع في عينيها تمقت سلبيتي، وهي ملكة المبادرات، ما يلجمها كونها امرأة وكوني مشروع رجل فاشل، تربى على أن السلبية هي الوجه الآخر للسلام! هكذا تربيت في بيت يُؤثِرُ الصمت علي الحياة، وفي مجتمع يحبس الدين في المسجد، ويطبقه فقط في القلب! لحية ومواظبة على المسجد، ودروس وخطب عن حقيقة الفساد، وكيفية تطبيق الدين، كل هذه الأمور هي أول تذكرة يتلقاها الفرد إلى السجن المؤبد، أو تلفيق أي تهمة له، أسهل التهم تلحق بالالتزام هي نفاق أو إرهاب أو تخلف في

أحسن الفروض! أمن الدولة لا يعرف غير هذه الفئة التي تهدد في نظره كل الأمن والأمان، أهل السينما وأهل الأدب لا يرون صورة أخرى للحية سوى قناع براءة لذئب يختفي خلفها، إما سفاح، أو سارق، أو قاتل، أو مكبوت، أو سياسي طامع بالسلطة!

وكأن بقية أهل السياسة والفصائل الأخرى لا يريدون شيئا من السلطة! ما أجملَ غسيل العقول، لكن مطالبة الحق مع لِحية أمر مستهجن، فإن كنت تريد التزاما في مثل هذا المجتمع عليك أن تدفن نفسك بالحياة، وتتعلم كلمة واحدة فقط. لا دخل لك! لا دخل لك في سياسة أو قوانين، أو في تحسين أي شيء، سواء في الوطن أو حتى في الأفراد! كل أفكارك باطلة متخلفة، وكل رغبتك في الأصل تَجَنٍّ على حرية المواطنة، وكل علم يصاحب علومك الدينية غير معترف به، وكأن الدين ما إن يحط على عقلك حتى يمنعك من أن تكون ناجحا في أي شيء سواه! الأهل والجيران وأهل الشارع يُلقون في وجهك اتهاما آخر، فمع أي هفوة أو خطأ يصدر منك تصير أكثر من أساء للدين، وكأننا إن لم نصرّ ملائكة منزهين، فإننا لا بد شياطين!

ينسون أن الملتزم بقواعد دينه ما هو إلا مجرد بشر يخطئ ويصيب ـ مثله مثل غيره ـ لكنه يحاول بقدر الإمكان، وبكل ما يستطيع بالعبادات، بالتصدق، بالأفعال، بالمعاملات، فكلٌ بنفس الأهمية، أن يتقرب من ربه، وأن يسعى في الآخرة كما في الدنيا. يحاول أن يسعى على الجانبين المادي والروحاني، فلا يفقد صلته بربه وهو يطلب النجاح في كل جوانب الحياة، ولا يقبل بصلة بربه أقل مما ينعم عليه.

على الملتزم ألا يكذب ولا يغضب، ولا يفقد أعصابه، ولا يؤذي وإن تطاول عليه أحد ألا يرد له التطاول، وإن فعل فيكون السؤال المعتاد: ملتزم ويفعل كذا؟ علينا أن نلتزم بصورة الملائكة، وإن لم نفعل، فنحن

قطعًا منافقون نسيء للإسلام، لكن الذي يكذب ويغضب ويسرق ويتحرش ويزني، ويتطاول على غيره ويقرعهم على تصرفاتهم، وينتظر لهم أي خطأ ويقبل المهانة والسخرية من كل ما يخص دينه، ويقضي حياته كلها في إرضاء رغباته وتحقيق أحلامه الفردية بعيدًا عن رضا الله، هو خير مثال للدين، لأنك لا تعرف مافي قلبه! ربما كان مافي القلب حب من طرف واحد! أو حب صامت لا يترجم إلى أفعال! ملعون مثل هذا القلب وملعون صاحبه!

الإرهابي المتخلف الرجعي لا يمثل الدين، لكن الذي لا يعرف دينه هو الذي يمثله خير تمثيل بأخلاقه وبقلبه البريء الشفاف! لو كان الدين دين قلب وأخلاق فقط، فلماذا أنزل الله علينا عباداته، ووضحها لنا في كل جانب من جوانب الحياة؟ مجرد تعذيب لنا مثلا؟ أم زينة نضعها في الكتب؟ لماذا تارك الصلاة كافر إذن؟ لماذا لم ينظر إلى قلبه المؤمن البريء المحب لله دون تنفيذ العبادات؟ لأن صلاح القلب في العبادة، ولأن حب الله يترجم فقط إلى طاعة، ولو كان التطبيق لا يناسب هذا المجتمع، فلماذا جعل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخر الأنبياء؟ لماذا لم يرسل لنا رسولًا يناسب عصر التكنولوجيا والانفتاح؟ وكأن ما منعنا عن التحضر هو الإسلام!

لا يهمني إن كانوا لا يريدون تطبيق دينهم في حياتهم، فأنا أريد تطبيقه، لكن ما لا أستطيع فهمه هو إن كانوا لا يستطيعون تطبيقه، فلماذا يصورونه في عقولنا على أنه عار وتخلف؟ لأنهم عاجزون؟ أمثالهم مثل الطالب الفاشل، الذي لا يستطيع أن يحرز أي نقاط في امتحانه، فبات عمره كله يلعن التعليم، ويقلل من أهميته في حياة الفرد! فهم لا يرون من الدين سوى تقييد للحريات، لأنهم ببساطة جهلاء به وبالمعنى الحقيقي للحرية!

إن كانوا هم حقًا خير مثال للحرية والانفتاح، أم أنهم أكثر من أساؤوا لمعنى كلمة حرية طبعا بجانب الدين، فمفهوم الحرية عندهم أن تفعل ما تريد من المنكرات دون أن يخرج لك أحد، ليصفَّ ما تفعله بأنه ليس من الإسلام، مع أنه يمكن لأي شخص أن يتهم ملتزمًا أن ما يفعله منافٍ للإسلام، وإن كان ذنبك في الخفاء، فأنت تدعو لمجتمع له وجهان، ولك حياة سوداء في الخفاء تمارس فيها المعاصي كما تريد، ثم تخرج علينا بالنهار بالنصائح!

يسمون التبجح والجهر بالسوء تناسق مع النفس! فإن سترني الله بمعاصيّ لا بد وأن آخذ موافقة العباد ورضاهم وأسير متفاخرًا بما فعلت من معاصٍ، حتى أكون في نظرهم رجلًا متسقًا مع نفسي!

يريدون مجتمعًا لا يخجل باسم الحرية؟ أي حرية تلك؟

إن المفهوم الحقيقي للحرية، هو أن أكون حرا في تبني الصواب في كل أفعالي، وألا تضايقني في المجتمع مظاهر السفور والمعاصي، فمن يريد أن يعصي فله كل الحرية في بيته، ليس عليَّ أن أحمل ذنبه على كتفيِّ، فأنا مؤمن أني إن رأيت منكرًا عليّ تغييره، إن لم يكن بيدي فبلساني، أو أضعف الإيمان بقلبي كما في حديث رسولي. لا وجود لكلمة لا دخل لك في الإسلام، لأننا فيه أسرة واحدة كبيرة. لا استطيع أن أرى ابني أو أخي أو أختي يرتكب خطأ في حق نفسه ولا أنصحه. كذلك كل سائر في الشارع، كذلك كل مسلم أعرفه أو لا أعرفه، هو أحد أفراد أسرتي الذي يعنيني صلاحه ويفسدني فساده!

مفهوم الحرية الضيق الأقرب للعبثية الذي يؤمن به بدر وأمثاله يحسب حساب الفرد منفصلًا عن مجتمعه، بل إن كل تفكير وشعارات المنادين بالحرية تتحدث بكل أنانية عن الفرد وحده لا علاقة له بالآخر، وبالتالي بالمجتمع ككل، فإن إحترق من في المجتمع وسلم، هو فهذه

هي الحرية. لذلك فلو أنهم استعملوا عقولهم لثوانٍ، لأدركوا أن مفهوم الإسلام للحرية أشمل وأقوى يخاطب المستقبل البعيد لا القريب، لأن الحرية الحقيقية أن أفكر فيما يمكن أن تعود به تصرفاتي على غيري، لأن غيري هم أهلي وهم مجتمعي.

وإسلامي دعاني إلى الاهتمام بهم كما الاهتمام بنفسي، فصار المجتمع أهم من الفرد، وكل فرد يحسب حساب الآخر، ليس بالطريقة المقززة التي يصورونه بها، وإنما بهدف الإصلاح، فكل فرد الآن يعمل لنفسه ولنجاحه الشخصي والإسلام يأمرني أن أعمل لنجاح المجتمع ككل، لأنه سيعيش فيه أولادي يومًا ما وأولاد غيري، وكل من أراد سوءًا بنفسه، فله كل الحرية في بيته، فحسابه وقتها يكون عند ربه، إنما في مكان عام، فهو مكان عام ليس له وحده، بل لي وله ولا يجوز أن يفعل فيه ما يضايقني، ثم يطلب مني ألا أتدخل!

إن تعرت امرأة وسارت بالشارع تجدها تتبجح بكل بساطة أن من حريتها أن تفعل وإن لم يعجبك لا تنظر! ثم تشتكي في نفس التو واللحظة من التحرش وتصف الرجال بالحيوانات! وكأن الرجل عليه أن يسير في الشارع أعمى وأصم، وفي نفس الوقت أن يصير آليا حتى لا يتأثر لو رآها بالخطأ! وإن تأثر صار حيوانًا ذئبًا بشريًا متوحشًا لا يعرف كيف يحكم غرائزه، وتجدها في الجملة التالية تصف متباكية سلبية الرجال من حولها في محاولة مساعدتها، أو إنقاذها من هذا وذاك! سبحان الله، ألستِ الداعية الأولى لعدم التدخل؟

إن كان عليّ كرجل أن أتدخل لأحميكِ وأمنع أذاه عنك، فعليّ أيضًا أن أمنع أذاكِ عنه، وإن كنت سأفقأ له عينيه، فعلى أقل تقدير سألبسك ما لا يضيره، وما يأمر به الإسلام الذي ارتضيته دينًا لكِ! فقبل أن تذكر المرأة أن غضّ البصر من واجبات الرجل في الدين، فعليها أن تتذكر

أيضًا الشطر الذي يناقش واجبها في الاحتشام، فهي معادلة من طرفين لا يمكن لطرف فيها أن يتمسك بحريته على حساب الطرف الآخر. فلو كان من حقها أن تتعرى، فهو أيضا من حقه أن ينظر ويتحرش!

حتى قراءتي للقرآن في المواصلات ولو حتى بصوت مسموع صار إزعاجًا للمواطنين، بينما أصوات الأغاني الخارجة من كل وسيلة مواصلة شيء لا بد منه! يتذمر الناس من صوت الشيخ الفلاني في الجامع الفلاني، وهو يقرأ أو وهو يؤذن، ولكنهم لا يفتحون أفواهم في أقل اعتراض على متجر أو كافيه قريب وهو يخرج أعذب الأغاني والألحان الشعبية في أهم أوقات الراحة! لا يمكن طبعا لأنه شيء منافٍ للحرية، لكن الاعتراض والسخرية من أي مظهر من مظاهر الدين شيء يمجّد الحرية، ويجعلها تزدهر!

لكن هذه هي الحرية بالمفهوم الجديد، أؤذيك وليس من حقك أن تتأذى! ولو اعترضت فأنت تتجنى على حريتي وتجبرني على دينك!

يكاد يصيبني شخص مثل بدر بالغثيان، وهو يتبجح بأني أفرض ديني على غيري وأصنف الناس بالدين بتطرف، مع أن كلمة تطرف في حد ذاتها تصنيف! لماذا لا يسميهم مؤمنين بفكر دينهم كلاما وتطبيقًا مثلما هو يؤمن بأي نظرية فكرية يطبقها في حياته وأخلاقه، ويتمنى تطبيقها سياسيا في وطنه؟

لكن الدين وحده من يحمل وصمة التطرف إن أردنا له صورة على أرض الواقع! كلما تعمقت في ديني كلما اندهشت كيف انقلبت الآية، وانقلب حال المجتمع، فصار الذي يحاول بكل ما يستطيع أن يلتزم بقواعد دينه شخصا إرهابيا منافقا ما إن يصدر عنه أي خطأ، وصار الذي لا يحترم دينه وهويته يسمي نفسه متفتحا، فتحول عدم إيقاف المخطئ إلى تشجيعه على الخطأ، فصار الذي يفعل أي خطأ باسم الحرية

هو المتبجح السعيد في مجتمعه، والذي يريد أن يعيش في سلام بعيدًا عن الخطأ والشهوات هو الذي يجب أن ينزوي ويحس أنه منبوذ! كيف انقلبت الموازين بهذا الشكل؟

شيء ما جعلهم يظنون أن الإلتزام شيء مثالي يقلب البشر ملاكًا، وإن لم يفعل يكون دينا غير قابل للتطبيق!

المصريون الباقون في ليبيا يرتحلون وكأنهم عائدون إلى فردوسهم، الذي أضاعوه، يمكنهم أن يبيعوا أي شيء ليعودوا، أي شيء حتى أنفسهم! يطالعونني بألف سؤال يصاغ في جملة واحدة، لماذا لم تعد معنا؟ وفي نظراتهم استنكار لإصابتي، وكأن الإصابة في مكان غير الوطن هدر للصحة! كأنه هدف بعد الصفارة!

لماذا أعود ولمن وإلى أين؟ لماذا عادوا هم؟ ما الذي اختلف في ظروف المعيشة قبل وبعد الثورة؟

ربما المشكلة فينا حين نظن أن الخلاص سيأتينا سهلا من خارج نطاق تعبنا الشخصي، أو ربما هناك أمل بأن الأموال المنهوبة ستعود وتوزع كالغنائم على الشعب فردا فردا، لكن التاريخ علمني أن ما نُهب من البلاد لا يعود! قد يرحل طغاة ويأتي طغاة، لكنَّ شيئا من المسلوب لا يعود، ليس المال فقط، بل كل جوانب الحياة نفسها.

هل عادوا ليسلموا بالأمر الواقع ظانين أنهم في أمان؟ لا أعرف شيئا عن هذا الأمان. الجرح الظاهر في رأسي سيأتي يوم ويلتئم، ولن أجد له أثرًا، ولكن ماذا عن جرح روحي؟ ما الذي يمكن أن يجعله يلتئم؟ أرجع لوطن بَصَقني؟ فيه لِحيتي تهمة وصلاتي مظاهر كاذبة، والتزامي إرهاب محتمل، ولن يثبت أبدا العكس! من المفترض أن بلدي وطن عربي مسلم، لكن لا يضطهد فيه إلا العربي المسلم، فكل مظاهر العربي المسلم تخلف لا يناسب العصر الذي نحن فيه، علينا أن ننفتح ونواكب العصر، علينا

أن نتخلى عن هويتنا وكل ما نحن عليه لنكون مناسبين لمقاس التحضر في أعين غيرنا! صارت معرفتنا بديننا مزايدة ومظاهر ونفاقا، ثم ظهر دين جديد فجأة، وهو دين القلب والتخلي عن كل مظاهر الإسلام من عبادات، ثم صارت الدعوة ألا نجبر أحدًا على معرفة دينه، فتحول الدين شيئا فشيئا من هوية وطريق نسير فيه إلى دين «لايت» حتى لا يصيبك بتخمة! موضوع في متحف تشاهده من بعيد، وتلتقط لك صورة تذكارية بجانبه، لكن لا تؤمن به ولا تعتنقه ولا تنفذه في حياتك، ولا تحترق حتى لنصرته ولا تشعر من الأساس أنه يناسبك أو يناسب حالك، لأنه شيء رجعي كل ما فيه كان لعصر قديم وانقضى!

انحدر إيمان الفرد بدينه ومعرفته لكل جوانبه من أولويات الحياة إلى لمن استطاع إليه سبيلا، ثم إلى نفاق ومظاهر، ثم إلى عار وتخلف، وصل إلى قاع رغبات الدنيا، ثم بدأ جهلاء يشككون به وبمن يعتنقونه، داعين الى التخلص من التخلف والماضي! جعلوه غير مناسب للتطبيق على عقول لا تعرفه من الأصل لتفهم كيف يُطبَّق! مجرد مسوخ وقفوا على حافة الهويات، لا هم شرق ولاهم غرب، يلتزمون بشرقيتهم فيما يناسبهم، ويصيروا غربيين إن أرادوا تبرير أخطاءهم!

إنه لمن الصعب، بل من المستحيل ـ في المجتمع المسلم ـ أن تصير مسلما، لأنك ستلقي سخرية تثنيك عن فعل أي شيء، وهل كنت أتلقى من التزامي بالصلاة في أوقاتها سوى سخرية الغير وضيقهم بي؟! لحيتي صارت في نظرهم عناكب تعشش في وجهي، وقلة نظافة وقلة ترتيب، وصار معيار النظافة حلق اللحية!

لكن من يترك شعره مشعثًا على هيئة نصف كرة مثل قنفذ صار متبعًا للموضة! كنت أظن أني سأنعم بأي معنًى من معاني الحرية بوصولي إلى ليبيا، لكني وجدت نفسي أحد المقملين بلحاهم كما وصفني القذافي،

ووصف كل ملتزم في خطاباته على الهواء مباشرةً! رحلت إلى بلد فيه مئات الأسر، فقدت شبابها لنفس السبب، فوجدت العالم الإسلامي سجنا كبيرا للإسلام ترتع فيه كل أصناف الأفكار وأنصاف الحلول، ويبقى وحده المنهج الصحيح الوحيد سجينا! لم يكن من السهل عليّ تقبل مثل تلك الحقيقة فور حضوري، ولم يكن بدر عونًا لي في ذلك، لكن باهي ووالده خليفة كانا خيرَ عون لي في ديني وغربتي، أسرة من الضائعين كنا، نلتمس الدفء في فراغات كل منا!

اصطحبني باهي إلى كل شوارع بنغازي ومناطقها، وصبر على تعليمي كل أسرارها، وهي المدينة الأقرب إلى الأسكندرية بروحها وملامح شواطئها، فاصطحبني إلى وسط البلد بما فيه من المباني الحكومية العتيقة والوزارات ـ أو ما يسمونه باللجان الشعبية ـ التي صارت رمادًا الآن! كنت مرتاحًا، لأن كورنيش بنغازي يشبه إلى حد كبير كورنيش الإسكندرية الذي تركته خلفي. أخذني إلى حي الصابري الذي يحمل بين طياته أطول ساحل لبنغازي! سرت في شوارعه أتأمل مبانيه الصغيرة، التي لا ترتفع عن ثلاثة طوابق، والتي تحمل اللونين الأحمر والأصفر الباهت، وأنا أشم رائحة الذكريات، ولففت على دكاكين حميد والسوق والعام وشارع درناوي، كذلك حي سيدي حسين الذي وجدت به حديقة ضخمة تحمل اسم ٢٣ يوليو! تلك الحديقة التي تنعم فيها الخضرة بألوان تحيي العين، ومقاعد بين الشجيرات تكفي عمرا من التأمل، اندهشت للتقاطع المستمرّ بين تاريخ مصر وليبيا، وأدركت معنى كلام بدر حين وصف ليبيا بأنها ومصر واحد، فهناك شارع جمال عبد الناصر وشارع ١٠، وشارع ٧ أكتوبر، ومنطقة الفويهات، وحي السلام، وحي الدولار، والليثي، وبنينا.

لو سرتَ في شوارع تلك المناطق وحواريها، ونظرت إلى الألوان

والمباني المتقابلة المتقاربة، وتمعنتَ في ملامح الناس لأدركتَ أنك في مكان ما في مصر وكأنك فقدت الذاكرة، وتعرف تلك الأماكن وسِرت فيها من قبلُ! كل شيء في ليبيا بدا وكأني كنت أحمله في مكان مخبأ في ذاكرتي! كلما اقتربت أكثر من ملامح بنغازي شعرت أنها توأم الإسكندرية، وشعرت أني قط ما رحلت عن مصر. لكن لأن الشعب الليبي شعب هادئ الأعصاب، كنت متيقنًا أنه لا سبيل لتشابه ليبيا ومصر حتى في تعمق الفساد، وبالتالي اندلاع الثورة!

عاد بدر كالعاصفة وقطع علي ذكرياتي، وعلى الحاج خليفة استرساله. تلك كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي من الغضب، لم أعلم كيف أتفاعل مع شعوره، وهو يهذي بهذا الشكل! فَهِم باهي من كلامه أن هناك العديد من التسجيلات التي ينشرها رجال القذافي بمنتهى الوقاحة لأناس يُقتلون ويعذبون، ويُنكل بهم في مناطق عديدة مختلفة يعمل نبوس وزهير والشباب على تحديد أماكنها!

آلاف الجثث مصورة بتباهٍ، وهي ملقاة في الصحراء، تُصوَّر وفي خلفيتها أحذية قاتليها! كنت أعلم أن البريقة سقطت في أيدي رجال القذافي، وأن أجدابيا وجميع القرى من حولها في حالة حرب، وأننا المدينة التالية، ولكني ما توقعت أن رجال القذافي بمثل هذه الوحشية التي تجعلهم يتبجحون حتى دون أن يخافوا منظمات حقوق الإنسان وردّ فعل دول العالم بعد أن صار لنا مجلسا وطنيا معترفا به من عدة دول، وبعد أن صارت هناك حرب وشيكة قد يتدخل فيها الغرب.

أسكتنا بكاءه الغاضب بتحركنا. ارتحلنا جميعًا إلى منطقة شككنا أن الفيديو الذي رأيناه يشير إليها. بقينا لساعات ندور في الصحراء حول القرى التي تقبع حول أجدابيا ومعنا ما يكفي من السلاح إذا ما اضطررنا للاشتباك مع رجال القذافي. غاصت أحذيتنا في الرمال والرياح تشوي

وجوهنا نشم رائحة متعفنة، ونحن نبحث ولا نعلم حقيقة ما نبحث عنه، هل كنا نبحث عن أحياء أم عن موتى، عن حقيقة أم فضيحة، حتى سمعت صرخة مكتومة من باهي على يميني، رأيته يكاد يغمى عليه جالسًا على الأرض وقد تعثر في جثة! جثة غطت الرمال أجزاء منها، لكن لون الدم كان يحيط بأطرافها الظاهرة! التففنا جميعا حوله ورأينا طريقًا من الجثث النصف مُغطَّاة يشير إلى القرية، جثث رجال ونساء وأطفال مقذوفين بعشوائية تبلد الدم على جلودهم وملابسهم!

نساء عاريات منتهكات جعلت همسات الرحمة والأدعية تخرج من أفواهنا عنوة! هل كنا نرى حقا حين كنا ننظر إليهم؟ شعرت أني فقدت وعيي وسِرت منوما، وكأن عليّ أن أسير خلفهم، سحبتني قدماي إلى شوارع القرية الغارقة في صمت الموتى، أبواب البيوت الصغيرة مفتوحة وأنصاف أجساد خارجة منها رؤوس مشقوقة وأطراف لا جسد لها، وأعضاء ممزقة! صمت مطبق وأنين واحد واضح وحقيقي يكاد يشدني إلى مكان ما، أنين كالجنون يخيفني ويغريني! كنت أسير أبحث عن مصدره حتى توقفت عندما صار الأنين يبدو لي كأنه خارج مني! إنه يأتيني من داخل هذا المنزل، دخلت بيتا بسيطا صغيرا كان أثاثه مهشمًا، ورأيت امرأة عجوزًا على الأرض مُغتصبة ومقتولة في الصالة! لا يزال الأنين مفرطًا في صخبه اقتربت أكثر، إنه قادم من المطبخ! كانت هناك امرأة تمتطي جثة رجل مشوّه الوجه تغطي الدماء وجهه كله، والدماء تسيل كخيط من وجهه حتى وجهها، بعد دقائق أدركت أن ما شوَّه وجهه هو أسنانها! أخافتني وهي امرأة هزيلة حتى بدأ جسدي بالارتجاف! رفعت رأسها ببطء وتطلعتْ إليّ بوجه لا يفكر، ثم صمّت آذاني بصراخها حتى رأيتها تتحرك بسرعة البرق لتمزقني!

«إن المدافع التي تصطف على الحدود، في الصحارى
لا تطلق النيران.. إلا حين تستدير للوراء.
إن الرصاصة التي ندفع فيها.. ثمن الكسرة والدواء:
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا.. إذا رفعنا صوتنا جهارًا
تقتلنا، وتقتل الصغارا!»

أمل دنقل

بدر الأورفلي

قذارة، إني غارق في القذارة، أشعر أني متسخ ولا يكفيني ماء العالم لأتطهر! كيف يمكن أن أتطهر من ظلم؟ لا يكفيني ملايين الليترات من دماء القتلة الفجرة أستحم فيها متشفيا حتى أهدأ! قتلوا عُزَّلا من قبلُ، فكيف سيتورعون عن قتل من يدافع عن عرضه وأرضه وبيته ونسائه وشرفه، وحتى فكره بأبشع وأقذر الطرق الممكنة؟ هل هذا الذي يظن نفسه حاكمنا إنسان؟ هل أمرهم بقتل كل من يعارضه، أم أمرهم بأن يعلموهم أن ما سمعوا عنه وشاهدوه من ظلم وقهر، لا يُعدُّ شيئًا مقابل ما سيتعرضون له؟ هل ما يحدث لليبيين مجرد أوامر من القذافي؟ كيف يأمرهم؟ أريد أن أسمعه ينطق مثل هذا الأمر.

سيقول مثلًا: لا تقتله قبل أن تغتصب امرأته أمامه وتذله وتجعله يُقبّل حذاءك طلبا للرحمة، ويكفر بدينه ليؤمن بك وحدك!

إذن، هل يسألون عن تهمة الضحية قبل ذبحها؟ أم أنه لا مجال للتفكير في التهم؟

وحده نوع الولاء يكفي لجعل حياتك بلا ثمن!

فَقَدَ صديقي حياته مع ضحكة من أحد المجانين، وفقدت أمه ابنها

الوحيد، وزوجته رجل حياتها، وابنته أباها، هكذا في لحظة مع ضحكة مصحوبة بطلقة وسلاح مغبر بالكره والسلطة، هكذا في ثانية تُزهق أرواح الليبيين على أرض ليبيا من ليبيين آخرين يحملون نفس الدم، نفس الاسم! ليسوا وحدهم المرتزقة، وليسوا وحدهم الليبيون، كلهم منومون تحت وطأة القوة، هي وحدها القوة التي ستحسم عمر الظلم، لا مجال لمظاهرات سلمية وتسامح وصدور عارية، لا مجال للمخاطبة بصوت العقل مع من لا عقل لهم! قتل عمد بلا ذنب ولا قصاص! لن ينهي هذه المهزلة إلا أن نعتدي عليهم بمثل ما اعتدوا علينا!

كل ثانية فيديو جديد! إنهم يستفزون رجولتنا، ويسحقون إنسانيتنا! يُقتل الرجل بعد أن ينهار جهازه العصبي باكيًا مع صراخ امرأته التي فشل في حمايتها، وهي تغتصب أمامه تستنجد به، وهي تعلم أنه لن يقدر على حمايتها! تستنجد على أي حال، ويصرخ على أي حال، ويموتان في كل الأحوال! وقذرٌ ينشر مثل هذا العهر ليخبرنا أننا التالون، أننا الملامون، لأننا لم ننحنِ، لم نعطه قفانا ليكون مَداسا له! لو أننا ما بدأنا ننظم صفوفنا، لو أن المجلس الوطني لم يطالب الشباب بالانضمام للجيش النظامي الجديد، لو أن كل هذا لم يحدث ولم أجدني أملك طريقة، لجعل هؤلاء يندمون، ربما كنت قد متُّ قبل كلمة النهاية.

أحمل سلاحي وأسير في صحراء وطني أبحث عن جثث! لا كنوز ولا مال، ولا أمان، أبحث عن أموات، عن شهداء، أبحث عن بقايا صراخ في فيديو مسجل، عن بقايا خزي وعار، أواريه في التراب! أقسى رحلات البحث على الإطلاق المرة الأولى التي أحمل فيها السلاح! لم يكن هناك من وقت لأتدرب على كيفية استعماله، ولكني أدرك أن مدى جنوني وغضبي سيجعلني أفك شفرة استعماله دون تدريب، في لحظة ستقع عيناي فيها على كلب من كلاب القذافي! العربات تمتلئ بالشباب الواجم، نسير في

الصحراء خلفنا الأمان وأمامنا سجادة موت من أجساد ليبية!

إن كان الموت هو أكبر حدث في حياة الإنسان، فلم يحدث قبل أن نتمكن من استيعابه؟

ولم يبكينا إن كان يحررنا؟

لا، إن ما يبكيني الآن ليس موتهم، وإنما تلك الطريقة التي ماتوا بها، وصرخات الفزع والذل التي كانت آخر ما خرج من أفواههم! كلهم ذويينا وكلهم يعنونا جميعا، لكن الشباب كانوا يعزوني وكأني فقدت أسرتي بينهم..

العزاء! الفعل الوحيد المتقن ها هنا في ليبيا، نعزي أنفسنا فينا، وتعزينا أنفسنا فينا أيضا، نعزي بعضنا في بعضنا، والأسلحة منتصبة ما بيننا يقشعر جلدها للبكاء الصامت الواهن من الرجال! رجال يبكون كالنساء في ظلم ألغى الفروقات بينهم! لم نر شيئا بعد ونبكي بهذا الشكل، فماذا إذا رأينا؟

ننبش في رمال الصحراء كما حددنا الموقع من الفيديوهات. التقطتْ أنفي رائحة غريبة، غريبة في مكانها في مثل هذا المكان المقفر، شممت ريحا طيبة، وكأنها رائحة مسك! ظننت لوهلة أن أحد الشباب ركب معنا متعطرا، لكن الريح كانت تأتينا من الأرض! شعرت أني أهلوس خصوصا أن الجميع بدأ يشكو من رائحة عفن أجساد حولنا!

كانت صرخة باهي هي ما نبهتنا إلى مأدبة الموت التي أكلت كل من في القرية المجاورة! كل الشباب الذين حاولوا حماية قريتهم قُتلوا ومُثِّلَتْ بجثثهم في الصحراء على حدود القرية وحتى الجبال المجاورة، وبقي أهل القرية فيها جاثون على خوفهم مقتولون ذلًا دون أدنى دفاع عن النفس! جثث الشباب رُميت منذ أيام في العراء حتى دثرتها الريح بالرمال، بقيت بعض أجزائها تشي بأنها كانت هنا.

ظللنا طوال ساعات نكنس التراب عن الوجوه الباكية والباسمة، الفزعة والمرتاحة، نُغلق العيون، ونجمع الأطراف التي نظنها لجسد واحد!

هل كنا بشرًا لنقدر على فعل كل هذا دون أن يصيبنا أي نوع من أنواع الانهيار العصبي؟ شباب ـ في مثل عمري وأصغر ـ ريحهم طيب أقسم أن ريحهم كان طيبًا والدود يخرج من أجسادهم، أصابع كثيرة كانت مقطوعة وملقاة على الأرض تعذر علينا معرفة أصحابها، لأن القتلة الكلاب أرادوا الخواتم المعلقة بها، سلبوهم حتى خواتم ارتباطهم، ولم يملكوا من الوقت ليحرروها من الأصابع، فاكتفوا بقطع الأصبع المشبوكة فيه!

بقيت أحفر وأحفر، لا أدري كم قبرا حفرت وكم وجها دفنت، وكم رجلا ودّعت، وكم دمعة ذرفت! كنا نبكي وننتحب وندعو وندفن ونحمل الجثث وننزلها إلى الحفر! انقسمنا لمجموعات، مجموعات تكتشف الجثث، ومجموعات تصورها، لنعرف هويتهم ونخبر ذويهم ـ هذا إن وجدنا ذويهم أصلًا على قيد الحياة ـ ومجموعة تحفر القبور، ومجموعة تحمل الجثث وتدفنها، ومجموعة تعيد الرمال على الأجساد لتواريها!

اصطففنا خلفهم نصلي باكين، لم أسمع صوت الإمام، لم تكن الصلاة سوى نواحٍ، ولم يكن وقوفنا المهتز سوى خذلان! سقط الكثيرون منا على رُكبهم لا يقدرون على رفع أجسادهم لمواصلة الصلاة من فرط الألم! كانت تلك مواجهتي الأولى والحقيقية مع الموت، وطعنة الألم الأولى والقاسية لصدري، ورغبة تغريني بأن أدفن نفسي بجوارهم أفضل لي من أن أتحمل مثل هذا الألم!

سِرنا إلى شوارع القرية نحمل المزيد والمزيد من الجثث، قررنا دفنها في الشوارع غير الممهدة، ووارينا أجساد النساء المغتصبة بملاءات الأسرّة،

حملت الرضع، الفاقدين لحياتهم برصاصة في الجبهة الصغيرة مقاسها أصلًا مقاس رصاصة، أو رصاصة في صدره اخترقت جسد الأم التي تكورت عليه؛ حمايةً له! مما تحمينه أيتها الأم؟ اتركيه يموت فهذا أكرم له!

جمعنا عشرات الرُضَّع في أكياس لدفنهم، وقد فقدنا الرغبة في السؤال عن السبب الذي يدفع أي شيء أو أي شخص لقتلهم! لو سُئلت الرصاصة وهي خارجة لرفضت أن تدنس الموت في جسد رضيع لم يعرف أصلًا الحياة بعد!

صرخ عبد الله، وجعلنا نفيق من غيبوبة الدفن! لم أنتبه أساسًا لاختفائه، ركضت نحو المكان الذي ينبعث منه الصراخ، قفزت فوق جثة المرأة العجوز التي تسدّ الممر نحو المطبخ، وجدتُ رجلًا في منتصف المطبخ، لم أر شيئا من ملامحه سوى عينيه الجاحظتين اللتين فُقئت منهما العين اليسرى، وقد تجرد نصفُه الأسفل من ثيابه!

انتقلت عيناي إلى يسار الباب. كانت هناك، شبح امرأة بدت خارجة من رواية رعب، بشعرها الأسود الطويل المشعث، وملامح وجهها الهيكلية المفزعة، وهي تجاهد لتمزيق عبد الله بيديها، وأسنانها تصدر أصواتا مثل وحش انفلت منه زمام غضبه!

لم أفهم سر هجومها على عبد الله، لكنها بدت صغيرة الحجم على أن تثير مثل كل تلك الجلبة، وكل هذه الجراح في جسده وهو لم يستطع أو ـ على الأرجح ـ لم يحاول مقاومتها على الإطلاق، فنظامه العصبي قد شلته المفاجأة! وقفت خلفها تماما، ولففت ذراعيِّ حول خصرها، ثم رفعتها من فوقه. كانت ملابسه قد تمزقت. لفَّتْ ذراعها لتغرز أظافرها في وجهي، لكنها لم تفلح! كان صراخها فادحًا، ولم يكن هناك من شيء يمكن أن يهدئها! حاول عبد الله أن يقول لها كلاما كثيرا، يشرح لها أننا من الثوّار، وأنها حية، وأن الخطر قد زال. يحاول تارة أخرى أن يهدئها

بالآيات والأدعية، لكنها ظلت كالوحش الهائج ترفس بقدميها ويديها!

لحسن حظي كان جسدي أضخم من أن تتمكن من فك نفسها منه. رفعتها معانقًا وخرجت بها خارج المطبخ، فوقعت عيناها على العجوز التي كانت ولا بد أمها. توقفت حركاتها وشعرتُ بارتعاشها بين ذراعيِّ، تحول صراخها إلى نحيب وهي تمدُّ يدها إلى أمها. أنزلتها برفق، فجثت على وجه أمها وشعرها الأسود غطى الاثنتين. لم يجرؤ أحدنا على النطق. وحده عبد الله ظلَّ يدعو للأم بالرحمة ويطلب من الله لها الجنة.

لم يبدُ على الفتاة أنها سمعت شيئا كما لم تقل شيئا، فقط ظلت تبكي وتضرب رأسها بكلتا كفيها! لاحظت أنهما مجروحتان. حاول بعضنا محادثتها، لكنها لم تجب ولم ترفع وجهها. حاولوا الاقتراب منها. أشار إليهم باهي لتغطيتها، فلم يلحظ أحد منا أن القماش الذي يستر جسدها قد مُزِّق تمامًا حتى أنا نفسي لم ألحظ ذلك وأنا أحاول إيقافها. ما إن اقترب باهي، ليضع عليها الغطاء حتى رفسته، وعاد صراخها وهياجها من جديد!

حاول البقية التحدث معها وتهدئتها. بدت لي كمن يبحث عن موت ليهدأ، كمن يتمنى رصاصة! لم نعرف نحن الرجال كيف نتصرف حيال غضبها الذي أعماها وأصمَّها عن التفريق. وجدتني أتحمل صفعاتها وخرباشتها وأنا أطلب إليها أن تهدأ. تطلعت إلى وجهي ووتيرة صفعاتها تبطئ، فقط عينها اليمنى نظرت إليّ تكتشفني.

لم أعد أسمع صراخها، رأيت صورتي فيها، وألمي وحنقي رأيته في عينيها!

عانقتها، أخذت أعتصرها بين ذراعيِّ وهي ـ ويا للغرابة! ـ قد هدأت، ثم أفاقت، ثم بكت! حاول عبد الله نصحي لكني دفعته، دفعت بكل القواعد وكل النصائح جانبًا، أدركت أن عناقي عنى لها أمانًا ظننْت

أنه لن يعود. بقيت أهمس لها وشفتي تتحرك على أذنها، لم أكن أدري حقًا ما أقوله لها، ولكني شعرت أنها بحاجة إلى همسي، إلى صوتي، إلى ذراعيِّ!

حملتها، وتركت لهم بقية مأساة الدفن! أجلستها في ركن العربة. رفضت في البداية تخليصي من ذراعيها، ثم تباعدت عني شيئًا فشيئًا حتى تكوَّرت على نفسها، تكتشف العار الذي لحق بها وبجسدها. غطَّت نفسها أكثر، وغاصت بوجهها بين ركبتيها. للحظة شعرت أني أتطلع إلى ليبيا نفسها، حالها من حال هذه الفتاة، والدم المتجمع تحت أظافرها يرمز للمقاومة! بدت كلوحة مشينة لكن ـ للأسف ـ معبرة عن الحقيقة! شعرت في لحظة جنونية أني أريد هذه الفتاة، أريدها لي! حين اقتربتُ وأردت الحديث، سمعت الرشَّاش!

بقايا بعض الكتائب كانت تحوم حول القرية، لعلها تجد ما تبقى من الفتات، لكنهم لم يتركوا شيئًا في هذه القرية إلا وسلبوه، سلبوا الأرواح والشرف وخلفّوا وراءهم القرف، حتى ما تلبسه الجثث من حُلي تم نهبه! سمعت صوت المدافع، قُصفت البيوت في منتصف القرية التى صارت ـ من بعيد ـ مثقوبة بثقب يخرج منه الدخان ورائحة اللحم البشري المشوي! لم تصرخ الفتاة ولم تتحرك! بَدَا لي أنها لم تسمع الضجة المدوية للمدفع، بل إنها لم تهتز حتى! قلت لها أن تبقى مكانها، وغطيتها كُلِّيًا بالقماش البني الذي يشبه لون العربة.

جريت إلى الشباب وأصوات الرشَّاش تأتي من كل مكان. احتميت بأحد الجدران مع البقية، وأنا أحاول أن أستبين من أين يأتي الرصاص! بَدَا لي أنه يأتينا من كل اتجاه. بعض رجال الكتائب استوطنوا البيوت المأهولة بالجثث! هل كانوا ينتظروننا؟ طلقات المدافع تركض فوقنا وتستقر في الأرض، فتهزها وكأننا في زلزال!

أصرخ بالأغبياء الذين لا يدركون أن صحراء ليبيا مملوءة بألغام

مدفونة منذ الحرب العالمية الثانية، فنحن ـ حرفيًا ـ نسير على حقل ألغام! تصمُّ أذني الانفجارات، يخرج باهي من مخبئه ويطلق قذيفة عليهم! باهي يقاتل بشجاعة من اختبر الموت وصار صديقًا له، يتمنى زيارته! باهي الذي ما تبقى له شيء، يقاتل من أجل شيء، شيء واحد يبقى!

أماتونا وأذلونا وشوهونا، ونحن نموت الآن ليس لنستعيد شيئا، بل لأن المقاومة في حد ذاتها صارت هدفًا! تكتل الشباب وظلوا يصرخون ويطلقون الرصاص، فتراجع رجال القذافي عن القرية. كانوا يتراجعون لإحضار المزيد. كانت فرصتنا الذهبية، لنرجع، لنهرب بغنيمة جسد واحد لا يزال حيًا!

امتنع بعض الشباب عن اللحاق بنا، لأن مهمتنا لم تنته، فلم ندفن كل الجثث بعد، ولا يصحّ أن نتركها تتعفن في العراء، لكن البقية أدركوا أننا إن بقينا أكثر فستتعفن نحن إلى جانبهم! رجعنا لمزيد من الإمدادات، فنحن ـ شئنا أم أبينا ـ مجموعة غير مدربة، علينا أن نترك مهمة الاشتباك مع العدو للجنود المنشقين! ركبنا بسرعة، وسلكنا الطرق غير الممهدة، حتى لا يقتفوا أثارنا. أجدابيا تشتعل خلفنا، وامرأة واحدة أخرجناها!

لم تتبق عائلات كثيرة في بنغازي بعد أن سقطتْ البريقة في يدي القذافي، وبعد ما رحل الشباب والكتائب المنشقة للاشتباك على أجدابيا. كنا نحن خلفهم ندرك أننا التالون، رحل كل من رحل، واختبأ كل من اختبأ، وهُجرت الشوارع وأُبيدت الكلمات والأصوات! دخلت المدينة طور الحرب، حاول نبوس تخفيف الحمل علينا بتعريفنا بالأخبار، فرنسا تعترف بالمجلس الوطني، حلف الناتو يتحرك ليجعل دفة المعركة لصالحنا، العالم كله يتحدث عن ليبيا وجرائم انتهاك الحيوانية وليس الإنسانية فقط فيها، يتحدثون ويتفرجون، والعرب ـ كما هم ـ جرب!

كلٌّ يدسّ فمه في الطبق الذي أمامه، لا يفكر بأن من بجانبه يُذبح!

قُطع طريق وصول الأسلحة إلينا من مصر، فكتائب القذافي تريد حربا غير متكافئة، تريد دهس السيوف الخشبية تحت الدبابات! سرت في جنازة علي حسن الجابر مصور «الجزيرة» الذي قُتل، لأنه نقل الحقيقة! كان نبوس وعبد الله ومعتز وباهي معي، يهتفون معي، وقد قالها نبوس هامسًا:

ـ سأموت نفس ميتته دون شك!

استغفر عبد الله ودعا له بأن يحفظه الله، وقد أوشكت زوجه على أن تلد طفلهم الأول. أتطلع إلى وجوه مَنْ بالجنازة وأحسد كل نائم على سريره في أي بقعة من بقاع العالم! أبكي وأحسده على الراحة التي ينعم بها! حسدي يصيب مصر، فأجد أخبارها تُبَشِّر بعسكر يريدون التهام كعكة السلطة كاملة، فَضُّ اعتصامات التحرير بالقوة وبالعصي الكهربائية، واتهام نساء التحرير في شرفهم وكشوف العذرية!

أضحك وسط بكائي، لا شيء أقل خبثًا، ليس فينا من هو أقل جُرما، من حمل السلاح وقتل، ومن قتل بالسياسة، لا عذر لأحد! هذه هي الجيوش العربية، جيوش سلطة لا حماية، جيوش جشع لا شرف، وسلاح يصوب لصدر الشعب لا لصدر العدو!

أأهرب إليك يا شهد أم تهربين إليّ؟

أهو وطنك الأكثر اتساخًا بالفساد أم وطني؟

أحالة الحرب أم السلم المنتهك أفضل؟

أيُّنا ينام قرير العين، الذي يُقتل فينا على المكشوف؟ أم الذي يُنتهك فينا في الخفاء؟

أكاد أراكِ يا شهد تنحبين أملًا وحلمًا كان أكبر من أن تختزليه في مظاهرة وشعارات، داس عليه السلاح! أي منا وطنه أشد هلهلة، وأي

منا سيقدر أن يرى وطنه يوما ما ملتصقًا بعضه ببعض؟ كيف نرتق نحن الشعب المنتهك وطنًا ممزقًا بهذا الشكل، وطن ذابت فيه خيوط الانتماء، وما عاد يصلح لأي ترقيع؟ ندافع في الوطن عن حجر، ونضحي بالأرواح! ملعونٌ هذا الوطن لو كان ثمن أرضه أهم من ثمن روحي، فليفنَ ألف وطن لو كانت روحا واحدة هي الثمن، فلتعيشي يا شهد لو قدرتِ أن تتحملي مثل هذا العفن، ولكني لن أعيش، لا أريد أن أعيش، إما أن أطهر هذا الوطن بيدي من أوساخ القذافي، وإما أن تطهر حياتي بموتي!

من قبيل الفجر وحتى الغروب أدفن حسرتي في التدريب، كنا نتجمع في أحواش المدارس ونتلقى التدريب صامتين بطاعة من لا حول له! نركض ونتحرك بالأوامر ونتعلم فن الدفاع عن النفس والتصويب، نلوِّح بأسلحتنا القديمة التي جمعناها من استسلام بعض الفرق والكتائب. فقدنا العديد من الطيارين في محاولة الدفاع عن البريقة، وكثير من النازحين الهاربين من القصف من أجدابيا والبريقة جاؤوا يحتمون ببنغازي.

كلاشنكوف وصواريخ جراد وراجمات ودبابات وطائرات حربية ورشاشات، مقابل ما تبقى من أسلحتنا الهزيلة ورجالنا غير المدربين، والناتو يتحرك حركة السلحفاة ينتظرون أن يبيد بعضنا بعضا، أراد الكثيرون من الثوار الزحف غربا إلى طرابلس، التي لو سقطت لقُطِعتْ أذرع القذافي، لكن ثوار طرابلس أعلموا المجلس الانتقالي بقدرتهم على تحمل التبعات وحدهم.

جيش التحرير الوطني بات يتضخم، عشرات الآلاف، رجال وعجائز وشباب ومراهقون ويتامى، كل جسد يصلح للقتال جاء ليتدرب! كل ساعة كنت أغذي بالتدريب رغبتي في الانتقام، ما إن تلمس أصابعي السلاح حتى أشعر أني باقٍ لأقتل، لأنتقم، لأدفن، لأدعس الوسخ!

كلما بحت بما في داخلي لعبد الله، يذكرني أننا ندافع عن حقنا ولا نسعى للإفساد، يذكرني أن أخلص نية الجهاد لله، كل ليلة يذكرني بهذا الأمر، ولكنه لا يفهم أن الغضب في أعماقي يصل إلى عنان الصواب، يخترقه ويمعن في التدنيس، لدي رغبة قاتلة بالتدمير، فلا شيء سيريحني ويجلب السلام لنفسي أكثر من هذا!

كل ليلة كنت أصحو على صوت الصراخ في المنزل المجاور لنا، والذي بقيت فيه تلك الفتاة العازفة عن الحديث بالكلمات، والتي تشرع في الحديث فقط بالصراخ! جارتنا ـ الوحيدة التي بقيت ـ ضاقت بها ذرعا وبكوابيسها، تصحو بالنهار والليل، وتبكي بلا انقطاع وكأنها في غيبوبة حزن، حتى أنها لم تسمح للجارة بأن تقترب منها أو تلمسها! أرادت أن تنظف جسدها مما لحق بها من دماء وجروح ومخلفات من اغتصبها، لكنها رفضت أن تلمسها، ورفضت أن تخبر أحدا باسمها، ورفضت حتى أن تطلع بعينيها إلى وجه أحد!

كاد عبد الله أن يبول على نفسه حين علم أني أنا من حممتها، وأنها تقبلت تعليماتي وحدي دون غيري، لم يصدق أنها رفضت المرأة وتركتني أمسح من تحت ثيابها بالقماش المبلل، وأضمد جراحها، وأنها ما دخلت السرير لتستريح إلا حين دفعتها إليه! بدأ يستغفر ويحوقل وهو لا يفهم ما جرى بيننا، مثل تلك الأحاسيس لا تُشرح ولا تُفهم، بل تحدث، فقط تحدث، وحين تنظر إلى عينيِّ تتوقف عن الصراخ، ربما لأنها ترى روحا ممزقة محطمة متداعية مثل روحها! أنهض من سريري، وأنزل الدرج، ثم أصعد إلى منزل الجارة في البناية المجاورة، أجدها تنتظرني عند الباب المموارب. أدخل إلى غرفة الفتاة وأغلق الباب، ويتوقف الصراخ!

فعلتُ هذا لليالٍ كثيرة، أنام على الكرسي بجوار سريرها، فتسكت وتتوقف عن البكاء وتغرق في النوم، حتى أتركها للتدريب. لم تكن وحدها التي

تنعم بالسلام بوجودي، كانت تلك الفتاة تملك قدرة عجيبة على إسكات الغضب في أعماقي، إخراسه وتحجيمه وإحكام النسيان عليه! حضورها وحده يسكن عضلاتي، ويجعلني أنساب في نوم بلا أحلام، تغادرنا الكوابيس وتهرب، وتدعم خساراتنا بعضها البعض، وتُشكِّل الأكوام المنسحقة فينا قمة نحتمي خلفها، من كل شيء حتى أنفسنا! شعرت بأنفاسها الحارة ترتطم بأنفي، فتحت عينيِّ، لأجدها تقف قبالتي.

أمعنت في ملامحها التي تختفي في الظلام، والتي كنت قد حفظتها من كثرة تطلعي إليها، وجهها المستطيل وعينيها الواسعتين وأنفها الحاد وحواجبها الثقيلة، أحس بحزنها جليا في عينيها حتى وإن كنت لا أراهما!

وضعت يدي على وجهها، كان مبللا، أمسكت بجذعها وشددتها إلى أحضاني! ارتجفت وأذعنت. إنها مثلي، تفعل ما تحس، ليت شهد تدرك حلاوة التصرف كما يأمر القلب، ليتها تذوق طعم فعل شيء يلح علينا حتى وإن كان ضد كل ما نؤمن! كانت تتهدج وهي تختبئ بي! كم تمنيت يا شهد لو أنك مرة اختبأتِ بي، احتميتِ برجولتي، كم تمنيت يا شهد مليون مرة، مع كل ذرة هواء تلتقط فيها أنفي رائحة هذه الفتاة وشعرها، كم تمنيت لو أنها تتحول إليكِ، قلت لها لأنفضك عني، لأركز على بؤرة الوجع وأضغط:

ـ أعدك أني سأمزق جسد القذافي، وأضع كبده في فمي، سأمزِّق أحشاء ذلك الكلب وأجعل الأرض تُفترش بكل جزء منه.

تبكي وترتعش مؤمّنة على كلامي، فأكمل:

ـ لن يضيع شيء سدًى، مقتل أمك، ما حدث لك، لن أسكت على شيء، لو وصل بي الأمر لاغتصاب ذلك الكلب لأريحك، فسأفعل!

رفعتْ يدها وأنا أتحدث ووضعتها على شفتيِّ. توقفتُ عن الحديث، رفعتْ عينيها إليِّ، قلت لها بهمس:

ـ ما اسمك؟

لامست شفتيِّ وأنا أنطق، لم تكن تفعل هذا لإغرائي، كانت تحاول أن تفهم. لم تفهم! نهضتْ وأشعلتْ الضوء، وتطلعت إليّ، تستحثني على إعادة ما قلت:

ـ ما اسمك؟

نظرت إليّ للحظات، حاولت مرارًا أن أجعلها تتحدث، لكنها لم تنطق حرفًا منذ مجيئي بها، هذه المرة لم يطل عمر الصمت ووجدتها تقول بصوت متحشرج:

ـ نبأ

نهضت هاتفًا باسمها، فتطلعت إليّ، تأخرت عيناها بالتقاط حركة شفتيّ، فأشارت إليّ أن أعيد ماقلت. أدركت الحقيقة، إنها صماء!

«أيها الموت... عزيزي
لك شكري.. انتظر
إني سأدعوك إليَّ
قسمًا إني سأدعوك إليَّ
عندما أشعر يومًا
أني يا موت حي»

أحمد مطر

نبأ عبيدي

أتذكر أن للأصوات طعما وكيانا في أعماقي، أتذكر أن للأصوات قدرة على هزّ دواخلي وإرعاش روحي قبل فقداني لسمعي، على تعزيز الفرح وتفاقم الحزن! أتذكر أن لكل شعور في الكون يرادفه صوت فيّ، حتى حين فقدت سمعي وهدأت الأصوات بالتدريج من حولي، وافتقدت المعنى الحرفي للصخب! أدركت أن الأصوات ظل للإحساس، شكل من الأشكال الذي تتخذه الأمور لنفهمها، أدركت أني فقدت بُعدا هاما في معرفة الحياة بعد ذلك الحادث، ولكني بمرور السنوات، أدركت أن الكلمات ليست الوجه الوحيد للتعبير، وأن الصخب يأتي من النفس في أكثر اللحظات صمتًا، وقد يخفت وتغرق الروح في السكينة والهدوء في أكثر الأماكن صخبا، أدركت أن حضن أمي يحدثني بصوت قد لا أسمعه، لكني أحسه، وبقي حديثي ينبع من الذاكرة وكلماتي أنطقها بناء على ما أتذكر، أدركت أني لست الوحيدة الصمّاء في العالم، فهناك أنواع عديدة من الصمم، صمم القلب، صمم الروح، صمم يفتعله الإنسان ليحجم عن نفسه حقيقة قد تزلزله، أدركت أن الصمم الذي أصابني

هو أخف أنواع الصمم وطأة، وأن الله عوّضني بآذان عديدة في حواسي الأخرى!

لكن فقداني لأبي كان صممًا لا علاج له، ولاتعويض عنه، صمم لا أعرف فيه كيف أتذكر أبجدية الأبوة، فلقد مات أبي قبل أن أُسجِّل طعم عناقه، وخشونة صوته، وسكينة العيش في ظله! أمي ـ التي ما فارقت بيته والقرية بعد رحيله ـ اختارتْ الوفاء بما تبقَّى منه في أثاث وحوائط، على أن تعود لتسكن في الشارع الذي تربت فيه طوال عمرها في مدينة أجدابيا نفسها. أمي التي تركت أطلال جسدها تندثر تحت رمال النسيان، وحاجتها لرجل تحتمي به دفنتها تحت قدميِّ، وعاشت طوال سنوات عمري تدفع ثمن أنها اختارت أن تعيش نصفًا، لأنها أدركت أن النصف الثاني لا يُعَوّض! بقي الرجل كائنا مفقودا في أبجديتي، الرجل شيء لا يعوض، وشيء لا يعود!

عملتُ جنبًا إلى جنب مع البراءة، في حضانة صغيرة في أطراف القرية قيل لي إنها تصدر منها دائما أصوات لعب الأطفال وغنائهم، رائحة البسكويت المنبعثة من أصابع الأطفال الناعمة. كنت أغلق عينيِّ وأحاول تذكرها، لأغرق في أماني الخاص، العالم الكرتوني ـ الذي عشت فيه وسط ضحكاتهم ـ تكسّر. أتذكر كيف كنت أتطلع إليهم وأفك شفرة شفاههم، أتذكر كيف كانت الألوان تُزيِّن حياتي بوجوههم الصافية، وأوجه حبهم واهتمامهم البعيد كل البعد عن المجاملة والمصالح! عالم الأطفال الذي اجتاحني حتى ما عرفت كيف أعيش في عالم الكبار، لم تكن ساعات عمل، بل كانت ساعات الراحة أحبُّ أن أطيلها. لم أكن أحب السير خارج هذه الحضانة والاستماع إلى الناس في الشوارع وكلامهم المؤذي، كنت أسرع الخطى وكأن أحدًا يركض خلفي، وما إن أدخل المنزل حتى أبحث عن أمي، أبقى إلى جوارها، أحتمي بمنطقها الأنثوي البسيط في

الحياة، تلك كانت حياتي اليومية، لا رجال، لا فقدان، لا ألم، وكان الحب رفاهية لا أظنني أستحقها في ظل حياتي الرتيبة ومواصفاتي التي لا تجذب أحدا، فلم يطرق بابي رجلٌ قط!

رحلتي إلى أجدابيا ـ التي تأخذ يومين في الأسبوع ـ كانت تتوافق مع احتياجاتي واحتياجات المنزل. الشوارع الواسعة وكثرة البشر تفقدني توازني، والظهور الباهت للطبيعة يجعلني أقدر نعمة أن أعيش في قرية. أجدابيا كانت مكانًا يحمل الكثير مما لا أعرف، وقريتي الصغيرة كانت آمنة لي بما فيها مما أعرف! عاهتي علمتني الحذر والتروي في الخطوات، وتحليل ليس فقط ما تنطق به الشفاه، بل وما لا تنطق به، وماينطق به الوجه ولغة حركات الشخص الذي يتكلم! الصوت يخدع فهو مسطح، يسهل السيطرة عليه، ويسهل التلاعب بما سيُعلَن به! وحدها الحقيقة تخاصم الصوت حين تُعلن، خاصة في مملكة القذافي! في عُرف ليبيا خاصته الاعتراض مصحوبا بالصوت جريمة أبشع من القتل والنهب، كلمة حق أشد قذارة من أربعين سنة من الفساد! في وطني أدرك نعمة أن أكون صمَّاء، وأدرك أن جميع مَن يشفق عليَّ يتمنى الآن لو أنه كان أصمّ مثلي!

فحتى بعد إنقاذ مدن الشرق من قبضة القذافي، كنا نسمع للظلم صوتٌ من تحت أقدامنا، دبيب كره القذافي كان يصل إلى آذاننا وإلى قلوبنا، كنا ندرك أنه لن يترك شبرًا في الأرض ـ التي اعتبرها أرضه ـ خلفه إلا وقد دمره، وكأن الأرض التي حكمها حين خرجت عن إطار ملكه باتت خارج حدود رحمته! وما عاد أهلها بشرا يستحقون الحياة، بل يجب إبادتهم، ويعلن بتعالٍ ـ للاتحاد الأوروبي بعد فرض العقوبات على نظامه، ومنع سفره ـ بأن شعبه مستعد للموت في سبيله! وحتى بعد هروب ما يقرب المليون إلى أي منفذ في حدود ليبيا مع أي دولة، حتى بعد

أن أُطلق لقب نازحين على الكثير من أصحاب الأرض، لا يزال المعمر يظن أن ما لا يُنطق لن يُسمع، لا يزال يعيش في عالمه الأصمّ، وولاء مرتزقته الأبكم!

من أول مارس وقصف كتائب القذافي وطائرته على أجدابيا، لم ينقطع، لكن القوات المنشقة مع الثوار كانت له بالمرصاد، وكنا نسمع كل يوم عن انتصارات تريح قلوبنا. كان الهجوم عند البوابة الشرقية من المدينة فكانت قريتنا بعيدة عن بؤرة النار، على مدار أسبوعين استمر القصف، وصار ميناء أجدابيا أيضًا محلًا لقوات القذافي، لتزيد حصارها على المدينة. عرفتُ بأن المؤن قد تضاءلت في قريتنا، وصرنا نأكل بقلة حتى نعرف النتيجة النهاية للمعركة، فتارة يعلن الثوار سيطرتهم على المدينة، وتارة يُحكِم رجال القذافي حصارهم على المدينة ودكهم لها.

حتى أتى ذاك اليوم الذي رأيت فيه نهار أجدابيا صار ليلًا بسواد الدخان فيها! كنت أنظر من أول الطريق فأشاهد سقوط القذائف ـ التي تقارب حجم جسد الإنسان ـ على رأس منزل يحوي أناسا مثلي ومثله! كانت القذائف تهز الأرض من تحتي ولا أسمع زئيرها، ولكني كنت ألتقط نحيب الأمهات واليتامى، كنت أيضًا أتعرف على نحيب الرجال! إني أشعر بالبكاء من على بعد ملايين الأميال، لا أتقيد فيه بحواسي، لأني ولدت في مهد الحزن وتغذيت من دموع وحدة أمي، وانكسار نقصها، وتعلمت في المدارس أن القذافي هو الرب، وأن رأسه أقرب الشواهق إلى سماء الله!

كنت أرى رحمة الله تتلقفني في طائر يخالف طبيعة البقاء لديه، ليقف بجانب حذائي يداعب بمنقاره حبات التراب حين أصاب بنوبة أسًى، أو أرى في رحمة الله التخفيف عني بطفل يحضنني وأنا جالسة وحدي أفكر فيما أنا فيه فقيرة في حياتي، إشارات الله كانت تصلني كأنه يقول أعلم

ما تحسين، وإني معكِ. شكواي إلى الله لم تحتج مني لصوت، ووصول إشاراته لي لم تحتج إلى سمعي، أظن أني نطقتها بصوت عالٍ حين رأيت مدينة أجدابيا من بعيد تغرق تحت أنقاض القصف، وامتدت الصحراء بيننا بعشرات من الجراد الأسود، كنت أظنه في عالمي الكرتوني مجرد جراد، ماكانت سوى دبابات!

رأيت الأفواه مفتوحة بالصراخ والجميع يركض بدون هدف! كان الهدف هو الرحيل، الهروب، الخلاص، كأن الإنسانية كانت تتساقط أشلاء أمام عيني وتقترب مني حد دهسي، والشباب يركض نحو الموت وكأنه غنيمة! ليس فقط من في يده الرشَّاش يركض نحو الدبابة بل ومن في يديه فقط حذاؤه، لا يستطيع أن يقذف الدبابة بما يدمرها، فيقذفها بما يعزّ كبرياءه، يتفحم من جراء طلقاتها، أكاد أجزم أنه يتفحم مبتسما! صار الدخان ستارا يفصل جوانب القرية عن بعضها. وجدتني أتوه في الضباب الأسود! رجعت إلى الوراء، إلى منزلي، دفعت الباب وتعثرت في ذعري، احتميت في حضن أمي كالأطفال، كانت ترتجف أكثر مني، ولكن غريزة الحماية جعلتها تحيطني بجسدها، محتمية بالجدار! لم تكن الجدران ساترا عن الموت، فالقذائف كانت تدكُّ الجدران والرصاص يدكُّ الأرواح، لم أكن أسمع صوته وأنا أركض ولكني كنت أحس به حولي، راكضا في الهواء، يكاد يصطدم بي، لولا عناية ربي!

كانت ارتعاشات أمي تتناغم مع أصوات لا التقطها في الخارج، لكني كنت أدرك مدى قبحها، كانت تبكي وأقرأ الحسبنة على شفتيها، وتختبئ بي تحت طاولة في أقصى جوانب الصالة، مرت الساعات وخفت هزة الأرض من تحت أطرافي. دخل الدخان إلى منزلنا على الرغم من إغلاقنا لكل النوافذ والأبواب. كانت أمي تسعل وتختنق! تمنيت لو أنها تتنفس ما في رئتيّ، تمنيت لو أهديها لحظة حماية، تمنيت من كل أعماقي يومها لو أني

كنت رجلا، لو أني جريت مع من جرى، واحتميتُ من عار الحياة بشرف الموت تحت عجلات دبابات الظلم!

لا أدري كم مضت من الساعات وأنا أنتظر ألا أنتظر، أشمُّ عرق أمي ممزوج بخوفها، زحف الجوع إلينا ونحن ننكس رأسينا أسفل الأثاث. أقنعت أمي أني سأختطف بعض الخبز من المطبخ وأعود به إلى مخبأنا. حاولت إثنائي كثيرا، ولكني كنت أحس أن الخطر قد انتهى. تجرأتُ على النهوض وتسحبت إلى المطبخ وكأن البيت ليس بيتي! كنت أخرج الخبز من الكيس حين لمحت حركة خلف زجاج نافذة المطبخ. تطلعت بطرف رأسي لأرى الجيران، زوج جارتنا كان يقبل يد جندي، رأيت شفتيه تهمس (الله ومعمر وبس)! اجتاحني المشهد الأخير لذاك الرجل قبل أن تخترق رأسه رصاصة تصمه! لم أسمع الجنود وهم يقتحمون المنزل، لم أسمع أمي وهي تستغيث، كنت منشغلة بمراقبة نهاية ذلك الرجل من النافذة وفي يدي رغيفا خبز. لم أرهما وهما يمزّقون ثيابها ويغتصبونها! لم أشعر إلا حين انتهت المجزرة التي كانت ضحيتها أمي فقط، رصاصة في شَرفها وأخرى في رأسها! بيتنا لم يكن فيه ما يُسرق سوى بضع دينارات وجسدي، لم أملك ثواني ليعمل عقلي حتى وجدت الأذرع تحيط بي والأصابع تتجنى على ما أملك مني!

كانت مقاومتي بلا معنًى أمام أربع رجال، وكان جسدي قد انتُهك وانتهى الأمر، وكان الألم فوق قدرتي على الشعور، وحدها صورة رأس أمي الظاهرة من باب المطبخ ما ألجم دهشتي، وألقاني في عالم بلا معالم من الفراغ! بعد أن قضوا وَطَرهم مني وانتهوا، رحلوا ما عدا واحد، رفض قتلي قبل أن يتلذذ بي مرة وثانية وعاشرة! رحلوا وتركوه خلفهم، وقد نسي من فرط اللذة أن ينتبه لمكان سلاحه، كان بصري معلقًا برأس أمي، لأول مرة أتمنى لو أني أسمع الأصوات، لأتأكد أن صمتها موت،

وليس صمما مني! كنت أريد أن أموت ألف مرة، لأراها تعيش، كنت أمها لحظتها، كنت أبكي بلا دموع، فقد فات أوان الدموع، وتفتت العالم البرئ الذي كنت أعيش فيه إلى لقيمات أسى! سحق الغضب كل ما كنت أعرف أو أؤمن.

لم يعد هناك شيء في العالم يمكن أن أخسره أكثر مما خسرت!

مما أخاف؟ من سلاح؟ طلقات؟ رجل؟ موت؟

كلهم سيان!

وقد صرت كما سُميت، نبأ، نبأ بالنهاية!

شعرت أن كل ما فيّ سلاح، أني لست عزلاء، أن كل خلية تتحول إلى شَوكة، كنت أتلذذ بنهشه بأسناني كالحيوان الضاري، نهشت عنقه وفتت عروقه، كما نهشني، كما نهش العالم الذي كنت فيه وجعله ماضيا خياليا لا وجود له! امتطيت لذته وجعلته تحتي، عضضتُ تلك العين التي كان يتطلع إليّ بها، شعرت بصراخه، وبدأت يداه تصفعني! لقد سقط، استمريت في عضه وقد شعرت أن أسناني تحولت إلى سكاكين حادة! لم أكن أشعر بشيء، فقط غضب خالص، كنت أعزف غضبي على جسده، كنت أرتاح كلما أمعنت في تمزيقه! لا أدري كم ساعة بقيت فوقه أقتله نهشا، ولا أدري كم يومًا مر عليَّ، دون أن أتحرك، كلما غفوت، رأيتني أمزقه، وكلما صحوت، نفذت ما حلمت، لم أكن أريد النهوض من فوقه ولا التطلع إلى الباب، كنت أعلم أني سأملك من الوقت ما يكفي لأطعن حزني في صميمه إذا ما رأيت أمي، كنت أظن أني لو لم أتطلع إليها، فستختفي حقيقة موتها، لم أكن أريد شيئا آخر سوى رصاصة!

جاءني رجل آخر وقطع خلوتي بالموت، فاجأني وجوده، فلم أشعر باقترابه قط، وجدته على مقربة أصبع مني، قلت في نفسي لن أكون ضحية أحد، من الآن وصاعدا سأكون الجاني، لا أذكر شيئًا سوى أن

ذراعين فقط أحاطتا بي ولجمتني، شعرت أن عضلات جسدي قد شُلت وأُنهكت، شعرت أن من قيدني في صدره أكبر مرتين مني! لم أر وجهه، ولكنه جعلني أرى وجهها، وجه أمي، والدم يسيل كخصل على وجهها!

لماذا لم أمت معها؟ لماذا لم أسمعها؟ لماذا لم أنقذها؟

سكتت التساؤلات فجأة وذاك الرجل يعانقني، سكنت إلى رائحته، وتركت كل غضبي ينساب في حضنه. احتجته، شعرت لأول مرة بجوع الحاجة إلى رجل وهو يعانقني دون أن يلمسني كرجل! جوع يجلدني، حملني طويلًا، ما إن خلَّص نفسه مني، حتى تذكرت عاري، ففي حضنه فقط، نسيت ما لحق بي! حين عاد بي إلى بنغازي، تركني عند جارته، تركني، لم أتحمل تلك الفكرة، ببساطة كنت أشعر أن عاري سينقضي بلا رجعة إن التصقت به، أردته، أردت أن أعنيه، أريد أن أحتمي به! لم أكن أعرف كيف أنطقها، كيف أقول له: لا تتركني لأحد سواك، لا أمان إلاك!

أمسكت بكفه المبلل وهو يحاول مساعدتي على التطهر من كل ما أصابني، وبكيت، كنت أريد أن أنطق لكني عجزت، لم أتحمل أن يلمسني سواه، أو ينظفني سواه، وحده ما كان يستطيع أن ينظف ألمي بحق! رأيت شيئًا في عينيه، في نظرته، شيء لا يُحكى، بل شيء يستعبد، وقد صرت عبدة لصوت أنفاسه، لا تغادرني الكوابيس إلا حين يجلس حارسا على أعتاب نومي، اتنفس حقا حين ألتقط رائحة أنفاسه في هواء الغرفة، لم أعرف لم أحتجته، لأن الضياع متاهة؟ أم لأني في أقبح لحظة في حياتي، أُنقذت بذراعيه.

عرفت أن اسمه بدر، وأن اسمه الحقيقي يدر، أي يحيى باللغة الأمازيغية، أريد أن يحيى حتى ييأس الموت منه! عشقت اسمه! كان يتحدث بسرعة، يتطاير رذاذ الحنق من بين شفتيه وتبرز عروقه! كم

تمنيت لو أني التقطت مذاق صوته قبل أن ينتابني الصمم، أدركت أنه يسألني عن اسمي، أدركت أيضا المفاجأة في ملامحه حين علم بصممي، تلك الملامح التي أسكن حين أتطلع إليها، أنسى عيني متعلقة بعينيه، فأنسى التقاط حركة شفتيه، وأطلب منه أن يعيد الكلام مرارا. اقتربت منه حتى هربت المسافة، وضعت أصابعي على وجهه، جاهدت لأنطق، وضوء الصباح قد اقتحم علينا خلوتنا، لم أعلم إن كانت حنجرتي تصدر أصواتا حقًا أم أني أتوهم! قلتها ببطء يناسب احتياجي:

ـ لا تتركني..

قال كلاما كثيرا، لم أستطع التركيز، نظرت إلى عينيه بتوسل:

ـ لا تتركني هنا وحدي، خذني عندك، لا أستطيع البقاء هنا.

مسح بيديه أجفاني، وساوَى رموشي، التوت عيناه إلى اليسار بحسرة، حسرة حب، كانت هناك، في الركن القصي للذكرى، ظلها كان هناك، امرأة أخرى، أحسست بها، تراجعت، تغطيت، آلاف من طبقات الأغطية، فوقي فوقي فوقي، أريد أن أُدفن أن أختفي، فهي هناك، بداخله، وأنا هنا خارجه، وحدي!

أمضيت زمنًا لم أحدده تحت الأغطية في ظلام اليأس، حتى جاءني بدر من جديد، كان معه زائر هذه المرة، شاب أبيض وأصلع يبدو ثريًا، تحدث إليَّ ببطء لأقرأ شفتيه. أدركت أنه يريد تصوير حلقة عما حصل معي، وأن أحكي فيها كل شيء، بلا حرج! الحرب تلغي الحرج والخوف على السمعة، بل إنها تبخر كل ذرة أنوثة في أي امرأة! سألني إن كنت أستطيع أن أتحدث عن كل شيء، وإن كان سيسعفني صوتي ونطقي الواضح للكلمات، وإن كنت أستطيع أن أتحدث بالنيابة عن كل مغتصبة أخرسها الموت عن المطالبة بحقها! تطلعت إلى وجه بدر، فبادرني بإيماءة، قلت:

ـ لتصوِّر الآن.

اندهش من سرعة موافقتي، ثم علمت أن عليّ أن أذهب إلى مبنى المحكمة الذي تقبع فيه كل معدات قناة «ليبيا الحرة». كان بدر يعلم ما كنت سأطلبه، فلقد ركب معي وسار كظلي حتى وصلنا. جلست على كرسي بلاستيكي، وخلفي قماش بُني معلق وكأنه خلفية، قناة كاملة بُنيت بأقل المعدات، والكثير من الشباب والبنات يتحرك جيئةً وذهابا. جاءني شاب كنت قد رأيته من قبل، أسمر ونحيف. تذكرته. كان راكبا إلى جوار بدر. أخبرني أن اسمه باهي، وأنه كان معتقلا في بوسليم. حاول أن يعرّفني على نوعية الأسئلة التي ستُوجَّه لي. اقترب بدر وربت على كتفي وأخبرني أنه سيذهب للتدريب، وأن باهي سيقوم بإعادتي إلى المنزل، ثم اقترب بوجهه مني وقال:

ـ كوني قوية.

ترك لقلبي ابتسامة ورحل، لم أرتجف ولم أخف، ترك أثر بدر بعض الأمان الذي يكفي نهار اعترافي! كان باهي يتحدث ليقتل الوقت، ليقتل الحيرة، ليخفف حرجي! صمت قليلًا، لم يتطلع إلى وجهي ليكون كلامه واضحًا لي، نظر إلى ما بين قدميه، ثم قال:

ـ إنكِ تشبهينها!

ـ من هي؟

ارتجف، ربما لأنه لم يكن يريدني أن أفهم، ربما صارعته الكلمة طويلا حتى نطقها ليرتاح، بعض الكلمات نقولها دون أن نريد قولها حقا، أو أن يسمعها أحد! طال صمته حتى أيقنت أن الجملة ستوأد هنا، لكني بقيت متعلقة بوجهه لالتقط أي حركة لشفتيه، قال:

ـ ديمة

ـ ... ؟

ـ المرأة التي أُحبها.

أنزع عينيِّ عن شفتيه، أشعر بضيق حين ألتقط كلمة (أُحبها) لا أرغب بسماع المزيد، لا أرغب بمعرفة امرأة معشوقة أشبهها وأنا هنا وحيدة منبوذة! استرقت النظر إلى شفتيه من جديد، فالتقطت قوله:

ـ استطاعت الهرب إلى مصر وهذا ما يريح قلبي. لا تزال تتلقى علاجها هناك. هذا كل ما استطعت التوصل إليه.

ـ علا.... جها؟

ـ مصابة بالإيدز مثلي كما أخبرتك، في حادثة مستشفيات بنغازي في التسعينيات!

إذن، كانت واحدة من الأربعمائة طفل الذين تم حقنهم بالإيدز، وبقيت تلك الحادثة مبهمة حتى تلك اللحظة التي يحدثني فيها، فلقد أدين طبيب فلسطيني وخمس ممرضات بلغاريات كانوا يعملون بمستشفى الأطفال ببنغازي في محكمة صورية، بأنهم حقنوا ـ عمدًا ـ الأطفال بدماء ملوثة بفيروس نقص المناعة! مجرد أطفال كانوا يعانون من أمراض في جهازهم الهضمي وجدوا أنفسهم يحملون هذا المرض بعد تزويدهم بمحاليل، وهي إحدى المصائب في تاريخ القذافي التي صمم على التزام الصمت ناحيتها! مات الكثيرون من هؤلاء الأطفال، وبقي آخرون معزولين في مبنى بُنِي خصيصا لهم، لكنني لم أتخيل أني سأقابل أحد ضحاياه وجها لوجه! التقطتُ المزيد من كلماته وهو يقولها مبتسما:

ـ مقابلتها كانت الحكمة المرجوة من إصابتي، السر الوحيد الذي يجعلني أحب السم الساري في عروقي!

حدثني طويلا عنها، لا بد أنها صغيرة بالعمر، كلاهما حمل المرض في ظروف مختلفة، وكلاهما حمل شوقه فوق كتفه بعيدا عن الآخر! سرد لي كيف أشبهها في حركة عينيِّ، يا له من شيء بسيط وتافه ليذكره بها! كنت أريد أن أقول له إنه فقط يحاول أن يراها في كل ما حوله، يحاول أن يرى

أي تفصيلة صغيرة منها ليهدِّئَ من وطأة شوقه، هدأ قليلا، فوجدتني أقول:

ـ مَن هي خطيبة بدر؟

أجفل وتطلع إليّ قائلًا:

ـ بدر ليس له خطيبة!

ـ أعني المرأة التي يحب.

بدا عليه التردد، إني كنت محقة بوجودها إذن، أكملت:

ـ لقد أنقذني.

وألتفت حول نفسي، أدركَ محنتي المشابهة لمحنته، أكمل:

ـ إنها مصرية، اسمها شهد، كان يعرفها منذ الدراسة.

خفضتُ عينيِّ ولم أحاول معرفة البقية، أنقذني قدوم نبوس ومعتز، أخرجت كل هذه الفوضى من رأسي، وبدأت اقرأ الأسئلة من شفاه المتحدث، وفي نفس الوقت أتأكد منها من الورقة المعلقة فوقه والتي لا تظهر في التصوير. ساد صمت في الطابق الذي كنت فيه، الجميع كان يتظاهر بالتشاغل، وهو في الحقيقة ينصت لي، توقفوا جميعا وتجمدوا في أماكنهم مستمعين لأدق التفاصيل المحرجة، والتي ما ارتعشتُ حتى وأنا أسردها وما بكيت، تبلدت،

خسارتي حجّرتني!

تمايلت حنجرتي حين ذكرت أمي، ونساء القرية، الجارات وهن مرميات على الأرض عاريات مُغتصبات، الدماء السائلة من بين الأفخاد، الهاربين إلى ما فوق الجبال بعيدا عن القصف، الراحلين وما تبقى من آثارهم، المتطوعين من الثوار للمشاركة في دفع حصار أجدابيا، القادمين من كل أنحاء ليبيا للمشاركة، والذين تبقوا واختاروا الدفاع عن القرية وماتوا على رمال الصحراء جثثهم متناثرة حولها وكأنها سور،

سور جثث! حكيت وحكيت وأنا أعانقني بذراعيّ وأحاول طمأنة قلبي أن حرق الجرح سيفيد في دفع ألمه إلى الأبد، لم أتهاون في وصف أي تفصيلة وأنا أنظر معظم الوقت لعين الكاميرا، تضرجتْ وجوه الرجال من حولي وأنا أذكر تفاصيل اغتصابي، لكني لم ألتقط حتى أنفاسي! كلما تحدثت عن الفزع كلما تضاءل، كلما صفعته بصراحتي في وصفه كلما فقد ذراعا من الألم في أحشائي!

توقفت عند أحد المستشفيات في طريق عودتي، طاوعني باهي ودخلناها، كان يظن أني أريد أن التحق ببقية الفتيات وأعمل ممرضة لمعالجة الجرحى. كنت أتطلع إلى فداحة الجراح، اللحم المفسوخ والأعصاب العارية والعظام في منتهى الجرح، الصدور المشقوقة والأعضاء الناقصة، والدماء التي تزين البلاط في كل مكان! في كل بقعة مات شخص أو جُرح، العيون التي تنتظر اللاشيء، اليأس مخيم على المكان، مصحوب بالأنين والآهات! لا أريد أن أعالج أحدًا، إني من يحتاج للعلاج! كيف أعالج مرضا أعاني منه؟

جرح الفقد لا التئام له، جرح الظلم لا أمل في شفائه! كنت أريد أن أَجرح، ربما كان هذا ما أحببته في روح بدر، هذا ما رأيته في عينيه، سلاح لم يُطلق بعد، لو أني كنت رجلا لما استهجن أحد انضمامي إلى تدريب الشباب، والحرب على بنغازي وشيكة، ومصير أجدابيا لا يزال يتأرجح كل ساعة ما بين الثوار والكتائب! أريد أن أقاتل، لم تخلق كل النساء لتكون سكنا، لم أخلق لأكون رد فعل، خلقت لأكون فعل! بُحت بها فيّ لباهي، تطلع إليَّ بعدم تصديق ثم زفَّ إليّ الخبر:

ـ إن بدر يجهز لترحيلك إلى مصر، يريد التأكد من سلامتك، قال إنك مهمة لديه ولن يتحمل بقاءك هنا، سترحلين مع الفوج الأخير المتجه إلى مصر قبل أن تتعرض بنغازي للحرب.

ـ خذني إليه.

ـ ..... ؟!

ـ خذني إلى بدر الآن، أرجوك!

طاوع شوقي؛ لأنه يتمنى لو يطاوع شوقه أحد، أخذني كما طلبت إلى ساحة المدرسة التي صارت حقل تدريب، كان بدر جاثما على الأرض ومعه عشرات الرجال ببنادق الكلاشنكوف خلف ساتر زائف. ارتعشتْ يدي طالبة للسلاح، أجل، أني خلقت لأحمله، لأصوبه، لأقتل به، كما يفعل بدر الآن! توقفوا للاستراحة دقائق وبقيت متجمدة مكاني، رآني الملتحي الذي كان يتحدث مع بدر، فنبهه لوجودي. أتاني قلقًا وأخذني خلف أعمدة الفصول، لم يسألني بشفتيه وإنما بعينيه، تعلم لغتي، نطقتُ أخيرًا:

ـ لن أرحل.

تجهَّم وجهه وبدا على وشك محاولة إقناعي فقلت بغضب:

ـ لن أرحل من هنا، سأبقى وأقاتل معكم، دعني أتدرب معكم، لا تمنعني لأني امرأة، أنا ليبية، دعني أنتقم، أنت تحس بمشاعري، إني أراني فيك!

ـ نبأ، لا يمكن، أنتِ تحلمين!

ـ فقط جربني، الحرب وشيكة ونحن بحاجة لكل شخص، دعني أساعدك، أرجوك!

رفع رأسه بألم ونفاد صبر، سحَب نَفَسا عميقًا ثم أكمل:

ـ دعيني أحافظ عليكِ، دعيني أحميكِ، يجب أن تعيشي يا نبأ.

ـ أريد أن أعيش، معك، بدر.

وجدتني أشهق ببكاء كنت أظنه جف فيَّ منذ موت أمي، تحررت وقلت:

ـ أرجوك، دعني أحبك!

حيّ على الجهاد»
كنا وكانت خيمة تدور في المزاد
تدور ثم إنها تدور ثم إنها يبتاعها الكساد
حيّ على الجهاد
تفكيرنا مؤمم وصوتنا مباد
مرصوصة صفوفنا كل على انفراد
مشرعة نوافذ الفساد
مقفلة مخازن العتاد
والوضع في صالحنا والخير في ازدياد
حي على الجهاد
رمادنا من تحته رماد
أموالنا سنابل مودعة في مصرف الجراد
ونفطنا يجري على الحياد
والوضع في صالحنا فجاهدوا يا أيها العباد
رمادنا من تحته رماد
من تحته رماد
من تحته رماد»
حي على الجهاد

أحمد مطر

عبد الله محمد

لا تزال عضلاتي تتصلب كلما حملت سلاحا، أجفل كلما أطلقت الرصاص وكأنه يخرج من سلاحي ليستقر في جسدي، صوته صوت الموت، وطعمه مرّ في حلقي! أشعر أني أتعذب، أشعر بالإثم في كل مرة أعود فيها من التدريب! كلما تابعتُ وتخيلت للحظات أن الهدف الذي أحاول إصابته هو روح، بشر حيٌّ، أختنق، لكن ما إن أغمض عينيِّ، وأتذكر الأجساد المتفسخة التي دفنتها بنفس هاتين اليدين أدرك أن من يفعل فيها ذلك، ليس ببشر ولا يستحق التردد! صباحات هذا المارس الأسود التي أقضيها على طرقات الصحراء مع الشباب لأرشد العائلات الهاربة من البريقة وأجدابيا إلى بنغازي، كل الهاربين المصابين الذين تشردوا، لأن القذافي يحب لعبة الأبادة الجماعية وسيلة تطهير للوطن وهو جل اتساخه!

أدرك حينها أن ما أفعله هو الحق، أرى الحسرة والذل في عيونهم، أرى أجساد العجائز الذين فارقوا الحياة، لأن عمرهم كان أقصر من طريق الهرب، وقدرة أجسادهم على التحمل وحزنهم على بيوتهم التي قضوا عمرهم فيها كانت أكبر من أن يعيشوا ليتعايشوا معه، ومن تبقى

من أسرهم لا يقدر على دفن الجثة ولا التخلص منها، لا يريد دفنها في مكان غير معلوم في الصحراء، يحملها ويتحمل عفنها ورائحتها حتى يصل إلى بنغازي!

لم أكن قد اطلعت من قبل على طبيعة الاستقرار، وماهية البيت، لم يكن في حياتي مثل هذا المعنى، ولم أكن أستوعب تمسك الغير بمكان ولدوا فيه أو أرض حملت لهم ذكريات! كنت أفهم أن الحنين يعود للأشخاص، للقلوب والأرواح، لم أكن في مكان قد لمستني روحه من قبل، لم أتمسك ببيتي، لأني لم أحمل فيه ذكريات تجعلني أشتاقه، وقد تعلمت في حياتي أن الطعم الوحيد الذي احتاج اختباره ومعرفته جيدا هو الفقدان، وهو الذي سيساعدني على تخطِّي صعوبات الحياة بدون ألم!

تعلمت ألا أقترب بمسافة تجعلني أتألم، أبكي، أندم، القرب كما يريح يوجع، والسطحية كما هي باردة هي منقذة لو كانت منهج حياة! اللاحب اللاذكرى أكثر راحة من الحب والذكرى والحنين وكل تلك المشاعر التي تشبه الأشواك، أشواك تلازم الرحيق، فإن كان لا أشواك ولا رحيق، ولا بذرة لأي ضعف من الأساس، كان سلام الفراغ التام أقل ألما!

تعثّر أمامي شاب ملتحٍ نحيل، سقط وتغبرت لحيته وملابسه، نحيتُ بندقيتي ورفعت ذراعه على كتفي، نظر إليّ، كان يبكي، لم أجد كلمات أواسيه بها، كنت أريد حمله ولكن لم يكن باستطاعي ترك موقعي. كان خفيف الوزن، لكن روحه مثقلة بالكثير من الكلام، الحزن يترك فينا ما لا يقال، ثقل لا يخففه سوى البكاء!

أردت أن أقول له ابكِ أكثر، ولكني آثرت الصمت، لقد تركت بيتي بإرادتي، فلن أقدر على استيعاب معنًى أن يترك الإنسان بيته مُرغمًا، وأن تكون آخر صورة يراه فيها مُدمرا ويدوس على ترابه! كان الشاب يَهذي ويستغفر ويلهج لسانه بالدعاء لله، لم أكن بحاجة لتلقينه الدعاء، كان

يردد طلبه من الله أن يرفع عنا هذا الكرب، أعطيته بعض الماء، لم أعرف كيف أخفف عنه كربه، غير أن أدعو له، تمسك بثيابي بأصابعه وتشبث بي وكأني حائط أخير يتكئ عليه، قال لي باكيا:

ـ رأيت جثة ابنتي الوحيدة ـ التي لم تبلغ من عمرها أربع سنوات ـ رأيت ملامحها الباسمة وقد تصلبت، حاولت أن أغمض جفنيها، لكني لم أفلح! هؤلاء الوحوش! إنها مجرد طفلة لا تعرف كيف تنطق الكلام حتى بشكل صحيح! إنا لله وإنا إليه لراجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها.

ثم انهار باكيا لا يكاد يلتقط أنفاسه بين شهقة ألم وأخرى، لا حول ولا قوة إلا بالله! سألته بحذر:

ـ وزوجتك؟

ـ ماتت مع القصف، لم يبق لي أحد، لم يبق لي سوى ربي أشكو إليه حزني. بالله عليك يا أخي ادعُ لي، ادعُ الله أن يثبتني.

انحرفنا قليلا عن مسار الجميع، فالتقط ذراعه من على كتفي بعض السائرين وهم يدعون له ويطالبونه بالثبات. لم يتوقف عن البكاء، ولا الدعاء! فرقت عينيِّ بين وجوه الناس وأفواههم التي كانت تهمس بالدعاء، منهم من يهمس، ومنهم من يرفع صوته بنبرة الذل والاحتياج، والجميع يؤمن خلفه. أحسست بالحنين يجتاحني، شعرت بالألم يوخزني والخدر يفقدني قدرتي على التركيز!

اشتقت لهم، اشتقت لإخوتي في الله، إن كان هناك وطن أفتقده، فهو المسجد الذي كنت أقضي الليالي فيه، أستمتع بأحاديث الإخوة ومبارياتهم في المتشابهات من الآيات، وتسابقهم في معرفتهم بعلوم دينهم وفهمه الصحيح. أرى وجه بدر الساخر وهو يتطلع إلى ملامحي الساهمة، يعرف ما أفكر به، يلقي كلمة لذاك الملتحي وهو سائر، ويقول بضحكة ساخرة:

ـ جزاك الله خيرا يا شيخ!

وينظر إليّ متوقعا أن أهاجمه أو أرد عليه، لكني ما كنت هنا، كنت في أحد حقول الذكرى، أمي التي ماتت متحسرة، وجدي الذي عاش غاضبا وصامتا، ووالدي الذي تنصّل من مسؤوليته نحوي، وذاك المجتمع الذي نبذني، ولم يكن لي مكان فيه، ذاك المجتمع الذي يطالعني في وجه بدر الساخر، وعيناه التي تُتفه من أبسط أمور الدين التي أؤمن بها باسم الحرية، مع أنه لو نطق أمامه أي شخص بأي معطيات فكر آخر حتى لو كان ضليعًا في الغباء، لكان احترمه وأعطانا محاضرة في وجوب احترامه، واحترام ما يقول حتى لو كان مجرد ترهات! لكنه ينسى كل هذا في أي أمر يتعلق بالدين وهو مسلم!

أتذكر شعور العزلة الفكرية التي كنت أشعر بها في كل من حولي، أتذكر الغربة التي كنت أتلقاها في كل كلمة أقولها أو أستقبلها من أحد. كنت أحس أني لا يمكن أن أتكلم مع أحد إلا وقد يسخر مني، أو قد يؤذيني! لم أكن أجلس مع مجموعة من الشباب إلا وتفاخروا بالأفلام الإباحية التي يرونها، أو بالفتيات اللاتي أوقعوا بقلوبهن، أو يذكرون فلانا بالشر! لم يكن هناك من فرصة لاجتمع وأتكلم مع أحد دون أن يؤذيني بما أريد تجنبه، وبما أمرني ديني أن أتجنبه من النميمة والمعاصي.

كنت أضيق ذرعا بكل هذه المفاسد وهم لا يصدقون أن شابا في عمري لم يدخن قط، ولم يوقع قلب فتاة ولم يتحرش ولم يغازل، ولم يكن مهتما بمفاتن امرأة! كان مضحكا بالنسبة لهم ألا أتابع آخر حركات الموضة وآخر أخبار الفن والأغاني والأفلام! هذا هو الجهل في عيونهم وإن كانوا لا يفقهون شيئًا في دينهم، ولا يعرفون منه سوى ما تعطيه المدارس في مناهج كتب الدين غير المهمة أصلا في ذهن أي طالب، لأن الدين ـ حتى في المناهج ـ صار مجرد مادة عقيمة ثانوية، درجاته ليست ذات أهمية، ولا

تؤثر على المستقبل الدراسي، كما صار ثانويا في حياتنا.

تذكرت المسجد الذي كان بجوار الكلية، الذي تعرفت فيه على الشيخ خالد، تذكرت حبات التمر التي أصرّ أن أتذوقها حين كنت صائما، تذكرت بكاءه وهو يتلو آيات القرآن حين كان يصلي بنا، وجدتني في اليوم التالي أصحو قبل الفجر وأسلك الطريق الطويل إلى ذاك المسجد، لأستمتع بتلاوته، لأستمتع بدروسه، لأستمتع بصحبته. كنا قلة، مجموعة من الشباب المنبوذ الذي لا يجد مجتمعا ملائما ليعيش فيه دون أن يتأذى بمعاصي الآخر!

تذكرت ضحكنا ومزاحنا ونحن نفرد سيقاننا على سجاد المسجد، نسيت الأرق على أرضه بمجرد أن أضع رأسي وأسمع أصوات الشباب الخافتة بالقرآن، يخطؤون النطق في آية، ينسون القلقلة في أخرى، فيعيدونها! ابتسم وأشعر بالسلام، وأنام مرتاح، نعم كانت هذه الجماعة الجميلة من الشباب الملتزم هم أسرتي، هم وطني، هم بيتي هم أرضي، هم من أفتقدهم، هم من أحنُّ إلى صحبتهم، هم من أشعر أنهم مجتمعي الذي خرجت منه كما تخرج السمكة من الماء لتحاول التنفس على الرمال!

لم أكن أحمل على كاهلي أي ذنب بأحاديثهم، وما كنت أشعر معهم أني جاهل أو عبء، لم أشعر أني أستجدي منهم اهتماما أو حبا، كنت أحبهم بصدق وكنت أشبههم وهم يشبهوني، أفهمهم ويفهموني، وأخاف على كل واحد منهم بصدق، وأستمع إليهم ويستمعون إليّ. كنا نواسي بعضنا ونثبّت بعضنا، لو ضعفت نفسي لأدركت أنه بحديثي معهم سأعود لفطرتي السليمة..

كنا جميعا مجموعة تطمع في رضا الله، وتسير في الدنيا لنفس الغرض. كانوا ـ ببساطة ـ مجتمعي البديل، حتى الطعام إن تذوقته بصحبتهم، وجدت له طعما أحلى، أشعر أني بوجودي معهم لا ألوِّث بصري ولا

سمعي بأي معاصٍ، ولا أستمع إلى سخرية إن قلت كلمة مثل: جزاك الله خيرا، مع أني لا أقولها إلا لأتمنى لغيري الخير، فلا أرى فيها شيئا يدعو لكل هذه السخرية، ولا لتمسكي بها شيء قد يضايق أحدا!

تربيت على السكوت والخنوع في مجتمع فيه خلف كل لحية ألف مخبِر، وخلف كل تجمع ودرس دين إرهاب، لكن تجمعات الأحاديث التافهة لا تعنيهم في شيء وهي ليست مؤذية للمجتمع في شيء!

كان علينا أن ندرس الإسلام الذي كان أساسه ـ كدين ـ ألا أتحمل رؤية غيري يقع في خطأ دون أن أنبهه وأساعده، وأثبته على الخير كما يفعل إخوتي معي، وكان عليَّ أن أتعايش مع مجتمع يدعو للحرية في الخطأ والشهوات، ينهى عنها في اتباع القواعد والفطرة السليمة. كان عليّ أن أرقب إسلامي وهو يتحول إلى أفيون الشعوب، كما يتهمونه، وكما يريدونه أن يكون، مجرد عبادات أمارسها بعيدا عن التطبيق، وأن أعيش في هذا المجتمع منعزلا منغلقا على نفسي، لأني لو حاولت التفكير في كيفية إصلاحه بقواعد ديني، صرت أتعدى على الحرية الثمينة، وصرت أدعو إلى الإرهاب! فصار الدين ـ حقًا ـ عند الجميع مجرد أفيون، ومخدر يلجؤون إليه فقط وقت العبادات، ووقت الشدائد، ووقت المظاهر، يريدوننا أن نمتنع عن تطبيقه في الدولة، وفي الناس، وفي نفس الوقت يتهموننا أننا نأخذ منه المظاهر فقط!

ينتهكون حريتنا في أن نعيش في مجتمع يلائم إسلامنا، ويجرون وراءنا جارّين آلافًا من التهم إن فكرنا في إصلاح هذا المجتمع! لم أكن أستطيع تحمل كمّ التناقض الموجود في النفوس، كم جهل الناس بدينها الذي يجعلها تنتقي منه ما يناسبها وترمي منها ما لا يناسبها، بل تجادل فيه بغير علم الذين قضوا عمرهم كاملا يدرسونه ويتفقهون فيه، ويسخرون من كل من يريد اتباعه بحذافيره، وليس اتباع على درجة وترك درجة

كما يهوون! التقطت أذناي العديد من التهم الموجهة لي، مثل التطرف والتشدد، ثم يعود الذي يصفك بالمتطرف أن يطالبك بعدم التصنيف في الحديث عن أحد!

لم يخطر على باله أنه ربما كان منحلا لدرجة أن يرى الصحيح تطرفا أو تشددا، ومتى كان اتباع النظام والقواعد تطرفا؟ أم أن اتباعه في قواعد المرور وفي قوانين دستور الدولة تعني مواطنا جيدا، لكن اتباعه في فكر الإسلام وفي تنفيذ أوامر الله والانتهاء عما نهى عنه، تعني مواطنا متطرفا؟!

لست أفهم كيف للتقلبات والأهواء أن تقلب الحكم على أحد بهذه الطريقة! لست أفهم نقدهم وهجومهم لأي مثال من متبعي الإسلام، إن لم يجد أحد منهم مثالاً جيدا لمسلم حقيقي منا يزعمون، فعليه أن يكون هذا المثال لا أن ينتقد من يحاول! على الأقل يبذل المجهود ليكونه، لا أن يجلس على الطرف الآخر ينتظر منه هفوة ليبرر انتقاد قواعد الدين من خلال انتقاد ملتزميه! وهل لو أسأنا إلى الملتزمين من مجتمعنا، من الملتحين والمنتقبات، فنكون قد أسأنا لهم حقًا، أم أسأنا لأصول ديننا؟ ماذا يستفيد كل من يفعل هذا؟ أن يريح ضميره وهو يتبع هواه؟ أم يربت على كتف تقصيره بالتقليل من شأن من يجتهد في دينه؟

ما إن أصارح بدرا بهذا الكلام حتى ينفتح فاهه، ولا ينغلق، ليثبت لي حقيقة أني متخلف، وهو الأكثر مني تفتحا، لأن التمسك بالدين صار عنده انغلاقا وجهلا، وبقاءه مبهما، وحصره في العبادات هو قمة التفتح والعلم بالدين! ثم يتهمني بالتهرب من جداله!

كيف أجادله وهو يحتاج لزرع عقل جديد، وإيمان من جديد، وقلب من جديد، وروح من جديد! أسكت وأتركه يتباهى بمعرفته وعقله وتشككاته، وأتذكر قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

آذَانِهِمْ وَقْرا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

وأعود لعزلتي الفكرية في صمتي، وأبقى أخفف عني ألمي بذكرياتي مع شباب المسجد لا بيت لي ولا أسرة ولا هوية سوى في ضحكاتهم، والسكينة التي كنت أحسها بوجودي وسطهم، والتي انتهت بسبب اعتقال معظمهم، وإعدام بعضهم، وقضاء بعضهم معظم عمره في السجن ليُجبر على أن يخرج منه لاعنا دينه!

هؤلاء السائرون في الصحراء، الهاربون من الموت، الضحايا العزل الباكون، يدفعون دم الجهاد أن يجري في عروقي، وما ألذ طعم الجهاد حين يدفع الظلم ويرد الحق إلى صاحبه، وأتذكر حديث نبيّ وهو يحذر من ترك الجهاد، حتى لا يسلط الله علينا ذلًا لا ينزعه إلا برجوعنا إلى ديننا. هذا ما رأيته في حالي وحال الجميع، ذلًا لا رد له، كما في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(يوشك أن تتداعَى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قَصعتها، قالوا: أَوَمن قلة يا رسول الله؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : حب الدنيا وكراهية الموت).

ووحش الموت الذي يسوقه القذافي ورجاله نحو الآمنين، على الرغم من أني حاولت كثيرا مقاطعة معرفة الأخبار حتى لا يصيبني أرق لا يزول، إذ إني لو سمعت صرخة مظلوم تبقى تطاردني في يقظتي وأحلامي وكأني أنا من ظلمته! يبقى يهدد خلوتي بنفسي وقدرتي على تقبل الحياة، يوقظ شعوري بالذنب، لأني لم أفعل شيئا لمساعدته ونصرته، على الرغم من كل هذا التجاهل والانعزال الذي صرت ضليعا فيه، إلا أني أجلس

وسط النار، في فوهة الألم، لا أستوعب أني ما زلت حيا حتى الآن، حتى بعد شفاء جراحي!

كثير من الشباب الذي أكمل تدريبه رحل مباشرة ليكون بالخط الدفاعي الأول في البريقة، وآلاف منهم لم يعودوا ولم نعثر حتى على جثثهم! شباب تدربت معهم طويلا وتحدثت إليهم لساعات، لم يعد لهم وجود! كان الموت يأكل كل شيء حولي، لدرجة تجعلني أتمنى الزوال لأرتاح! قصف مستمر على مدار أيام المدينة، كيف يمكن أن أتخيل حياة أهلها؟

غارات كثيرة لا تفرق بين بيوت المدنيين ومواقع تخزين الأسلحة، دكوا المصانع والموانئ، وسقطت رأس لانوف، وصارت قاعدةً لرجال القذافي للزحف إلى البريقة وأجدابيا ومنها إلى بنغازي ـ حلم القذافي القديم ـ والذي صار لهزيمة المدينة فيه طعم آخر، بعد أن أعلن المجلس الوطني إدارة ليبيا الجديدة وشؤون المناطق المحررة منه من قلب بنغازي.

ما إن ينتصر الثوار في جهة وتعود المدينة لممارسة الحياة بشكل طبيعي، حتى تتكتل الغارات، فتسقط من جديد في أيدي رجال القذافي، وبلا قوانين، فلا قوانين حرب مع أمثال القذافي، ومرتزقته، وبائعي الذمم من الليبيين، حتى الشرق ـ الذي ضمناه ـ صار يتساقط، مدينة تلو الأخرى! حلقت الطائرات العسكرية وأطلقت قذائفها على المدنيين، وفقدنا الكثيرين من الطيارين المدربين! استهدف طيارو الثوّار الدبابات على الأرض واستطاعوا تدمير العشرات منها، بجانب الزحف البحري بالسفن العسكرية والجوي بالطائرات! رصاصة أمام قذيفة، سيف خشبي أمام مدفع، آلاف من الأبرياء مقابل جندي، هذه هي معادلة القوة، ومعادلة السلاح!

لنفاد الطائرات كانوا يكثفون الجهود لإصلاح الطائرات المعطلة

لتعاود القتال وهي نصف معطوبة! لا خيار أمام نسر جريح أن يقاتل حتى لو بجناح واحد! ما إن نعلم بسقوط بارجة من بوارج القذافي البحرية ـ التي تحاصر المدينة ـ حتى نكبّر لله، وندعو للشباب الصامد! ما بين صدمة المقاومة والفرار يحصد الثوار آلاف من آليات قوات القذافي ودباباتهم.

يضمد الجريح جرحه سطحيا ليعاود القتال في اليوم التالي! كل رأس تطير تقابلها ألف رأس تصرخ بالمقاومة! أيام متواصلة وعشرات الساعات من القتال والقصف الذي لا ينتهي! ها أنا ذا أنام في الصمت وغيري يغفل مرهقا على صوت القذائف، ويخرج من مخبئه، ليجد الشارع الذي يسكن فيه صار رمادا وترابا، والناس الذي كان يعرفهم صاروا أشلاء عليه جمعُها ودفنها، فلا يملك خيار الموت، ولا يستطيع الهرب والمدينة محاصرة من ثلاث جهات، جوا وبرا وبحرا!

صمَّم الثوار على عدم السماح لقوات القذافي بدخول المدينة حتى لو كانت قذائفه تلجها! هرب منهم الكثيرون، ولكن صمد البعض وصمم على عدم ترك المدينة. الصاروخ الموجه يُطلق من يد جبان ليصيب جسدا تحتمي به الجدران! ثلاث طائرات فقط هن اللاتي أخذهن رجالنا من الثوار كخط دفاعي جوي، بارك الله فيمن قادوهم، فكبَّدوا رجال القذافي العديد من الخسائر! من المضحك أن القذافي كان يتباكى في الإعلام لاعنا نية التدخل العسكري الأجنبي الذي قد يسفر عن آلاف من القتلى، وكأن العدد يهمه أو حتى الروح، حتى بعد مرور مئة ألف نازح فقط من الحدود الليبية التونسية خوفًا من أنياب القذافي!

سقطت البريقة في منتصف مارس، وصارت الدعوة صريحة لاغتيال القذافي، وحوصرت أجدابيا حتى نقص الغذاء فيها وكاد ينعدم، وهاجر سكانها إلى مدن الشرق الآمنة في يد الثوار، منها بنغازي. ها هم يسيرون

أمامي إلى بوابة المدينة، يعلمون أننا التالون لكنهم لا يملكون خيارا آخر. طريق الهرب طويل وطريق المواجهة أقصر، وهذا ما قررت أن أسير فيه منذ الآن. وصلت إلى نبوس أخبارٌ متباينة، فكلٌ يعلن سيطرته على المدينة من الكتائب والثوار، ولا أحد يعلم الحقيقة، لكن الخبر الذي كان أكيدا هو استيلاء الثوار على سبع دبابات، وأَسْر العديد من جنود القذافي. وسط قصف عنيف على بوابة مدينة أجدابيا الجنوبية، كنت أشعر بالأمل، وأمتلئ حماسة كلما سمعت خبرا كهذا!

الاستعداد للحرب ليس مثل خَوضها، وانتظار الموت ليس مثل أن تعيشه! أعلم هذا، ولكني أعلم أيضًا أننا إن استطعنا أن نقاوم بهذا القدر لنا الغلبة لو صبرنا، هذا طبعًا ما نسمعه عن المدن التي تجاورنا، ونحاول أن لا نسمع عما يحصل في مصراتة والزاوية وطرابلس حتى نستطيع التعامل مع كوارثنا!

كان نبوس يعلم أنه أول المستهدفين لو وصلت قوات القذافي إلى بنغازي! كان يشعر باقتراب نهايته! حكى لي أنه كان يودِّع زوجته حتى سئمت الوداع، وانتظر الموت حتى بات يتمناه! تركني لتساؤلاتي وأفكاري، كيف تتقبل هذه المرأة وداع رجل تعشقه وهو أمامها حي يرزق؟ كيف تتقبل أن تحب شخصا يطارده الموت في كل ثانية وتشعر معه بالأمان؟ وكيف تعود لحياتها أو حتى لسريرها لتنم؟ جاءني وجه شهد فجأة، جاءني همسها الباكي ألا أسافر، إن شيئا فيها يجعلها ترتسم داخل نفسي كالبوصلة، فكل سهم يعيدني إليها، وكل نقص في حياتي يرشدني إلى تذكرها والتفكير فيها، وهذا ما يسعدني أنها لا تعلمه!

بقدر ما أحتاجها بقدر ما أتألم لاحتياجها لي، تخيفني نظرتها إليّ وإيمانها الشديد بي، فلا أنا أعلم كيف أخلصها من حبي أو أخلصني من حبها، ولا أعلم كيف صرت أسمِّي مشاعري في الآونة الأخيرة حبا! ربما

تأثرت بالعلاقة التي تربط بدر بنبأ، ربما تأثرت بحكاية باهي، ربما أفتقد امتدادا لنفسي في نفس شخص آخر!

كنت أظن أني تخلصت من كل هذه الاحتياجات منذ زمن، كانت شهد تظن ذلك أيضا! أتذكر يوم هاجمها بدر، بسبب أنها ترفض الاختلاء به في مكان مغلق حين كان يعرض عليها أن يساعدها في دراستها، وقد وضحتْ له سابقًا قبولها لهذا معي فقط، لأنها تثق بأخلاقي. أتذكر تلك النرجسية التي أحاطت نفسي باعترافها ذاك، هل كانت أخلاقي ما جعلها تأتمني، أم مشاعرها نحوي؟

تركتني أصارع الزهو في نفسي وبين خطأ مفهومها، أني منزّه عن الخطأ! لا وسط في هذا المجتمع، فإما أن يعتبروا الملتزم ملاكًا وإما أن يعتبروه ذئبًا، ولأنها تحبني وتثق بي تناست أني بشر!

حين ركضت أمامي باكية، وسبقتني إلى أحد الممرات المغلقة الخفية وسط حارات الكلية، أدركت أنها لا تفهمني، لا تفهم رجولتي، لم أكن أفهم لم تبكي، وكنت أدرك أن امرأة برهافتها تحمل حساسية تفوق قدرتي على الاستيعاب. انتابني الجنون!

كنت أفكر فيها في اللحظة التي مرت فيها من أمامي، لحقتها، وقفتُ خلفها، على مسافة لم أكن أحلم أن أملك الجرأة لاقترابها! صار الجدار الذي يحاصرها مانعا لأي خيار لها بالهرب مني أو إليّ! طالعتني بعينيها الباكيتين، كادت تستنجد بي وتشتكي، لكنها رأت في عينيِّ ما جعلها ترتعش، تتراجع! سألتها في نفسي:

تظنين أني لا أشتهيكِ يا شهد؟

تظنين أني لست ببشر؟

تظنين أن التزامي قتل الغريزة بأعماقي؟

فالدين خلقه الله الذي خلقني، وخلق فيّ غرائزي، ووضع فيه من

القواعد التي تساعدني على تنظيم غرائزي ووضعها في نطاقها الصحيح.

إني ما أردت عناقك أكثر من تلك اللحظة، وما عصمني من هذا إلا الله. كنت أريد استباحتك بحق حبي، كنت أريد أن أرتشف منك قبل أن تكوني حلالًا لي باسم الحب، وكم من معاصٍ تُمتهن باسم الحب، وكم أتمناها كوني رجلا، ولكن كلام الله يَقيني ويوقظني. لا عليكِ أن تعتبريني ملاكًا وتعصميني!

عليكِ أن تتعلمي أحيانًا أن تخافيني، لتعينيني في حبك المؤلم! اقتربتُ منها حتى ما تبقى للأنفاس مساحة سوى لتتصادم! تهدَّج صدرها ورجعت خطوة للخلف. رأتني أخيرا، رأتني كرجل، أدركت مساحة الحيادية في مشاعرها نحو رجولتي. كانت اللحظة الوحيدة التي أفلت فيها الحب مني، وقادني. استعذت بالله في نفسي، أغلقت عينيِّ ونكست رأسي، تركت لها الوقت لتفيق، لتستوعب، ثم تنحيت جانبًا وقلت لها:

ـ لا تبكي! عودي إلى مبنى المحاضرات.. المحاضرة القادمة بعد دقائق.

انسلتْ من بين قلبي والحائط، توقفت تتطلع خلفها، لا يزال قلبها يجادلها في حقي، لا يزال الحب يَسوق لها الحجج لتفعل ما ينافي عِفتها لتنالني، لكن الموقف كان أكبر من أن تستسلم لشعورها، دفعها دفعا لترحل!

للأحلام نصيب من الذكرى، وأحاسيس تفوق ما نحس بواقعنا. عنقي الذي ضاق، كأني اختنق، أكان حلمًا أم حقيقة؟ رأيت شهد في حلمي لكثرة ما فكرت فيها هذه الأيام وأنا أتابع أخبار مصر، أتابع كيف يتجرع الثوار الآن سم ثورتهم، وكيف أن الميدان الذي جمع الناس تحت لوائه إنقاذًا للوطن، كيف يُفض الآن باسم استمرار الوطن، وكيف تُنتهك عذرية الفتيات، وتُنتهك حرية المواطنين والنشطاء، أيضا لأجل الوطن!

جاءتني في الحلم لأني أريد أن أراها، لأني أريد لعقلي وقلبي أن ينسياها، ويأبيا أن يستسلما. كانت تسير في إحدي حجرات الذكرى كما كانت تسير في حلمي. غضضتُ بصري عنها وسبقتها، صرختُ فأجبرتني على الالتفاف والتطلع إليها. كانت تثني ركبتيها على الأرض، أذكر أن ثوبها في الحلم كان أسود، مع أنها تخاف السواد في الحقيقة! انفرط عقدها!

قالت لي ذات يوم إنها حين رأتني أفزعها دق قلبها السريع، فضغطت أصابعها على العقد فقطعته دون قصد، سقطت حباته الصغيرة الملونة على الأرض! ترددتْ يداها الرقيقتان في لمس الحبات المتسخة بتراب الشارع، وجدتني أركع على ركبتيَّ وأجمع الحبات في المنديل. لا أدري لما كانت يداي ترتعشان! لم أهتم لاتساخ أصابعي!

بعدما جمعت معظم الحبات التي التقطتها عيناي، وضعت يديها على يدي لتوقف ارتعاشتهما في حلمي! لم تجسر على ذلك في حقيقة الذكرى، الحلم ذكرى مُعدَّلة إذن بما تهوى النفس! نفسي التي لا تزال تصارع حبها. نزعت يديها من يدي ووصلت إلى رقبتي، وجدها تعصرها، تشوه الحلم بالمخاوف! انتفضت صاحيًا، لأصدق ـ بالظلام الذي يغلف ما حولي ـ أنه كان مجرد حلم، مع أن شيئا منه قد حصل، فلقد أخذتْ الحبات مني وصنعت منها مسبحة، أهدتها إليّ بعدها بأيام، وقبِلتها صامتا.

نهضتُ من فوري، فتحت الدرج وأخرجت حقيبة اليد القديمة، فتحتها، نحيت الأوراق جانبا، لففت أصابعي في الحقيبة، التقطتُ المِسبحة، شعرت بارتياح لا مجال لإنكاره، بعد أن رأيتها! ربما تمنيت يوما أن تكون شهد مجرد حلم، أني أتمنى الجمال حلما أكثر منه حقيقة، حتى لا أضطر للتعامل مع وجوده في حياتي. أمسكها بيدي، وأتردد في التسبيح بها.

لماذا حملتها معي كل هذه الأميال من مصر وحتى ليبيا إن كان غرض الرحلة بالأساس نسيانها؟

ولماذا أنا عاجز الآن عن التخلص منها؟

يرتفع صوت أذان الفجر، أسير إلى النافذة وأنا أتحسس عنقي، ألمح الظلمة منعكسة على زجاج النافذة، كيف أتخيل أنَّ لأصابعها أثرا قد تتركه على رقبتي، من مجرد حلم! نفضتُ عني الخيالات، تهبط يدي من عنقي إلى صدري، دقات قلبي ترتفع مع كل كلمة من (الله أكبر) أدرك أن أثر أصابعها في مكان ما على جدار هذا القلب، حتى وإن لم أستطع أن أراه!

تطلعت إلى مِئذنة المسجد في الأفق، سمعت الشباب يسير في الشارع وهو ينادي الله أكبر، صلاة الفجر مظاهرة يومية ضد الظلم، وبداية ليوم جديد من التدريب. تذكرت المشهد الذي بثته قناة «ليبيا الحرة» لمئذنة المسجد التي استهدفتها كتائب القذافي في مصراتة، تذكرت القذيفة تلو الأخرى وهي تثقب حلق المئذنة ليسكت صوت الأذان، وتسقط المئذنة بما فيها على المسجد وتساويه بالأرض، لأن المسجد الراية التي تجمع تحتها الشباب للمقاومة، بدل هدم المقاومة هدموا المسجد! الدين أصل المقاومة، أصل كلمة الحق، أصل رؤية الظلم دون تزييف، الدين لا بد أن تسقط مئذنته حتى تبقى القلوب نائمة عن عين الفساد!

أرى بذرة الحماس تبرعم الأمل في نفوس الشباب مع كل ترديد لهم مع الأذان، ليسيروا بعد تجمعهم في الصلاة إلى أماكن تدريبهم، وأفهم جيدا لماذا تحارب الأنظمة العربية الإسلام، ليس لأن سبب تقدم الغرب استئصالهم الدين من حياتهم وسياساتهم كما يزعمون أو يتمنون، فمثلهم في التقليد كمثل الملتزمة التي رأت زانية تتزوج فزنت مثلها لعلها تتزوج!

بل لأن إفاقة الناس باتباعهم دينهم تعنى المطالبة بالحقوق التي

فرضها الله لكل إنسان، كلمة الله تهد وتناقص كلمة البشر، وإن كانت تلك الكلمة حرية، فكل حرية ناقصة إن لم تكن بمنهج شريعة الله، العدل والشرع هو تحقيق كلمة الله على الأرض، لأن منهج الله يشبه البيت الذي صمم خصيصا ليقينا مطر الدنيا، وشهواتها، لكن بعض البشر يريدون أن يسكنوا بيتا بلا سقف مدّعين أنهم لن يتبللوا!

يلتهب صوت الإمام بالدعاء، وتبحّ أصواتنا ونحن نقول آمين، تلك السكينة التي تغمرني وأنا أسبّح لله على عقلات أصابعي. ينتظرني كل يوم بدر وباهي على الباب، أرحل معهما إلى كتيبتنا، ما أزال أحتفظ بنفس رهبتي في حمل السلاح، وأفضل التدريبات الجسدية والقتال الفردي. نسير في صفوف إلى رمال الصحراء القريبة، ترتمي الأجساد على الأسفلت ويلهث الشباب لإطلاق قذيفة أو رشاش ناحية النقطة التي حددها لهم مدربهم. يلتهب المكان بالله أكبر بعد إصابة كل طلقة أو قذيفة للمكان المراد إصابته!

بدر يتدرب مع الطيارين، سلاحنا الجديد في المقاومة، وباهي ملك الكلاشنكوف، وتلك الليبية غريبة الأطوار، التي ما إن ترتدي الزي العسكري/ وتلف القماش حول رأسها ووجهها حتى لا أستطيع تمييزها، طالها الكثير من السخرية، وتوليت أنا وباهي في غياب بدر حمايتها من تطلعات الفضوليين ومضايقاتهم!

امرأة تقاتل!

استهجاني لو قرأته شهد في نفسي أو حتى في نظرة عينيِّ لأقامت لي محكمة! لست أفهم عشق النساء في تقليد الرجال وكأنهن يتبرأن من مكانتهن في المجتمع، وكأنهن إن صرن رجالًا صرن أعلى مرتبة! وكأن تقسيم الأدوار بيننا صار مفاضلة!

المرأة من الرجل، ليس هذا تفضلا أو تعاليا منه عليها، وإنما تكريما لها

وحماية لها. يخزيني أن تحمل نبأ السلاح وتدك كتفيها حين تطلق، فتخرج صرخة مكتومة، يؤلمني أن تخلع ثوب أنوثتها التي خلقها الله بها وكرمها بها، وجعلني حاميا لها، لتقاتل، لا ترى سوى صورة واحدة من القتال!

لو أن الجميع اتخذ صف الهجوم، فمن سيكون في الدفاع؟

إن لم تكن المرأة ظهري، فهل أكون أنا ظهري؟ أم أعود للخلف لأصير ظهرها؟

لم أفهم سر قبول اللواء بالتحاقها بالتدريبات، ولم أفهم إصرار بدر على تركها تمتهن ما تشاء، حتى وإن كان ضد فطرتها، الفطرة مفهوم تشوه كثيرا باسم المساواة وشعارات الحرية، ربما على بعض الرجال تبديل الفطرة ليحلوا محل النساء، ليستقيم هذا المجتمع!

لم تحتج نبأ لحافظات الأذن من صوت الطلقات، ولم تكن تتفهم الأوامر إلا بالتطلع لوجه قائلها، ولكن هذا لم يوقفها! كان وقودها: غلها وظلمتها، إذ إنها كانت أسرع منا في التعلم وأكثر شراسة في القتال وإن بقي حجمها الصغير وضعفها الأنثوي، يَحول بينها وبين حسم أي معركة تدريبية! كانت تعود بجروح كثيرة بعد كل يوم تدريب من ارتطام جسدها بالأرض حين يأمرنا اللواء بالانبطاح على بطوننا، أو حين نحتمي بساتر حجري تتشقق أصابعها بملامسته!

أشفقت عليها وتمنيت لو أني أعيدها إلى قوقعة الراحة، ليطمئن قلبي، كانت هي صورة المرأة في قلوبنا، كل منا يرى فيها المرأة التي يحبها. كان بعضنا يتساهل معها لهذا، والبعض الآخر يشتد عليها لنفس السبب، بين التحكم والحماية تتوه المرأة في فهم مشاعرنا تجاهها، وتتبع شيطانها في سوء الظن!

تتوقف قدرة تحملها عند الظهيرة، فيصطحبها باهي أو أفعل أنا. كوّنت نبأ صداقة سريعة مع باهي. أفهم أن سببها كان حديثه المستفيض معها في

أمور شخصية، وربما ذكريات عاطفية يعجز مثلي عن مشاركتها مع نفسه حتى! ما إن تعود معي حتى تسير صامتة، أمضي طريق العودة أحاول تخيل جمل حوارية قد تقولها شهد لو أنها تبدلت بها في نفس الموقف، فشهد لا تتقبل السكوت، أضبط نفسي متلبسا بتخيلها، فأزجرها تاركًا نبأ تصعد إلى بيتها، وأعود مجددا إلى ساحة التدريب منكسَ القلب. ينضم إلينا بدر، السؤال الأول والأخير يكون عن نبأ، أهرب من التطلع إلى عينيه، لعله يغفل نظرات العتب والاستهجان في عينيِّ.

أيهما تحب يا بدر: شهد أم نبأ؟ لا أقدر على الإتيان بقلبك وسؤاله، ولا أتفهم فكرة قدرتك على حب أكثر من امرأة، فحب واحدة أشقّ على النفس من القتال، فكيف تزاحمها بأخرى؟

ألأنها أمامك الآن؟

ولكن شهد أمامي، وإن لم تكن معي!

تحترق نخوتي ورجولتي حين أراه يعانقها أمامنا، لا أفقه نظريته في الحرية وهو يفعل مثل هذا الفعل دون أي خجل أمام الرجال! الحياء، وجه آخر من الفطرة تم تشويهه باسم الحرية، وأنا الذي صارعت قدميِّ طويلا، لأذهب إلى سالم وأعطيه المسبحة. سالم كان أحد جيران المنطقة المصريين والذين قضيت معهم بعض الأوقات في غربة متبادلة، تنتظره امرأة وخمسة أولاد، وسيعود إليهم خاليَ اليدين، فلقد خسر كل شيء!

الفوج الأخير الراحل إلى مصر ـ قبل اعلان الحرب على بنغازي ـ الخيط الأخير الذي يصلني بشهد! خجلت وأنا أدس في يده الكيس الذي يخفي المسبحة وورقة العنوان، خجلت وأنا ألقنه ما سيقول، لأن حبي مِلك لي، فلمَ عليّ أن أتباهى به أمام الجميع؟! رحل وودعته وأودعت قلبي وندمي وهواجسي وجنوني بين يديه، مع آخر قدم رحلت عن أرض بنغازي، كانت أقدام الموت تحل محلها.

حين أُعلن رسميا عن سقوط أجدابيا وتفاخر القذافي بأنه سيسقط بنغازي في نصف الوقت الذي استغرقه لإسقاط أجدابيا، أُخليت الساحات وفُرض الحظر الجوي على ليبيا. كنا نريد الالتزام به، ولو أننا نعلم أن عدونا أقذر من أن يلتزم به!

اتخذ كلٌ موقعه في المستشفيات والدبابات على بوابات المدينة وحدودها، ودّعنا النوم وحاصرنا الفتحات، خرج خليفة العجوز مع العديد من المواطنين إلى الساحات الخالية وتجمعوا هناك يلهجون بالدعاء إلى الله أن ينقذنا ويحمينا، ويحمي الشباب المقاتل. صار الدعاء يصل إلى آذان كل من بالمدينة، وصارت نداءات المساجد جميعها للدفاع عن المدينة والتكاتف وتكثيف الجهود لصد القتال، لم يخافوا ولم يفزعوا، ولم يهرولوا بلا هدف!

حالة من السكينة والثبات أصابت الجميع والدعاء يُحيي آذاننا طوال اليوم، تتبدل الوجوه والأصوات الداعية، ويبقى إيماننا بنصر الله لا يتبدل، كلٌ يضحي بنفسه بماله بجهوده بنومه بطعامه بسيارته وببيته لخدمة المقاومة، كلنا صرنا جسدا واحدا، لا شيء مثل الظلم يوحد الصفوف. أجسادنا أسوار المدينة، وقلوبنا أعلامها، ودعاؤنا صوتها، نحن الضحايا ونحن السلاح!

«دائما أنتِ في المنتصف

أنتِ بيني وبين كتابي..

بيني وبين فراشي..

وبيني وبين هدوئي..

وبيني وبين الكلام

ذكرياتك سجني وصوتك يجلدني

وأنا بين الشوارع وحدي

وبين المصابيح وحدي

أتصبب بالحزن بين قميصي وجلدي

ودمي: قطرة ـ بين عينيكِ ـ ليست تجف

فامنحيني السلام

امنحيني السلام»

أمل دنقل

باهي خليفة

شعرت بصحو الشمس، وعيناي مغمضتان، فأشحت بوجهي وغطيته بيدي قبل أن أفتح عينيِّ، لم أتضايق بل على العكس، الظلام عدوي، لهذا احرص على أن يكون منبه استيقاظي أشعة الشمس، فأنام مقابلًا للنافذة! بدأ عقلي يعمل سريعا، وقعت عيناي على باب الغرفة، كان مقفلا، لا بد أنها جارتنا أقفلت الباب لتمرّ إلى المطبخ. شعرت بأطرافي ترتعش، لم أتحمل أكثر من ثوانٍ حتى نهضت بسرعة وفتحته، عِدت متباطئًا إلى سريري وجلست عليه أحاول أن استفيق، حاولت أن أهدأ. لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين!

هدأت وتيرة ضربات قلبي وكفت أطرافي عن الارتعاش، نظرت حولي، أركان الغرفة بعيدة، إني سالم، في بيتي، الحمد لله! لا يزال هذا الارتباك يلازمني كل صباح، لم أعد في الزنزانة، مرّ أكثر من عام على عودتي، وما زلتُ في الثواني الأولى لكل صباح يهزمني، ظني أني ما زلت هناك، في تلك الزنزانة العفنة، حاولت طرد رائحتها من ذاكرتي، لكني شعرت لثوانٍ أن الحائط يقترب مني ويتسخ، لففتُ ذراعي حول كتفي، كنت أشعر بالإختناق الشديد، لا تزال روحي حبيسة في تلك الزنزانة اللعينة، التي قضيت فيها

سنوات، لهذا أهرع إلى أي زجاجة عطر ليكون أول شيء أفعله كل صباح أن أملأ ثيابي بأي عطر، لعلي أتناسى رائحة البول!

كنت سجينا لحَمّام الجنود لثمانية أشهر من مجمل سنوات حبسي، وذلك لأني تقدمت بشكوى، وهل لسجين مثلي منفذ ليشكُ أو حتى يتكلم؟ وأين؟ في بوسليم؟ مقبرة المغضوب عليهم من النظام! كنا في النصف الجنوبي للسجن، سمعنا إطلاق نار كثيف ولكننا لم نفهم ما حدث! بعدها بأسابيع تم نقلنا للنصف الآخر، كانت رائحة اللحم المتعفن تفوح في الهواء، رائحة جعلتني أشعر أني سُجنت فوق جثة شخص تعفن في العراء، والحوائط بها بقايا دماء تجلطت، أحاديث الإخوة جميعًا كانت تحوم حول مصير من كانوا ساكني هذه الزنازين قبلنا، ولماذا تم نقل بعضنا!

لم نكن نعلم أن الأرض التي ندوس عليها هي الحائل الوحيد بيننا وبين إخوتنا، الذين تم قتلهم في أحداث بوسليم، منهم من قُتِل بالرصاص وهو أعزل في زنزانته! لم أكن أريد أن أصدق، كنت أصم أُذنيَّ عن هذه المخاوف، وأقول لا بد أنهم قد أفرج عنهم، لا بد أن رائحة العفونة شيء طبيعي في مكان مثل هذا!

حاولت الخروج من عالم الماضي الخانق، ودرتُ بعينيِّ في أركان الغرفة، لأتأكد أني ما زلت آمنًا! وقعت عيناي على السرير الآخر على يساري، أخي الذي راح ضحية تفاؤلي، إخوتي كانوا معي في نفس السجن، ولم نكن نلتقي إلا كل أشهر! كل منا قد قضى فترات طويلة في حبس انفرداي منعه من رؤية الضوء، ولكن ليس هذا لأننا مشاغبون، بل لأن قوة تحملنا للإهانة أقل، وانكسارنا المحدود لا يفي بتركنا بسلام!

طبعا ذقني الحليق، كان يخفف العذاب عني والسخريات والتعرض الدائم لي اللفظي والجسماني، ولكن إخوتي تمسّكوا بلحاهم وتجرعوا الكثير

ثمنا، كانت آخر مرة أتحدث فيها إليهم قبل المجزرة بشهرين.

يا ويلاه يا أبي، كيف تحملت ألا ترانا لسنوات؟

كنت أفكر بوالدي كلما وَصَلنا طعام أو ثياب جديدة من هدايا الزوار وأسر المساجين، أتذكر تلك الليلة التي أجهز فيها الغضب عليّ، تفاحة جاءتنا بعد أشهر من انقطاع الفاكهة، قررنا أن نقسمها على أربع، ليأكل كل من من في الزنزانة منها. اكتشفنا أن بها ثقبا دقيقا جدا من نقطة العنق، حين فلقناها، فوجئنا بأن هناك ورقة بداخلها، كانت رسالة، رسالة من أم، حجم الورقة لا يتعدى طول أصبع، كتبت فيها ـ بخط دقيق جدا ـ عن مدى اشتياقها لابنها السجين، والحبر نفسه يبكي، وبعض الأخبار عن إخوته وزوجته. جمل مبتورة وشوقا لا ينتهي، والكثير من الأسى! هذا معناه أن الطعام الذي أرسل لم يصل لصاحبه، احتفظ رفيقي بالورقة في ثقب بين حجرين، قائلًا إنها أمانة لا بد أن يوصلها إلى صاحبها.

قضينا الليلة كلها متألمين في صمت، وعلى مدار أشهر تكرر هذا الأمر، أدركنا أننا نأكل طعاما لم يرسل لنا، وكذلك الملابس والأغطية، وجدنا العديد من الرسائل المخبّأة في العديد من الأشياء، داخل أنسجة الأغطية، داخل برطمانات الطعام المعلب، والرائحة النتنة لا تزول، لم أعد أستطيع أن أستخف بمخاوفي، لقد ماتوا، هذه الرسائل وهذا الطعام وكل ما يُرسل لنا، هي أشياء أصلًا ليست من حقنا، وإنما كانت لأناس ما عادوا هنا، وأننا ننام ونصحو فوق جثثهم!

جاءني خاطر: ماذا لو كان أحد إخوتي الآن أسفلي يئنّ وينزف، ماذا لو كان واحدا من الذين اختفوا ووضعنا نحن في زنازينهم؟ حاولت كثيرا أن أراهم، طالبت كل من له واسطة أن يجد لي طريقة للاطمئنان على كونهم لا يزالون أحياء، ولأنهم كانوا يغيّرون عنبرهم كل أشهر، فلم يكن بإمكاني معرفة جيرانهم من السجناء.

حلمت ذات ليلة أني حفرت في أرض الزنزانة حتى ظهر لي جزء من وجه مدفون مات في طور الفزع، جاحظة عيناه وفمه مفتوح ممتلئ بالإسمنت! صحوت صارخا أتمنى الموت، صرت أصمت لساعات وأصرخ لأخرى، لم يعد بإمكاني الحديث، صرت أطرق القضبان وأنادي بلا أسماء!

لا أتذكر تلك الفترة بشكل جيد، كل ما أتذكره هو وجوه زملائي يطالعونني بشفقة ويدعون لي، منهم من يقرأ القرآن عند رأسي، ومنهم من يطلب مني الثبات. مضى عام ولا وجود لأخوتي، رفعت الشكاوي وحُبست وعُذبت، أدركت الحقيقة، لقد ماتوا، والأهالي يرسلون مؤنهم كل يوم إلى جثث، ونحن من نتلقاها عوضا عنهم! تلك الرسائل الصغيرة كانت محفورة في ذاكرتي، بكل تفاصيلها، بكل سطر فيها، بكل دعوة بكل دمعة، بكل الأخبار، لأشخاص لا أعرفهم، مضوا بحياتهم، وأنا هنا معطوب، وزمني مات، أحمل رسالة لشخص مات وانتهى، من أحد أفراد أسرته الذي لا يزال يمنّي نفسه بعودته!

خفت كثيرا، خفت من اليوم الذي سأضطر فيه لملاقاة الواقع في عيني والدي، اليوم الذي سأتعرض فيه للذبح على يد الحزن!

مرض الإيدز كان بطاقة إخراجي من السجن، ما زلت أتساءل إن كان أماتني أم أنقذني؟ لم أحزن حين علمت بمرضي، كان مجرد كشف روتيني من منظمة خارجية على السجناء، اكتشفوا بها أني مصاب بالإيدز منذ فترة طويلة، تذكرت دخولي لعيادة السجناء وبقائي فيها في الفترة التي لا أتذكر منها الكثير. لا بد أنه تم حقني بحقنة ملوثة!

ما إن انتشر الخبر حتى بات الكل يخاف التطلع لعينيِّ، ظنوا أني ممن تعرض لاغتصاب شاذ من الجنود، كانت تعليقات الجنود أيضا تلاحقني وهمساتهم وتلميحاتهم، لكني لم أحزن، لم أشعر بضيق، على العكس،

حين تمتص منك سنوات الحبس الحياة، وتزهد في كل شيء كانت تتمناه نفسك، يصبح أيُّ مرض يقربك للموت ذا طعم سكري في حلقك! انس أنك إنسان، وعش عيشة الحيوان، طعام ونوم وزريبة تنام فيها، وأمل بغد تأكل فيه وتنام وتتغوط، وستجد أن كل الأخبار الحزينة ليست بنفس الوقع بالوقت.

ستسخر من الحزن وتبصق في وجهه، وتقول له:

يا ترى ماذا ستعطيني أكثر مما أملك؟

وماذا أتمنى أو أنتظر سوى الموت؟

إن كان جسدك حي وروحك ميتة تفقد معنى الانتظار!

حتى حين جاءني خبر الإفراج عني، وتوعدات الجنود بالقتل لي ولأبي إن أخرجنا الحذاء من أفواهنا وطالبنا بحقوقنا، كنت أتطلع إلى عيونهم والرذاذ يتطاير من أفواههم إلى وجهي وأتساءل: لماذا سجنت أصلًا؟ كانت تلك المرة الأولى التي أسأل فيها نفسي هذا السؤال، سألته حين علمت أني سأخرج، حين تكون سجينا سياسيا تدرك أن علاقتك بالسجن ستكون أبدية، ولا تحلم قط بالخروج قبل أن يخرج الحاكم من دنيا الله إلى آخرته، ورجل مثل القذافي ودولة بفساد دولته، ما كانت لتخرج من خلايا ليبيا إلا بموت ليبيا نفسها!

سُجنت لأني تظاهرت مرة واحدة في طرابلس قرب سجن بوسليم، مطالبا بخروج إخوتي الذين لا يعلمون حتى لماذا اعتقلوا! لم أكن ناشطا سياسيا حتى، كنت فقط مجرد أخ أخذوا منه جميع إخوته دون أن يكلفوا أنفسهم حتى بتلفيق التهم لهم لإراحتناَ! ولا نستطيع حتى رؤيتهم أو الاطمئنان عليهم!

إما أن أسكت عن حقهم أو انضم إليهم في ضيافة بوسليم، ولم أكن من أصحاب السكوت، لم يعلم والدي بخروجي، فقط خرج من منزله

ذات ليلة، فوجدتني أجلس على درجات السلم المقابلة للباب، لو مُحيت ذاكرتي سيبقى فقط تعبير وجه أبي في تلك اللحظة، أحمل في جعبتي خبر مقتل ولديه، ويحمل في جعبته خبر موت أمي حسرة!

قبل أن نتبادل الطعنات، تبادلنا الشهقات، ولم نذرف الدموع، بل الدموع التي ذرفتنا، لم أكن أنا الذي جريت نحوه، لأن جسدي كله تجمّد، بل هو الذي احتواني بين ضلوعه، وكلما بقى وشهق وارتفع صوته، وأدرك أن ما يحدث حقيقة، كلما ضغط عليَّ وكأنه يريد أن يدخلني فيه ليتأكد أن أحدا لن يختطفني منه من جديد! والدي الذي كبر بعمر يضاعف عشرات الأضعاف العمر الذي قضيته بعيدا عنه! خرج الجيران من بيوتهم ليرقبوا لحظة عودتنا إلى أحضان بعضنا، صاروا يباركوننا وكأننا في زفاف، استغرقنا الكثير من الوقت حتى بقينا وحدنا، تبادلنا بطاقات خساراتنا، أجهشنا بالبكاء وصرخنا ولطمنا كالنساء، جلسنا على الأرض متجاورين نبكي حتى الصباح، وصار كل يوم في حياتنا بعد ذلك محاولة لوضع كل شيء خلفنا. بقينا لأشهر نتحاشَى الحديث عمن فقدانهم، ونتحاشى النقاش فيما يمكن أن نفعل، لأنه لم يعد بإمكاننا أن نفعل أي شيء، حتى في مسيرات أهل شهداء مجزرة بنغازي، لم يجرؤ أحدنا على سؤال الآخر عما إذا كان يريد المشاركة!

بعض الألم نعجز عن التعامل معه إلا بإيهام أنفسنا أن لا وجود له!

صارت بيني وبين والدي رابطة أعمق من رابطة الدم، رابطة الخسارة، أنا وهو منبوذان، انشغل والدي بعزاء نفسه لنفسه ما تبقى من عمره، وانشغلت بعلاجي من الإيدز، وإكمال الحياة حد الموت!

لا يوجد زر يمكنك الضغط عليه لتمنع ذكرى من التدفق إليك، كلما شعرت باقتراب النهاية كلما ازدادت ذكرياتي إلحاحا، والإيدز سوس ينخر في جسدي، أريد أن تأخذني الشهادة قبل أن يأخذني هو!

خرجت لأتناول الإفطار مع والدي، ربما يكون آخر أفطار، سأرحل لأبيت في الكتيبة منذ الآن استعدادا للحرب القادمة، لم أكن بحاجة إلى قول هذا، ولم يكن بحاجة ليسمع، كان يعلم، كم هو الحزن لا يُحتمل إن كنت تراه يحتل ملامح مَن تحب!

كان والدي تعيسا، أكلنا في صمت، وما إن وقفت لأحمل الأطباق حتى وقف فزعا، شابت لهجته الشيخوخة وهو يدعو لي بالثبات وبنصري على العدو. تألمت، أردت الهرب، ما استطعت أن أتحرك قيد أنملة بعيدا عنه، ذاك الرجل الذي ما أراد شيئا من الكون سوى أن أكون بخير، وحتى هذا فشلت في تحقيقه! أبتي، إنك المعنى الوحيد لاستمراري، إنك الذي يربط الله بك على قلبي! عانقني وهو يرتعش، قبلت يديه المرتعشتين وأنا أبكي، ظلّ يقول:

ـ إن شاء الله خير يا ولدي، ستعود منتصرا، الله يرجعك سالم، الله ينصركم، الله يحميكم.

كنت أريد الرحيل سريعا، لكنه تشبث بي، وقال لي هامسا:

ـ ارجع يا ولدي، يكفيني أخويك، الله يرجعك، الله يرجعك.

لا توسل في الحياة يا أبتي، ولا تأخير للقضاء، ولا شفاعة في القصاص، اتركني أرحل، فإن الرحيل هو منتهى البقاء، أرجوك اعفني من سياط فشلي في إسعادك!

خرجت لأخذ سيارتي، ما زالت كما هي، كما تركتها منذ أن سُجنت، احتفظ أبي بها في مكانها بحالتها، هي الأخرى توقف زمنها بحضوري، ما بين بيتي والكتيبة لم يلتقط عقلي شيء، فقد تركته هناك بحوزة أبي الباكي! أفقت على غناء الأخوة بأنشودة قديمة، وجدتني أرددها معهم، ذهلت أني ما زلت أذكرها:

النصر توالى والصرح تعالى.... واليسار قد زاد اشتعالا ......
إنه إسلامنا عاد بالمجد لنا..... فقولوا لنا.......... النصر توالى
قد رضينا بك يا إسلامنا.... أنت دستورنا أنت نهجنا
والله غايتنا... والسبيل من هنا
فقولوا لنا.......... النصر توالى
لا تقولوا قد تعاظم الثمن..... إنها حرقة دين ووطن
لم نزد إلا هدى..... بالدين وعزة
فقولوا معا.......... النصر توالى هيا
اتركوا القلب يجيش بالحدا..... واسمعوا القول ورددوا الندا
ارجميهم يا سماء..... وارفعي هذا البلاء
رددوا البلاء.......... النصر توالى هيا

أناشيد الجهاد، وحدها تخلق برعم فرح في قلبي، لهفة وحماسة الزملاء تلهبني، فقط بدر وعبد الله كانا صامتين. بدر لا يحب مشاركتنا أي أنشودة يُذكر فيها الإسلام أو الدين أو الله، لأنه مقتنع بأن هذا لا دخل له بالدين، لأن شيئا في نفسه يجعله يشعر بسخف إنشاد مثل هذا في موقف كهذا، وأن الثأر للوطن لا علاقة له بالإسلام بالضرورة، بل هو في صلب الوطنية! وبأن الترفع عن مثل هذه الأمور فيه شيء من العقل والثقافة بجانب أنه لا يحفظ مثل هذه الأناشيد! أما عبد الله فكان يبتسم خجلا شاخصا ببصره إلى أسفل، ينتابه الخجل والصمت في وسط من لم يعتد عليهم! لم يكن عندي شك في حفظه لكلمات الأنشودة، أدركت أن التوتر حليف الصمت لديه، لكني امتلأت حماسة..

سكت الجميع فجأة وأنظارهم شاخصة إلى الباب، تطلعت، كانت نبأ، وكان خروج بدر من الغرفة. التقطت عيناي تورد وجهها قبل أن يخرجا، تناولتهما أحاديث الشباب، اقترح الشيخ راف الله قائلًا:

ـ والله لا يكتمل فرحنا إلا بتزويج الاثنين.

رد عليه زميل آخر:

ـ يا شيخنا، نحن في حالة حرب، أي زواج تتكلم عنه؟

ـ لأننا في حالة حرب يجب أن يتزوجا، أي وقت أنسب من وقت الشتات ليجتمعا؟ ألم تسمع بكثرة الزواجات قبل رحيل آخر فوج هارب من بنغازي؟ لا تبق فردا قبل أن تواجه الموت، كما أن الشباب بحاجة إلى تحفيز، ليرجعوا.

قالها مبتسما بخبث من يضع خطة، الزواج علاج، الحب مضاد اكتئاب، والعناق مضاد للموت، وما الذي يمكن أن يجعلك ترغب بالحياة أكثر من شخص تودّ العودة إليه؟ أدرك هذه الحقيقة، قلبي هذا الذي يتعثر بالذكرى يلومني!

على ماذا تلومني يا قلب؟

أحببنا وفقدنا وتعبنا وتناسينا وما نسينا، وها أنا ذا أمامك، وأنت أمامي، عاجزٌ كلٌ منا عن كفكفة دموع الآخر، قلبي يعايرني بأنه عرفها قبلي، عرف أنها ملكته، بمجرد أن التقيت بها، مشفى الإيدز، أطفال حادثة الثمانينيات، طفلة كبيرة كانت، تلهو بخيط زائد من كمها، كانت تلفه حول أصبعها وتسرح، بيني وبينها عمر والتفاتة، كانت نصيبي من الدنيا، المرأة التي سأظل أحبها حتى الممات، وبعد موتي أتممناها.

لماذا يغرينا النصيب بأن نتأمله طويلًا؟

تأملتها وأنا لا أعرفها، دعوتها في سري لتلتفت لي، التفتتْ، جفلتُ، هل تسمع ما يدور بيني وبين نفسي؟ هل هناك إنسان آخر سواي يمكن أن يستمع إلى ما أقوله لنفسي؟ أطرقتْ بخجل، نظرتُ حولي، كلٌّ منشغل، وكانت تجلس وحدها. تظاهرت بتعبي من الوقوف، وجلست بالقرب منها، الحوائط بلا ألوان وكذلك الوجوه، البهجة رمادية، لكنها كانت

وهجا حارا، بؤرة شمسية، ثقب أحمر يدفع قلبي ليغوص فيه ولا يرجع!

هل انجذبتُ إليها؛ لأنها كانت طفلة في جسد امرأة؟

أم لأنها كانت امرأة على الرغم من أنها طفلة؟

شعرت بتوترها بقربي، وبأنَّ عينيها تحاولان التقاطي بطرفها! وضعت كفها إلى جانبها تمسك بطرف الكرسي، ووضعت يدي محاذيًا ليدها. لم أمسها، ولم تمسني، يدانا كانتا شبه متلاصقتين، بينهما سنتيمتر من الشجاعة، وهكذا بقيت أفعل طوال الأسابيع الطويلة التي سبقت شجاعتي بالحديث إليها، نلتقي صدفة في أروقة مشفى الإيدز، استغل الوقت الذي تبقى فيه وحدها، أقف بجوارها، اقترب منها كثيرا، أسير بقربها. في بعض المرات كانت تغضب وتتعمد الابتعاد عني، في مرات أخرى كنت أضبطها تبحث عني، خاصة حين نتقابل متقابلين في أحد الممرات، وتتوقف عيناها عن الجري بين الوجوه، لتلتقط أنفاسها عند وجهي!

كنت أعشق السير اتجاهها وكنت أتوقف لأترك لها ألم أن تتجاوزني، وفي مرات نادرة كنت أحس بوجودها يميل نحوي، ليمزق آخر ما يفرقنا حتى لو كانت المسافة! أحببت مرضي، أحببت المشفى، أحببت الحياة، أحببت الظلم الخسارة، كل شيء قادني إلى هنا، إليها! أحببت كل شيء مظلم في حياتي، لأنه جعلني أنعم بنورها، وتورد خجلها الذي يطال عنقها وأذنيها وذقنها، وثيابها الواسعة المتهدلة على جسدها النحيل، وألوانها الباهتة التي تتعمد ارتداءها لتتعاكس مع إشراق بشرتها، وتنهداتها، وعبوس غضبها، وصوتها الرفيع حين يرتفع في نفاذ صبر من العلاج أو التعب، ووالديها المتعبين وهم يجاهدان ليحافظا على حياتها، وبقائها خلفهما، وحيدة، تنتظر باشفاق ما سيحدث، هنا يأتي دوري

لأدخل لوحة حياتها. أدخل وأجلس قربها، أقف قربها، أسير قُربها، ولا أنطق!

لست أفهم كيف يمكن للحب أن يُقال؟

كيف يمكن أن تتحول نوتة موسيقى إلى أحرف، لست أفهم التعقيدات والخطوات التي يأخذها كل ثنائي في إدراك الحب وفهمه، ووضعه في إطار الوقت والمنطق، وهو الشيء الوحيد المستثنَى في حياتنا من كل القواعد!

إني عجوز معطوب، بالنسبة لطفلة مثلها أدرك أنها ستتغلب على المرض، أدرك أن قبحه لن يقدر على براءتها، ربما كنت على حق وقتها، ربما لو كنت تراجعت بسبب عدم ثقتي بنفسي وبأني لست أهلًا لأمتلك قلبها، لما كنت أتألم الآن مثل هذا الألم! أغلقت عينيِّ، لا يا باهي، لا تندم على دخولك الجنة؛ لأنك كنت تعلم أنك ستخرج منها، لا تندم على تناول رشفة؛ لأنها أصابتك بالعطش الأبدي!

جاءني وجهها في تلك السيارة، فتاة حائرة وحدها تنتظر أسرتها خارج المشفى، في تلك اللحظة التي أقسمت فيها على نفسي أن أنسى أمرها قدمتْها لي الصدفة على طبق لا يُرفض! كانت تنظر إلى النافذة ناحية المشفى، وأنا كنت أنظر إليها من النافذة الأقرب ناحيتها مشيحة عني. ألصقتُ وجههي بالزجاج، لم تنتبه لوجودي، كنت سأستسلم للتطلع إليها وحسب، لكنني أدركت الحقيقة، أدركت أن قلبي يعذبني كل هذا الوقت؛ لأنه يريد أن يحدثها! طرقت نافذة السيارة، فالتفتت إليّ، شهقت كالأطفال وتطلعت حولها للتأكد ألا أحد قد رصدنا. أشارت إليّ بصمت أن أذهب، لا تريد أن تكون أول ناطقة بالكلمات بيننا، أشرت إليها أن تُنزل الزجاج، فعلت، دقَّ قلبي كالمجنون، ولكن انفرط مني حبي وماعدت قادرا على التحمل! ما إن تجاوز الزجاج فمي، حتى نطقت،

أحبك! هكذا ببساطة، لن تصدقني، ستظنني مثلهم، مثل أولئك الشباب اللاهي! تناثرت نظراتها في كل مكان بعيدا عني وهي تهمس:

ـ اذهب الآن، أرجوك لو رآك والدي سيـــ....

ـ أحبك!

ـ أرجوك أذهب بسرعة.

ـ أحبك!

ـ باهي! كفى!

أخرستني، كيف تعرف اسمي؟ لقد سألت عن اسمي، كأنها قالت لي أعشقك، أغمضت عينيّ بشبع، ثم مددت يدي داخل قوقعتها، قلت لها:

ـ لن أذهب قبل أن تعطيني شيئا منك.

فهمتني، تطلعت حولها، بحثت في جيوبها، خاب أملها، فكرت لثوانٍ، مدت أصابعها، لم ترتعش، كتبت على كف يدي بإصبعها، رقما تلو الرقم، رسمت بجلدها على جلدي، حفظته عن ظهر قلب، نظرتْ إلى المشفى، فوجدت والديها على الباب! شهقتْ وقالت:

ـ اذهب الآن!

رحلتُ وأنا أعرف أنها وما إن تطلعتْ إلى النافذة من جديد، فلن تجدني.

لو فحصني الطبيب يومها، لأدرك معجزة أن يختفي الإيدز مني ويحل محله الأمل! حائط واحد لا يزال قائما في دنيا أطلالي، حائط واحد يطالعني بحنو، لأجلس قربه والتصق به، محتميا من حرقة الدنيا، حائط واحد كان يكفيني لأبني لي بيتا منه، حوله، ديمة، كانت الحائط، كانت الثابت، كانت الشمس، النور، الجنة، ببساطة كانت هي، امرأتي!

شربنا الكثير من كؤوس الحب، التقينا كثيرا، اشتقنا كثيرا، اقتربنا كثيرا، وأخيرا ما عادت يدي بمحاذاة يدها، أخيرا صارت يدي في يدها،

قلبي في قلبها، صورتي في عينيها، أخيرا التقت قلوبنا في محطة حب.

يا شيخ راف الله، لماذا لم تزوجنا؟

لماذا لم تكن هناك؟

ولماذا لم تكن الحرب وقتها، لكانت الآن بين ضلوعي، لما كان قد رفضني والدها بعنجهية، كما فعل في كل مرة تقدمت إليه فيها، في كل شخص توسلته ليكون وسيطا بيني وبين والدها حتى تصير لي. كيف يمكن ألا تكون لي وهي امرأتي؟ كيف يمكن أن يعود كل وسيط خائبا ليقول: إني لست أهلًا لها، لنفس الأسباب الذي دفعت حياتي للقائها، لأني كنت سجينا سياسيا، الخوف تغلل في الأرواح حتى أعماها، لم يروني، لم يسمعوني، رجل عمره ضعف عمرها، وخسارته ضعف خسارتها، وحالة مرضه أسوأ كثيرا من حالتها، ماذا سيقدم لها وهو المحتاج؟ نعم صحيح، حاجتي لها تفوق حاجتها، تفوق حاجة إنسان للهواء، قد تحتاجني كحبيب كزوج، لكني احتجتها كحياة!

حكاية ديمة اتخذتْ منعطفا جارحا، وها هي الآن الذكرى تحرقني، تمسكنا ببعضنا لشهور طويلة حتى يأسنا، وتمكن اليأس حتى من رؤيتنا لبعضنا! ما عادت تريدني في حياتها، وما عدت أتحمل وجودها في حياتي، ليس لأن حبنا تغير، بل لأنه صار أكبر من أن نتعامل مع خسارتنا لبعضنا كأنه حدث دنيوي عادي علينا التأقلم معه!

بعض التوق يُفضي إلى القطيعة، وشيء من يأس الحياة يفضي إلى الموت! سقط الحائط فوقي، دفنني تحت أنقاضه، وتعبت، تعبت من الحلم، تعبت من الاستيقاظ، تعبت من مصارعة المرض، تعبت من حمل السلاح، تعبت من الحياة، فقط تعبت! يجب أن نعجل النهاية، وننسف البداية، وندفن بذور الحب وجذوره وجذوعه، تحت طبقات سميكة من الإنكار، التبلد! كم مظاهرة سرت فيها، كم رصاصة مرت بي واخطأتني،

كم مرة وقفت فيها وجها لوجه أمام الموت وهرب مني؟

أخبريني يا ديمة، كم مرة عليَّ أن أموت لأحيا، كم مرة عليَّ أن أفقدك لأحصل عليكِ؟

علمتيني كيف أحيا، فواجب عليكِ أن تعلميني كيف أموت، واجب عليكِ أن تقتلي القلب الذي أيقظتيه، لكنك هربتِ خارج نطاق احتياجي! لم يكن صوتك، يوم كلمتك لأطمئن أنكِ في مصر بأمان، أول شيء فعلته ـ بعد الانشقاقات التي أعادت الاتصالات إلى بعض مدن الشرق ـ هو أن أتصل بكِ، لم تكوني ديمتي، كنتِ ديمتهم! طلبتِ مني ألا أتصل مجددا وأن أكون بخير، كأنكِ تطلبين من شخص أن يقفز من قمة جبل، وفي نفس الوقت ألا يموت! والآن وأنا على حافة حرب، أليس من حقي أن أستمدّ منكِ قليلا من التحفيز، للموت أو للحياة سيان؟!

أخذت سيارتي، ونقلت الأسلحة التي استولينا عليها من المساجد إلى الكتيبة، كثير من الأسلحة لم يكن هناك من يجيد استخدمها، ولم يكن لدينا الوقت للتدرب عليها مثل مضادات الطيران، كل الشباب يتبرعون بسياراتهم لتركيب الكلاشنكوف عليها، أو استعمالها في نقل الأسلحة أو المقاتلين. بينما هممت بالعودة لكتيبة شهداء ١٧ فبراير، سمعت كلمة «يا الله» عالية جدا قادمة من منطقة المحكمة، اقتربت بسيارتي، سمعتها من هناك، ومن البيوت، ومن النوافذ، ومن الهاربين، ومن المختبئين. شعرت لأول مرة أني أسمع الحائط يسبح لله، والعصافير، والأشجار، يا الله، يا الله، يا الله، حتى يبلغ الصوت منتهاه!

كانت ساحة المحكمة ممتلئة حتى الشوارع والمناطق المجاورة، رجال ونساء وأطفال وشيوخ يرفعون الأطفال على أكتافهم. كانوا جالسين وواقفين، مقاتلين وغير مقاتلين، راحلين وباقين، حتى المصورين، الكل يرفع يده عاليا، في نفس واحد يصرخ: يا الله، وكاميرات نبوس وقناة

«ليبيا الحرة» تصور، بنغازي تعرف أولادها، بنغازي تعرف من يحبها، بنغازي تتضرع إلى الله أن ينقذها، بنغازي حقا تتكلمَ!

خلال ساعات ستخرس الحناجر، خلال ساعات ستتكلم سماء بنغازي بلغة القذائف، وستعزف لحن الرصاص، حتى وإن صمت النداء إلى الله لفظًا! كل شيء أراه ولا أراه، الكل يسبح بحمده، الحي والجماد، من فوق الأرض ومن تحت الأرض، هزني التضرع، هزتني هيبة الخالق في توسل المخلوق، وحط ارتجافي على شطّ الاطمئنان. شعرت أن النصر قريب، شممت ريحا طيبة قادمة من السماء، الله يسمع ويرى، الله دائما هنا، الله لن يتركنا، الله سيقدّر لنا الخير. اطمأننت وصعدتُ إلى السطح، التقطتُ نبوس في عناق حار وسط أسلاك الكهرباء ووجوه الكاميرات، كان يبكي، فرحةً واطمئنانا، سننام قريري العين في طوفان الموت، لأن الله معنا!

محطات البنزين صارت مشاعا، فرغت كل الزجاجات وحتى عبوات اللبن، وامتلأت بالبنزين، كل بوابة منزل يقبع أمامها من يحمل سلاحا معدا باليد، جيلاطينة، أي: قنبلة يدوية، رصاص ومسامير وألعاب نارية وكوربات الأنابيب، لصنع الجيلاطينات عبوات صغيرة وكبيرة، النساء يخيطن الأعلام، ويجمعن الأقمشة الحمراء والخضراء والسوداء على أسطح البيوت. خلال ساعات سيتدخل الناتو لإيقاف كتائب القذافي، لكننا لا نعلم أيهما سيصلنا أولًا، الموت أم النجاة، الكثير من عبارات التخوين تصلنا وتصل إلى الكتائب، تقبلون أجنبيا يقتل ليبيا من أجل ليبي، تقفون من الغريب ضد ابن العم، تقبلون احتلالا، تسلمون منابع النفط لتشتروا بها حياتكم!

صارت أحشاء ليبيا تأكل بعضها، والكل يخوّن الكل، وهل هو ليبي من يقتل أخاه ليركبه؟ وهل هذا الذي أبوه إيطالي وأمه يهودية يمكن أن

ينال شرف أن يكون ليبيًا؟ الانتماء يُنتزع حين يفقد معناه، لا فرق بين حب وقبر إن أفضى إلى الموت! أرسلنا النداء لمعسكرات الدروع، وحّدنا صفوف المشاه، جهزنا نسور الجو، وعدنا إلى جحورنا، ننتظر الطوفان!

تلك الليلة احتفلنا، زففنا الموت إلينا، أنشدنا للجهاد، سكتنا، دعونا، تضرعنا لله، بقي عبد الله في الركن يقرأ القرآن همسا، وبقي نبوس يصوِّر في الظلام، يصوِّر الشباب في الشوارع والطرقات، فلا يدري أي شخص قد يكون هذا التسجيل هو الأخير له! وقف شاب قبالته وصرخ أمام الكاميرا:

ـ الله أكبر، الله أكبر، النصر إن شاء الله، أمرنا بالقتال فقاتلنا، وأمرنا بالجهاد فجاهدنا، فحق على الله أن ينصرنا، النصر منك يا الله.

تعالى التكبير، يحيطني التكبير من كل مكان، صرت أهمس بها، الله اكبر، طيلة السير في الطرقات طيلة التدريب، طيلة الحديث مع النفس والحديث مع الله، أقام راف الله احتفالا صغيرا في الكتيبة، لأجل بدر ونبأ، لم يكن لها فستان، ولم يكن لدَى أحد الوقت ليخيطه، ولم تملك امرأة ثوبا باقيا لتهديها إليها. وقفتْ بزي عسكري، ولفتّ الوشاح حول جزء من وجهها، كانت خجلة ومستسلمة!

كانت امرأة سعيدة.

وقف الشيخ راف الله بينهما، ولقن كل منهما ما يجب أن يقال، رفعت صوتها بما همس لها ورد عليها بالرضا بها زوجا، ووقف بدر ممسكا بيدها. ما إن وقعَّا على عقد القَران، حتى جلبنا بضع كؤوس ومعلبات غازية وشربنا، لأنه لم يكن لدينا مؤن تكفي لعمل وليمة على شرفهما. أشهرنا وباركنا لهما، ثم جلس الشباب على شكل قوس في الخيمة، ووقف بدر ووقفت نبأ قبالته، أدركت أن بدر سيلقي المجرودة، وقفت نبأ بدون حراك تتطلع إليه بثوبها العسكري، ووقف يردد كلمات القصيدة، وكلما

التقط أنفاسه ردد الرجال خلفه آخر مقطعا، وهم يرقصون رقصة جماعية. ردد وهو يتغنى باللحن:

لك سايبنا شوق كبير..... أنت قدرك في الناس كبير

أنت فوق الحاجب والعين....... وأهلا بالجودة مرحبتين

مرحب يا صادق في وعوده..... منا تستاهل مجرودة

ونزيدك مية زغرودة من بو عين كبيرة سوداء..... يا غيمة سيلة ورعودة روى كل العطشانين

ما من عطشانة رواها دارت نوار وحاياها...... درت والخير كساها بارك نورها ضواها

وانهمت في غيم سماها ووين...... انشكع في ليل سماها صارت نوار بساتين

صارت يم غفير سجايل إن هنتي خايل في خايل صارت يما عيون دبايل إن هنتي خايل في خايل

يللي عقلي شورك زايد قدم غالغيات سبايل..... شفتك جاية وادي زايد

ساكني حب غواليا عايش فيه وعايش فيا..... وأن نقول نزيد شوايا نلقى جايبلي الحنين

شوقي وحنيني جايبلي شوقي وحنيني لانك قايل يا زهوة عيني

يللي بالود مغطيني ديما في الصوب معليني..... طرفه يكفيني ما نشبح في ناس آخرين

تهلل الشباب وصفقوا، ومالت العروس على عريسها، ابتسمت نبأ بسعادة لا حد لها، وابتسم لها بدر برضا. كانا يتطلعان إلى بعضهما بشوق وكأن نهاية العالم غدا، ولسوء الحظ كان شعورهما صحيحا!

أول عرس في كتيبتنا، أول بسمة في وجه الموت، رقصت معهما والدمع

في عينيِّ، رددت معهما بصوتي المبحوح شوقا، نظرت إليها وتخيلت عروسي، آه! ياليتني أتحول لبدر ويا ليت نبأ تستحيل ديمة للحظة واحدة، ليتها الآن معي، ليتني أرتشف لحظة واحدة من الأمان بين ذراعيها! انتهى الاحتفال والمباركات، وتركنا العروسين لساعات الليل قبل نهايات الصباح، ورحل كل منا إلى موقعه، ارتديت ثيابا سوداء، وساعدني الشباب، ولحمت الكلاشنكوف بظهر سيارتي المفتوحة.

لا مكان لي في قعر دبابة أو غرفة قيادة، لا أحتمل الأماكن المغلقة، ولن يتحمل جسدي القتال على الأرض. جاءنا الخبر، طائرات الناتو ستصل في الغد، وأنا والشباب سننتظر كتائب القذافي عند بوابة قوارشة، تناثرت سياراتنا في زوايا الطريق، سيدخلون المدينة فوق جثثنا! جلبت سكينا عريضة وقطعت أغصان الأشجار، وأخفيت جسد سيارتي بها، وتركت فتحة ممهدة لفوهة الكلاشنكوف. جاءتنا المكالمات بإنذار اقتراب كتائب القذافي منا، التي ستصل خلال أربعين دقيقة!

قتلوا وقطعوا كل ما وجدوه في طريقهم، سيصلون قبل تدخل الناتو! جاءتنا الأوامر بمحاولة تأخيرهم حتى الصباح. كان الهاتف في يدي، جبنت، للحظات أردت الاختباء، أردت الرجوع، نظرت إلى كف يدي واسترجعت لمسة أصابعها، استرجعت الرقم، كتبته على الهاتف، قبل أن أتصل، فكرت، عنفني عقلي، لكن قلبي كان قد أصدر الأمر! اتصلتُ بها، خفت أن تكون قد غيرت الرقم بوصولها لمصر، خفت أن تكون قد قطعت الخيط الأخير الذي يربط قلبي بقلبها، سمعت دقات الاتصال واحدة تلو الأخرى، حتى ردت:

ـ باهي...

لم تنطق اسمي منذ زمن، أحب حين ترد عليّ بهذه الطريقة، لا بالصيغة المتعارف عليها وكأنها لا تعرف أني المتصل، رقم من ليبيا في عشية حرب،

لا بد أنه الرجل الذي خلفه الحب وراءها، أجل يا ديمة، طاوعيني في حبي وجنوني، انحني أمامي عاصفة اشتياقي، قلت لها:

ـ نائمة؟

ـ ليس بعد..

ـ لمَ السّهاد؟

ـ كيف يأتي النوم؟

ـ كما أتى الفراق!

ـ لا يأتي النوم قسرا!

ـ أحبك...

صمتت، استمعت طويلًا لأنفاسها، وشهقات بكاءها، بكيت أنا الآخر:

ـ ما توقفت لحظة عن حبك، ستكونين لي ديمة، لن تكوني لسواي!

ـ باهي، كفى!

ـ أحبك!

ارتفعت صيحاتُ بكائها وانهارت، شعرت بها بين ذراعيَّ، ترجتني كثيرا وترجيتها، وترجيت الوقت ألا يمر، مسحت دموعي وأكملت:

ـ قوليها يا ديمة.

ـ أنت تعرف.

ـ أريد أن أسمعها.

ـ أحبك.

تنفست الصّعداء، أخذت كل ما أردت، هدهدت الرغبات ودفنت الأمنيات، وصرت جاهزا، وكانت آخر كلمة:

ـ فقط ابقي بمحاذاتي.

ما تبقى لي من وقت مضى في تفكيري بها، واسترجاعي آخر الكلمات

كانت بيننا. قطعتْ أفكاري أصوات الرصاص، جاءتني الإشارات من الشباب. ساعات الفجر تكاد تنقضي، وقد قرروا التسلل للمدينة في الظلام، التقطتْ عيناي العربات والدبابات، زرعنا لهم الألغام في الأرض فانفجرت وكانت تلك إشارة البدء.

أطلق كلٌ منا قذائفه، انتظرتُ اللحظة المناسبة، صوَّبت، كبرت، دعوت، أصابت قذيفة من العدو مكمن رفيق من الإخوة وقتلته، ثم المكمن الآخر، ساروا بمحاذاة سيارتي، لم يروني، ظنوا أنهم ناجون، ظنوا أنهم انتصروا. الله أكبر، أطلقت، ارتفع أمام عينيِّ حائط من النار واختنقت بالدخان، أطلقت مجددا وصحت بالتكبير، طلقة تلو الأخرى، لم أعد أرى أي شيء، لم يكن هذا مهما، إن الدبابة التي سقطت ستطالني قذائف التي تليها! أطاحت القذائف المضادة بالحائط الذي كان خلفي، احترقت الأشجار، صرت مكشوفًا، أدركت أنها لحظاتي الأخيرة، تمنيت ديمة في الجنة، وأغلقت عينيِّ!

«أبي الوطن أمي الوطن
رائدنا حب الوطن نموت كي يحيا الوطن
يا سيدي انفلقت حتى لم يعد
للفلق في رأسي وطن
ولم يعد لدى الوطن
من وطن يؤويه في هذا الوطن أي وطن؟
الوطن المنفي..
أم الوطن؟! أم الرهين الممتهن؟
أم سجننا المسجون خارج الزمن؟! نموت كي يحيا الوطن
كيف يموت ميت؟ وكيف يحيا من أندفن؟!
نموت كي يحيا الوطن كلا.. سلمت للوطن!
خذه.. وأعطني به صوتا أسميه الوطن
ثقبا بلا شمع أسميه الوطن قطرة إحساس أسميها الوطن
كسرة تفكير بلا خوف أسميها الوطن يا سيدي خذه بلا شيء
فقط خلصني من هذا الوطن
نموت كي يحيا الوطن
يحيا لمن؟ لابن زنى
يهتكه.. ثم يقاضيه الثمن؟!
من بعدنا يبقى التراب والعفن
نحن الوطن!
من بعدنا تبقى الدواب والدمن
نحن الوطن! إن لم يكن بنا كريما آمنا
ولم يكن محترما
ولم يكن حُرا
فلا عشنا.. ولا عاش الوطن!»

أحمد مطر

بدر الأورفلي

شيء من غضبي يتحرر وأنا أضغط الزناد، السلاح الذي صار جزءا من ذراعي، جزءا من انتقامي، الطريق إلى القصاص، السلاح يطمس المنطقة الرمادية، لا رمادية في العدالة، ولا رؤوس لتحقيق العدالة في هذا البلد المتهالك، فقط هذا السلاح في يدي، هو أولى خطوات العدالة! أحلم برؤوس متفجرة وبطون مبقورة تتدلى الأحشاء منها، أحلم بغضبي متجسدا في تحطيم كل شيء، تمزيق كل شيء! أصحو وجسدي يمتلئ بالحماس والطاقة، كنت الأسرع في عبور مراحل التدريب، وقطعا سأكون الأكثر توحشا على الأرض، أينما سرت، وتطلعت إلى زوايا الشوارع، أتخيل ضحايا فيها، ضحايا انتقامي، سيبكون، سيندمون، سيتوسلون، فقط عند التوسل يصير للسحق لذة تفوق لذة القتل!

لكل فعل رد فعل، ومن ظُلم لا يسأل عن شماتة أعدائه، وليس له أن يندهش من موت قلوبهم في انتقامهم! لا ترفع يدك بصفع غيرك، ثم تندهش إن رد لك الصفعة بطعنة! للظلم رد فعل، لكنه لن يكون مساويا له، يكفيني أن أعرف نوع الأسلحة التي سيستعملها الفجرة في قتال المدينة، في قتل الناس، يكفيني أن أسمع بنفسي الأوامر العليا هم

باستباحة الأموال والأعراض، كل شيء مباح في سبيل النصر!

من هو الأكثر انغماسا في القذارة، من يأمر بها أم من ينفذ الأمر؟

إذا ألغينا العقول ومسحناها بأحذيتنا، فكيف سنسلخ من الإنسان إنسانيته؟ منفذ الأوامر مجرم في نظري أكثر من قائلها، لأنه هو الذي يحمل السلاح، هو الذي ينظر في عين الضحية قبل أن تسيل دماؤها، هو الذي إن خيروه بين إنسانيته وبين عمله، اختار عمله، زارع الفكرة ومنفذها، طارح الفكر ومنفذه، الآمر والمأمور، كلاهما استباح الغير، وكلاهما على أرض انتقامي سيباد بلا ذرة رحمة!

ربت على كتفيِّ راف الله، الغضب يغيّر الملامح، الانتقام يذيب المنطق، راف الله الذي ندم أني لم أنضم للجيش من قبل المجازر، ينظر إليَّ بعين المستقبل، إنه يخاف، يخاف الشيطان بأعماقي، وكأن هذا سيصنع فارقا في ظل كل تلك المهازل! سيف بلا غِمد، هكذا كان يسميني، يا شيخنا، الغمد لم يكن مقاسي، لم يكن لي، كنت أفكر بشهد حين أخبرني بضرورة زواجي من نبأ!

تظن أن نيلي امرأة سيخفف من وطأة رغبتي في الانتقام يا شيخنا؟

ليس كل الحب علاج، بعض الحب جحيم، بعض العطر يخنق، وكثير من الشوق يبلي الصبر في الفؤاد، الصد يبلي السماح، وقد بُليت في الطيبات يا شيخنا! قاطعني بحصوله على موافقة نبأ...

أخبريني يا شهد، هل ستكتوين بالغيرة إن رأيتها في أحضاني؟ إن احجمتُ عنك ستأتينني؟ مهلك يا رجل استنال امرأة لتثير قلب الأخرى؟

سألت الشيخ أن يعيد كلامه، فأخبرني أن نبأ تريدني زوجا، لأنها فقدت كل شيء! لأن نفسها ما عادت ذات قيمة! أحتاج أن أراها مرة أخرى. تركت الشيخ واختزلت الخطوات حتى وصلت إليها، شددتها إلى عينيّ، أحتاج أن أدخل لأعماق امرأة واحدة لأفهم، كيف يكون العشق

بداخلها؟ لقد قالتها لي مرارا وتكرارا، أنها تحبني، لكني أحتاج للنظر فيها. نظرت في عينيها لفترة لا أعلمها، لم أر سوى صورتي، أصابعها التي استقرت على مِرفقي، تتوسلني، قلت لها:

ـ سنتزوج الليلة.. أتفهمين؟

كانت متعلقة بعينيِّ فلم تقرأ شفتيِّ، أعدته وأنا أهزُّها، أمسكت بي محاولة تهدئتي، كانت سعيدة ومندهشة، مستغربة وخائفة! يجب أن تخافي حين تفرحي يا نبأ، في عمق الفرح فخ كبير للحزن، يجب أن تخافيني كما تحبيني، ربما لا يجب حتى أن تحبيني!

أقسم عليّ راف الله بأن أضع الله نصب عينيَّ فيها وفي المعركة، أقسم عليّ أن أساعدها وأحميها، وأن أدلها على الطريق الصحيح، لأكسب بها ثوابا ـ على حد قوله ـ دفعت يده وقلت:

ـ أتريدني أن أنكح امرأة للثواب؟ أهكذا تنظر للمرأة ياشيخ راف الله؟ لست بحاجة للثواب لأحب امرأة!

ـ أستغفر الله العظيم، استغفِر ربك يا بدر، كل شيء نفعله خالص لوجه الله، نقاتل لوجه الله، لا خير في عمل إن لم تكن نيتنا لله.

ـ أما أنا فإني أعمل لنفسي، لست مضطرا أن أفعل كل شيء لله، إني أقاتل لأنتقم لمن قُتلوا، وهذا ما أفكر فيه.

غضب الشيخ، وبسمل، وحوقل، واستعاذ، وغضب وأحمَّر وجهه، وطفت عروقه على سطح جلده، زجرني بالكلام الذي لم أسمع، فقط تناهى إلى مسمعي آخر جملة قبل أن يرحل:

ـ حين يحاسبك ربك على أفعالك، أستقابله بنفس العنجهية والتكبر، وتقول له لا تحسب عملي، فأنا كنت أعمله لنفسي؟! اغضب كما تشاء ونفِّسْ عن غضبك، ولكن لا تقطع خيط بينك وبين رحمة الله، إن لم تحترم الله ودينه وتعاليمه، فلا تنتظر شيئا في هذه الدنيا سوى الخزي، ما كان

يغنيك عن سوء الخاتمة مثل أولئك القتلة الفجرة سوى تدبير الله، فعقلك الواقع تحت تأثير الانتقام الآن، لا يميز الخبيث من الطيب، بل لا يميز أي شيء، لو أنك كنت في جبهة القذافي لَمَا كنت أفضل من أحقر مجرميه!

التفتُّ إليه بقبضتي، كادت تصيب وجهه، رأيته، كان الشيخ راف الله، شعرت بالذنب يوخز مؤخرة رأسي، لم أتمكن من التطلع إلى وجهه المعاتب، هذا العجوز الخرف، ساد الصمت لثوانٍ، ثم قال:

ـ كما قلت، تهت عن طريق الله، فطال انحرافك عن المنطق والحق، لا تميِّز بين مجرم وصديق، بيننا وبين الموت لحظة، طلقة، وأنت تدفن رأسك في مستنقع التمرد والنكران! سلِّم أمرك الله وارضَ بقضائه، لا شيء يجب أن تتعلمه من موت كل هؤلاء، سوى أن الموت في مكان ما هنا قريب جدا منك، لا تفكر إلا فيما ستكون عليه حين تُقبض روحك! هذا شيء يجب أن يجعلك لا تفعل أي شيء سوى بنية إرضاء الله.

ـ حسنا، سأمزق الأحياء إرضاءً لله!

قلتُها دون أن أقدر على مسح ابتسامة السخرية عن وجهي! الموت والحروب والاحتياج والوحدة والصراع، أبواب في النفس تؤدي فقط إلى الدعاء لله، لماذا لا يستقبل الناس الأمور في حجمها؟ ولماذا يحولونها دائما إلى الدين؟ قاطع حواري مع نفسي راف الله، وقال:

ـ فليهدِك الله يا ولدي، فأنت الذي ستُحاسب وأنت الذي سيندم! لا تقنط من رحمة الله، ولكن إياك أن تشكك في عدله وحكمته وتتحداه، هو من خلقك ومن سواك، سِر مع مجرى الحياة، وأصلح بقدر ما تستطيع، لكن غضبك على الله لن يضره في شيء، لن يضر سواك، وأنت في أمسِّ الحاجة لرحمة الله.

دفع الثياب إلى يدي، وربت على كتفي. كرهته كثيرا في تلك اللحظة، كرهت كل شيء، لم يعد في قلبي شيء يا شيخ، لم يعد هناك سوى المقت،

المقت هو الذي يغذيني، هو الذي يبقيني حيا، فلو استسلمت إلى الحزن، إلى الشوق والحب، سيفضي بي إلى الفقد، وسأغرق هناك ولن أعود! لا تعظ ياراف الله، لا تعظ قبل أن تفهم قبل أن تسمع، لا تعظ الخسران، قبل أن ترد إليه ما خسر! اتركني مع وجعي وارحل، اتركني مع الثوب الذي سأحتفل به بامرأة، لعدم قدرتي على الحصول على الأخرى!

حين أقف أمامها وأطالعني فيها، أدرك أنها التي كانت مخلوقة لي من البداية، لكني لم أردها، أردت الأخرى! بقدر ما تناسبني، بقدر ما تشبهني، بقدر ما أرغب فيها، بقدر ما أزهد فيها، أمسك بأصابعها مترنحا بين الرغبة والزهد، أكاد أغرق في عشقها المتموج والذي يضفر أصابعي بأصابعها! رددت خلف الشيخ وزوجتني نفسها، وقلت فيها الشعر، غنيت وتغنيت، مِلت عليها وأشرت إليها بإصبع الحب، وشهد تقف خلفها، تطالعني بما فيّ من خزي، هل ستبقين هنا؟ هل ستبقين تذكريني أبدا بالأمس والحاضر وتجعليني أرفض المستقبل؟ لم أنظر إلى شهد يوما على أنها امرأة، مجرد امرأة، لم تكن هدفا، لم تكن فقط حبا، كانت وطنا، كانت حياة، شهد كانت المعنى الحرفي لكل شيء!

تفتحت مسامي بالرغبة وأنا أنزع بتلات العذراء التي تغطي مركزها، الجميع رحلوا، وتركنا الليل نتدثر بظلامه، نسيت الكل شيء في مذاق الحب الخالص الذي أذاقتني إياه نبأ، تلك المرأة التي لم تتعلم كيف تكون امرأة، هي فقط كما هي، خليط بين أمور كثيرة، تثير في نفسي رغبة في تمزيقها واحتوائها في آن واحد!، لم أستطع أن أحدد ماهية نفسها، أهي ضعيفة أم قوية، أهي مقاتلة أم مدافعة، أهي طلقة أم درع؟!

لم أفهم نبأ، لكنها فهمتني، لم ترد شيئا بالمقابل، منذ أن اقتلعتها من قتل عبد الله، منذ أن انتهكت وأفضتْ لي بانتهاكها، منذ أن سكنتها وسكنتني، لم ترد سوى تلك اللحظة التي لا يمنعني عنها شيء، أرادتني كما أردتها!

تناغمنا حتى ظننت أننا حقًا صرنا واحدا! ضحكت في أحضانها، وتمسكت بعنق البكاء، وبقيت أصابعها تتغلل شعيرات رأسي، كلما ثرتُ، غازلتني بضمي أكثر إليها!

هذه المرأة لا تعرف سوى ما لا يجب أن تعرف، هذه المرأة لجامي، هذه المرأة خلاصي، أردت حقًا العودة، العودة لأحضانها، شيء فيها يؤجل قنبلتي الموقوتة في أعمق أعماق نفسي، وجعلني لأول مرة أدرك أن للحياة طعما، نسيت شهدا، لم أحاول أن أتصل بها، لم أذكرها، لم أتذكر رقمها، تلاشى وجهها في شهقة احتياج من نبأ، في ضغطة ذراعيها لاخفائي فيها، احتمينا ببعضنا والموت يقف على عتبة خلوتنا!

ماذا يعني أن تلمس امرأة للمرة الأخيرة؟ ماذا تعني المرة الأخيرة في كل شيء؟

هل تكسبها طعما حلوا أم مرا؟ وهل من جمالٍ يطغى على جمال سيختفي في الثانية التالية؟

الانعتاق من الأبدية، أكثرية اللحظة التي تكررها تفقدها وجهها، إن لم أر وجهك مجددا يا نبأ سأفرح، لأنك ستبقين وجها لم يتكرر، لم يعد، لم يُملّ! ربما ما كان يجب أن أتزوجك، ربما كان يجب أن أغتصبكِ وأنتهككِ، وأقتلكِ، ربما هذا ما فكروا فيه حين وجدوكِ، ربما لا أختلف قط عن مجرمي القذافي كما يقول الشيخ راف الله، ربما لا علاج ولا علة، ربما كلمة لا صارت وطني الجديد!

لم أغفُ، ولم أتردد في تركها تنزلق مني حين نهضتُ، على الرغم من تشبثها بي وتكرارها أمامي ألا أموت! استطاعت أن تغفو، لا تزال تملك من المنطق شيئا في نفسها لى الرغم من كل ما صار لها، جعلها تنام!

لا نوم في حضرة الموت، يا نبأي ابقي ها هنا، حتى يأتيكِ نبأي، القتال ليس مكانا للنساء، لأنها تملك فيه من براءة يجعلها تنام، وأنا ما استطعت!

ما إن خرجت من غرفتنا، حتى شعرت أني خرجت من حجر عشق، إلى صقيع الحياة، تدثرت بغضبي، وعدت إلى قاعدة الكتيبة، لست أذكر كم غبت، ساعتين، ثلاثة، عمر كامل عشته في ساعات معدودات، كنت أمتهن فيها الحياة، بينما كان الموت يحصد غيري!

علمنا بدخول دبابات العدو من بوابة القوارشة، علمنا بسقوط دفاعات الثوار، هرعنا إلى هناك، التففنا حول أذيالهم، وعاينًّا الخسائر، أول خيوط الشمس كان يمسك برؤوس الدخان الخارج من الأشجار المحترقة، تصرخ لأشلاء من ماتوا ومُزّقوا تحتها!

وجوه أعرفها تدربت معها وصاحبتها سنوات عمري، لم تكن وجوها كاملة، كانت أنصاف وجوه، والأنصاف الأخرى ذابت! سئمت تجميع الأشلاء، سئمت الخسائر!

وقعت عيناي على سيارة بيضاء مهشمة بشكل كامل، لم يعد هناك وجود للعجلات، وبركت فوق الأرض حتى تشعر أنها تُصعّر خدها للتراب، فوقها كلاشنكوف أعوج الفوهة، خيال أسود متفحم! أدركت أنه هو دون أن أقترب، دون أن أتفحص قبح الموت في جسده، أدركت أني سأواجه أبيه بفقد ولده الثالث والأخير، في معتقل آخر، معتقل اللاعودة!

بكى الشباب من حولي، ودعوا الله بالرحمة للشهداء، كبّروا كثيرا، استكانوا وانكسروا، موت الأحبة مِطرقة تكسِر العزة فينا، باهي كان متفحما أمامي، ماذا حرقوا سوى خلايا من حب؟ لقد كان رجلا مخلوقا من حب، ربما تكون الوحيد على وجه الأرض يا باهي، الذي استدعى الموت فأتاه، فالموت لا يجيء وقت ما نحبذ، أراهن أن موتك كان خاطفا قبل زوبعة الألم، فلقد تجمد جسدك على وضعية الذهول، مهما واجهنا الموت، وسِرنا بمحاذاته نذهل حين نتطلع في عينيه، سيبكي أبوك ملء

الكون، سيدفن الأمل في تربتك، سيفنى، أكان يجب أن تموت؟

قطعنا جسد الأفعى لنصفين، فصار رأسها داخل المدينة، وذيلها في أطرافها، الكلاب ثقبوا الشوارع بالقذائف وحرقوا الأشجار وفتتوا السيارات! ما بين الصحراء طريق بنغازي حتى داخل فمها، كانت الجثث على طول الطريق! طول مطارتنا للمنسحبين رأينا بعض سكان الأراضي الزراعية المجاورة وقد انتُهكوا وقتلوا، حتى الماشية والظباة قُتلت، كانوا يتباهون بقوتهم على طول الطريق إلى بنغازي بكم من قتلوا، وبكم ما سرقوا، وحملوه في سياراتهم ودباباتهم، ويجرؤون على إرسال فيديوهات إلى قنوات العالم بأنهم يوزعون الخير على المواطنين في طريقهم إلى المدن التي يحررونها من بطشنا! بل إنهم جلبوا شهودا على أن كل الثوار إما من الأفغان أو المصريين أو العرب، ليسوا ليبيين، بطاقتهم الأخيرة اقتلوا واحرقوا واغتصبوا، ثم اخرجوا للعالم منتصرين منقذين للأهالي من بطش الأفغان الذين يتحدثون الليبية!

لا لا تطارد سفاح منسحب لتخيفه، طارده لتبيده، لم يكن بإمكاننا تركهم يعودون، ولا يعيشون، أطلقتُ القذائف وسحقت ودمرت، صوت الدمار يهز اليأس في نفسي، صوتها هو سيمفونيتي الخاصة، كان يجب أن أنتهي بسرعة، كنت أصرخ في الشباب، بسرعة بسرعة، وكأننا يجب أن نلحق الموت قبل أن ينسى!

أجهزنا عليهم ولحقنا بإخواننا في المدينة، رأس الأفعى كان يتجه للمحكمة، رمز الثوار، ليبيا الحرة المنارة، ونحن صنعنا لهم كماشة، من خلفهم ومن أمامهم، ومن أوصال الشوارع طافت الدماء، لا تتركوا منهم أحدا! الرصاص دموع النوافذ، الرشّاش يخترق الأجساد والحوائط ويرسم عليها الفوهات، سقط الشباب واحدا تلو الآخر، تراجعنا إلى كوبري طرابلس، أدركنا أننا هناك خسرنا نقطة، وأن علينا دفعهم عميقًا

إلى عمق القبر حتى نرمي عليهم تراب النسيان وللأبد!

حين يصحو الضوء سيكثف الناتو الهجوم، وها قد قاربنا الظهيرة وتأخرت القوات، أنياب الأفعى أقوى من سكاكيننا! انسحبنا لننظم الصفوف، تناثر القناصون فوق الأسطح وخلف السواتر، جاءنا الرصاص منا فينا، هناك خونة، لم أفهم أي شيء، من أين يأتي الرصاص، أين تقف أقدام الموت تحديدا، أمامي أم خلفي، في عينيِّ صديقي أم عدوي؟

الشباب يكبرون ويطلقون القذائف، والشباب الذي شاركنا ـ دون تدبير ـ بقذائفه المعدة منزليا، يرمي القذيفة ويشعل النار في وجه عدوه، ثم يرفع إصبع التوحيد، تزاحمت سيارات الملاكي الملحومة في الكلاشنكوف تطلق دون أن يسأل السائق نفسه أين طريق العودة؟ سائق ومصوِّب ومصوِّر على كل سيارة، لأول مرة أرى الأسفلت أحمر، توقعنا هجوما مكثفا، انتظرناهم عند الحوائط الشاحبة خلف الكوبري، عند جامعة فاريونس أتونا، الأهالي والشباب غير المدرب يفعل ما بوسعه، ليسد الشوارع!

أصوات مذياع المساجد يلهب النفوس بالدعاء والتكبير، محطات البنزين تمتلئ بقنابل يدوية تنتظر إشارة البدء، كنا ما يقرب مئة جندي، في الأزقة، نخرج رؤوسنا لنطلق، ثم نعود لنختبئ، نسير بمحاذاة الشارع، ونُميل البنادق ونطلق الرصاص، ويحدد العدو مكان وجودنا، فنجد قذائف الموت تأخذنا في أحضانها، نسعل في عواصف التراب، وترتمي أجسادنا على بعد أمتار من مكان القذيفة حتى ننسى أين كنا نقف، ومن كان يقف معنا!

نعرف الخونة بين الوجوه، لا حياة لخائن ولا فرصة أخرى، أن أقتل خائني أبشع مما أقتل عدوي، قتل منا معظم الشباب، لكننا قتلنا قرابة

الألفي جندي! ألغام الطريق فحّمت دباباتهم، سمعنا باقتراب كتيبة أخرى من ولوج بوابات المدينة، بقينا في الكرّ والفرّ لساعات حتى اقترب العصر. استهدفنا عربات الذخيرة، واستهدفوا منا المشاة، لم يطلقوا على النوافذ التي كان يستعملنا قناصونا لقنصهم، بل كانوا يطلقون على المبنى ليتهاوى فوق رؤوس مَن فيه!

رأيت الدعاء يفرد جناحيه ويصعد للسماء، رأيت وجوه الشهداء الباسمين في سيارات الملاكي، التي خرجت لتحملهم على كراسيها وأجسادها الخارجية، رأيت عبد الله يركض بين الرصاص ليسحب جثث رجالنا، كنت أعلم أن القتل ليس صنعة يمكن أن يتقنها، كنت أعلم أنه يجب السير داخل الحائط وليس حتى بجواره!

رأيته يصرخ باسم نبوس، سقط الأحمق كما تنبأ، خرج من مخبئه ليلقى الموت واقفا، لقد قطع القذافي طرفين من أطرافي، نبوس وباهي، يظن الموت أني سأصمت وأستكين وأنكس رأسي في الأرض، لتتساقط الدموع إلى مجراها وتدفن معهما، لن أدفنهما والدموع تملأ وجهي، سأدفنهما باسما بعد أن أسحق من ناولهم للموت!

عند العصر، ارتفعت طائرات الناتو، جاءتنا أوامر بالانسحاب من أرض المعركة، لن أنسحب، هذه أرضي! تراجع الرجال وهم يصيحون، انفجار تلو انفجار، أهداف محددة، طائرات بلا طيار، قتل بلا رحمة، هكذا كان يجب أن يموتوا، هكذا أريد أن أتطلع إلى وجوههم، عبد الله شدني؛ لأن مهمة المشاهدة قد تكلفني حياتي، لكن عيناي التقطتْ جنودا يتخلصون من زيهم العسكري، ويرتدون ثيابا مدنية تحتها، كانوا يعلمون، أنهم سيهزمون، لكنها الأوامر!

متى كان لقاء الحتف أمرا إن لم يكن في سبيل الانتقام؟

أدركت أنها اللحظة التي عِشت من أجلها، قبضت على سلاحي،

وتتبعتهم، لحقت بي توسلات عبد الله، سار خلفي بغية منعي، لن يمنعني شيء هذه المرة، رأيتهم ينسلون داخل أحد البيوت، سمعت أحدهم يقول للآخر متباكيا:

ـ ما الذي جاء بنا إلى بنغازي؟ ندخل الجحيم بأقدامنا؟ كيف سنخرج الآن من هنا؟

ابتسمت بتشفٍ، هممت بالخروج، فأمسك عبد الله بسلاحي، أشار إليّ بالعودة، دفعته، خرجت عليهم، ما إن تطلعوا إلي عينيِّ حتى رفعوا أيديهم يصرخون بالحياة، رجالنا ونساؤنا، شيوخنا وأطفالنا، الجثث، باهي، نبوس، جسد نبأ وخدوش الاغتصاب التي لوثته، أردت أن أقطع أيديهم المرفوعة بالاستسلام! لا استسلام بدون قصاص، لا صلح، لا مسامحة، لا سبيل إلى الحياة سوى الموت، أطلقت الرصاص في صدورهم ووجوههم وعيونهم، وأصداغهم وأرجلهم وأطرافهم وبطونهم، كنت أرفع الرشاش وأنزله، كنت أسمع عبد الله من خلفي يقذفني بالشتائم يسب ويلعن، وهو يقول:

ـ إنهم عُزَّل.. توقف! توقــف يا كلب!

لم أكن أريد أن أتوقف، لم يعد يهمني الشرف، لم يعد يهمني أي شيء، سيموتون، هذه هي الحقيقة الوحيدة، هذا هو القدر، هذا هو القصاص، سقط الاثنان وصارت أجسادهما بلا معالم! مهلا أما كانوا ثلاثة؟ تطلعت إلى الركن، كان هناك يصوّب المسدس ما بين عينيِّ، مسدس واحد، فوهة واحدة، تتطلع إليّ بشفقة، ونظرة حاملها يقول لي، اذهب إلى الجحيم!

«أيُّ هرب ما دامت الأشياء تسكننا، وما دمنا حين نرحل هربا منها، نجد أنفسنا وحيدين معها وجها لوجه»

غادة السمان

شهد صادق

الاختناق يحتاج إلى عناق، ما إن يطبق العالم ذراعيه حول قلبي، حتى أختبئ منه بين ذراعيّ أمي، أغلق عينيّ، وأبقى هناك حتى ينقشع الوجع. أتحدث حتى يظن الصمت أن روحي محرّمة عليه، تبقى أمي تستمع وهي تمسد شعري، تستمع إلى معاناة أعيشها ومعاناة اخترعها، تصير ردودها كمنحنيات النهر، التي توصل كلامي إلى مجراه الصحيح المفضي إلى أعمق نقطة فيّ، أمي الكائن الوحيد الذي يعرف كيف يستمع، وكيف يحتضن، وحدها تفهم لغتي في العناق والقبلات، فإن حروفي قُبل، واحتياجي قُبَل، لا سبيل للحديث إلا بلغة الحب، لا سبيل لفهم حديث إلا حين يخرج من بؤرة عناق، ويتخلله القبل!

لا إنسان أحدثه كما أحدث نفسي كأمي، كنت أخبرها صراحة أني أتمنى لو أنها تتبدل بعبد الله، لو أنه هنا ما بين ذراعي وقلبي، يُفضي لي بما في قلبه، أتمنى لو أنه يغمض عينيه ويستريح، فهو في معاناة دائمة، إن لم يكن مع الحياة فمع نفسه، ويقابل الصراع بالصمت ويخاصم التذمّر، ولكني أرى النار في مكان ما خلف ظلال عينيه، أحس أحيانا وأنا أرقبه أني أراه من الداخل! كنت أخبر أمي كل هذا، وكانت تسمع وتبتسم

وتشعر وتتمنى أن تتحقق أمنياتي، بل إنها تسألني إن كنت قد استطعت الوصول إليه للاطمئنان عليه، إن كان قد أجاب اتصالاتي، وكنت أشعر بملامحها تنقبض كما قلبي حين أجيبها بالنفي، أمي التي خرجت منها وصرت روحها في جسد آخر، بشعورها بي أخمدت الكثير من اليأس في نفسي!

حاجز الصمت الذي أقامته رواسب من اليأس والشوق نَمَا بيني وبين نفسي، فكان يعجزني عن الكتابة، أراقب الفصول التي كتبتها، أراقب الشخصيات التي أحييتها والتي دفنتها، أراقب نفسي في حروفي، وأتساءل:

هل هذه أنا؟

أراقب العالم الذي رسمته والعالم الذي أعيش فيه، أو ربما لا أعيش! أحيانا أحس أن الواقع رواية، وأن ما أكتب هو الواقع، أخاف نهاية ما أكتب واكتشف أني غير قادرة على معرفة حقيقة النهاية التي سأضعها، لأن حديث النفس لا نهاية له ولا سطور ولا صفحات، كلام الروح ضجيج اللامنتهى، وفي لحظات يأس أنسى ما الذي أردت قوله، ما الذي كان يجب أن يقال، وأجدني لا أعرف الشخصيات التي أخرجتها من روحي ومن حياتي، لا أكاد أتعرف عليهم! تتراقص الأهداف والمعانى، حتى تتزاحم ثم تتساقط، وأنسى، وأنهار، وأريد أن أطيح بكل ما كتبت، فتأتيني صورته وهو هناك، لا يزال هناك، وهو هنا، دائما هنا، يمسك بكتابي، يقرأني على مَهل، يبتسم، يشتاق.

أدرك أن رومانسيتي حالمة بدرجة مفرطة، وأني لست منطقية حتى في أحلامي، ولكن فلتصدقني يا آدم الفؤاد، أني ما إن عجزت عن الكتابة وتذكرتك، وتذكرت معاناتك، وعنادك، وسأمتُ شوقك، حتى تنثال الحروف من أصابعي دون أن أملكها، الهاتف الأخرس لا يثنيني، أسمع كل يوم عن بيت يُهدم، امرأة تترمل، طفل تتمزق براءته عند حد الإنسانية

هناك، في نار أرض ليبيا! أذهب كل يوم إلى الجاليات الليبية، أترك روايتي التي كنت أكتبها وأحاول المساعدة بقدر ما أستطيع، أساعدهم ليساعدك أحدهم، أمدُّ لهم اليد التي مهما امتدت لا تصلك، أمدُّ يدي إلى قلب كل امرأة هاربة، وأغرف من حزنها وذكرياتها ما يشبع كوابيسي، يتشرد قلبي على أعتاب القلق، كلما أضافت نازحة ليبية تفصيلة جديدة للوحة الخراب الليبي في نفسي!

كل شخص هرب لا يدري حتى الآن إن كان قد نَجَا، أم من ماتوا هناك هم من نجوا! شاشات التلفاز تعرض الخسائر في الأرواح والأوطان الصغيرة المتمثلة في الشوارع والمتاجر والبيوت، فيتساقط الآملون في العودة، في خندق اليأس! إن الشاشات تنقل الفواجع بحيادية أقرب للتشفّي تحرق قلوب المعنيين بها، لم يستمع إلى هذه الأخبار، سوى الليبيين أنفسهم أو أهالي المصريين العاملين هناك، أو كل من له مصلحة هناك.

لم أستطع استيعاب فكرة أن تكون دولة شقيقة بيننا وبينها تراب، مجرد تراب، بها مسلمون عرب، أكثر العرب شَبها بنا، يموتون بالرَّشَّاشَّات والقذائف والطائرات، ونحن نغض أبصارنا عنهم، وقلوبنا عنهم، والإعلام غارقٌ بالكامل في المصالح والصراعات الداخلية المحلية! كان ينتابني الذنب وأنا أفرح، كنت أشعر أنه ليس من حقي أن أفرح، أو أشعر بالأمان، بينما يوجد مسلم عربي آخر في مكان ما لا يماثل حاله حالي، ربما لن أسعد قط إن فكرت بهذا الشكل، كل من يعرفني شعر أنه ما عاد يعرفني، ما عاد يستسيغني! أغرق في عزلتي وأقدِّسُها أكثر كلما صدمني البشر بما يؤمنون به، ويتناقض هذا مع أفعالهم!

إذن، لا سلطان لعقيدة أو هوية أو مبدأ أو قوة في أي وطن، إن السلطة الحقيقية في يد المصالح، وإن المنادي بالشعارات لا يدرك ما يقول طالما لم

يتكلم حين وقع الظلم على غيره، الشعارات والمبادئ تنتهي صلاحيتها حين يطالنا الظلم، لتُقطع ألسنتنا إن كانت لا تصرخ إلا حين تتراجع مصالحنا الشخصية! كنت أراقب الحرب الدائرة على «الفيسبوك» وفي التلفاز وفي الشوارع، وفي غياب الأمن، وفي تودد الشرطة لشعب دعسهم وبصقهم، كنت أرقب الجميع يقول نفسي نفسي، كنت أرقب أرض التحرير تُقسّم ويصير ترابها مصالح فاصلة كالأشواك، كلما قصر الطريق للكرسي كلما انقسمت الأحزاب، وتوالدت التيارات المختلفة، حتى ما عدت أستطيع عدها!

لماذا اختلفنا؟

إن كنا قد ثِرنا ضد فساد واحد، ولماذا وثقنا فيمن لا يستحق الثقة وسلمنا له وطنا دفعنا دمنا ثمنا لتحريره؟

أتذكر حين نهضت من سريري لأدلي بصوتي في الدستور، حين وقفت لأول مرة في حياتي في طوابير من المواطنين، الذين وقفوا على أعتاب إرادتهم، يحققونها بأيديهم، يحسون بطعم وطنهم الذي يشاركون في قراراته. سألت نفسي يومها ما معنى وجودي هنا، وتبادلي الآراء مع من حولي دون شجار، ما معنى أن يكون لي رأي، ما معنى أن أكون مُخيرة لا مقهورة، وأن أرضى بالنتيجة؛ لأنها ستكون معقولة لا مزيفة؟!

قلت لنفسي يومها إني لن أقبل بشعور أقل من هذا، ولن أقبل أن أعود إلى سنوات التزوير، سنوات الوطن الذي ما كان لنا، كما لن أقبل لأي جيل من بعدي أن يعيش قرارا يخص مستقبل الوطن لا يشارك فيه الجميع.

حين لامست يدي الورقة التي سأوقع عليها رأيي، رأي سيُأخذ به، وضعت الورقة في الصندوق وإصبعي في الحبر، ومضيت إلى حياتي، وكلي أمل أني أفعل الأفضل لوطني ليصير الأفضل لي، حتى أتاني ذاك الصباح

الذي وصلني فيه فيديو على صفحتي بطعنة أسموها كشوف العذرية!

البنات اللاتي كانوا يشبهنني، كنت أرى فيهن نفسي، كنت واحدة منهن لو قادتني وطنيتي للميدان يومها، لأجد يدا امتلكت الحق بالتلاعب بجسدي واختبار شرفي، فقط لأنها تحمل سلاحا وضعها في فئة سلطوية خارج المحاسبة! كل امرأة بكت وحكت، ولملمت ما تبقى كرامتها وإنسانيتها التي انتهكت في صدق شهادتها، شوهت حائطا في كرامتي، ربما كنت أحتاج هذه الصفعة، لأفيق من الاحتفال الزائف بأننا علي بَرّ الأمان، وبأن حالنا أفضل من حال الدول الأخرى، التي تحولت ثورتها لحرب أهلية، فما نحن فيه حرب أهلية من نوع أكثر قذارة واستتارة!

بدت لي كل برامج التلفاز وكل القنوات وكأنها دمًى واحدة ترتدي ملابس مختلفة، الكل يتفنن في إعادة صياغة نفس الشكاوى ونفس التهم، الزيف استقر وتوالد وزاحم الحقائق، فطردها! ظننت أن الثورة أصلا اقتلعت الفساد وأدواته، لكني أدركت أننا شيئا فشيئا نكتشف أننا نسبح في وحل، كلما وجدنا أرضا لنستقر عليها اكتشفنا أنها وحل أكثر صلابة، كلما قطعنا ذراعا للأخطبوط، وجدنا له عشر مكانها، تبلدت سماء الأمل، حتى بِت أحاول الهرب منها كل ليلة في أحضان أمي، وذكرياتي، ربما تعمدت صرف انتباهي عما يحدث في وطني بما يحدث في ليبيا، تابعت سياق المأساة في البريقة وزوارة، دعوت كثيرا ألا تسقط، العالم كله يراقب وينتظر ليرى ستكون الغلبة لمن قبل أن يتدخل.

بضع ليالٍ كانت تفصل بين الجحيم وبنغازي، بضع ليالٍ داست على الأجساد، وفرمت دفاعات الثوار حتى تحقق كابوسي الأعظم، سقطت أجدابيا والبريقة وزوارة، بنغازي تتعرض للهجوم، تتعرض للقصف، القذافي يلوح بقوته ويريد بنغازي راكعة حتى لو كان الثمن إبادة أهلها جميعا!

ليست مدننا وليست أسماء، إنها آلاف الحيوات، ليست مجرد مدن

داخل دولة، هي أوطان صغيرة دُمِرّت، أرقام الموتى يتزايدون، يكتبونهم كأرقام على الشاشات، وكل رقم روح، إنهم ليسوا رؤوس ماشية، إنهم واقعنا وحقيقتنا، حتى بعد فرض الحظر الجوي، ماذا ينتظرون؟ الناتو ليتدخلوا؟ كدت أجن وأنا أسيرة الشاشة والأخبار، جيئة وذهابا بين الموت والأمل، وسؤال واحد يطيح بي:

لماذا لم أكن معه؟ لماذا لم أذهب معه إلى هناك؟

لماذا لا يجيبني لا هو ولا بدر على الهاتف؟

امتدت صلواتي ودعواتي في ساعات القصف: يارب، انصرهم يا رب ارحِمهم! مواجهة الموت ليست صعبة على الميت بقدر ما هي أصعب على المحيطين به من الأحياء! كنت أدعو وتتوالى في ذهني صور من أحلام يقظتي ببيت وأبناء، وضحكات، وورد، نعم يا عبد الله، تخيلت بيتنا وأسرتنا، وتخيلت حتى أبسط تفصيلة في سجادة الصلاة التي سأضعها لك في ركن غرفة نومنا، التي سأصلي خلفك على أطرافها، يا رب احمه، لتزوجني به، لنسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا.

بنغازي كانت محاصرة بالموت، من داخلها وخارجها، لم نسمع أي أخبار حتى مساء اليوم التالي، حبست نفسي في غرفتي، وذكرياتي وابتهالاتي، أتدثر بالذكريات، أحاول طمأنة نفسي أن عبد الله لن يتدخل، سيبقى في بيته، ماذا لو قصفوا بيته؟ سيهرب، سيحمي نفسه لأجلي....

يرد عليّ عقلي: عبد الله رجل هادئ يحاول قدر الإمكان أن يطبق السلام في حياته، لكن لا تخدعي نفسك بأنه سيقف مكتوف الأيدي والناس حوله يموتون، سيشارك، سيقاتل، لا، لا يمكن! ألا تذكرين حين هبَّ لحمايتك، أجل، في ذلك القطار، كان يقف على مسافة تفصل الغريب عني، لا يتطلع إليّ، لكنه يلف وجدانه حولي، حتى حين احتل هؤلاء الشبان الكراسي التي تحيط بي، شعرت بجسده يتوتر، وبتعبيرات وجهه تتحفز!

حاولوا توجيه الحديث إليّ ونظراته تشي بقذارة ما في نفسه! كنت أضع الحقيبة إلى جانبي وما إن همَّ أحدهم برفعها من الكرسي ليجلس مكانها حتى تحرك نحونا كالممسوس، وجَّه إليّ الحديث بحميمية، فجمدني وأخذ الحقيبة من يد الشاب وجلس بجواري!

فهموا أننا زوجان!

فتجاهلونا ورجعوا لثرثرتهم وسخريتهم، وبقيت أدعو ألا نصل، وأن يمتد الطريق أبدا حتى يظل هناك جالسا بجانبي، يمسك حقيبتي، تتعلق بي رائحته، يحادثني صمته! طوال السنوات يحاول أن يثبت لي مرارا وتكرارا أني لا أعنيه، وأني لا أسكن قلبه، ولكن ما إن يضع الخطر إصبعه بقربي حتى يتناسى الموقف الذي كان حريصا عليه، أني أعنيه، شاء أم أبى!

كنت أتطلع إلى زجاج النافذة، ولا أراقب إلا انعكاس وجهه عليه، ووجهه المتضرج بحمرة الجرأة التي دفعته ليتصرف تصرفًا لم يعمل حسابه! كنت أتلذذ بتيهه، تعمدت فتح حقيبتي وهي في حجره، ولم يكن ليمتعض مع فرض أننا زوجان! أخرجت بعض الطعام الذي كنت قد أعددته لنفسي في الرحلة، قدمته له وقلت له:

ـ كُلْ يا حبيبي.

تفرجت على الحب وهو يقيم حفلة على كل خلية في وجهه، ابتسم، لم يتجهم، كانت جزءا من التمثيلية، فتح فمه وبدأ يأكل، حاول الانشغال بالطعام عن القنبلة التي أطلقتها في وجهه، وهو ينقل عينيه بين وجوه الشباب الذين وضعونا في هذا القالب، كان على التمثيلية أن تمتد حتى نزولنا من القطار وخروجنا من المحطة. حمل حقائبي دون كلمة، وساعد سائق سيارة الأجرة في وضعها داخل حقيبة السيارة، ثم تركني وذهب دون كلمة!

مهما ادعى الهدوء واللامبالاة، فهناك أولويات وأساسيات تعنيه لن يقف ثابتا حيال فقدها. نهضت من كرسي ذكرياتي وعدت لمتابعة الأخبار، قناة «ليبيا الحرة» تبث أشرس الخسائر، صورة نبوس المصور التي رُسم عليها ذاك الخط الأسود المائل على اليسار، مات؟ أتساءل بقهر.

يعيدون بثّ تسجيله الذي قال بلسانه إنه الأخير له، هل كنت تعلم يا نبوس أنك ستموت؟

هل للموت رائحة أو طعم في الحلق؟

أم له ظلال تتبع ظلنا؟

أعادوا بثّ خطاب زوجته للجماهير وهي تبكي وتعلن موت زوجها، امرأة صغيرة في بداية حياتها الزوجية، شاب لم يستطع السكوت وبنغازي تبكي، كم شاب مسح بدمه دموعك يا بنغازي؟ عُرضت أسماء الجنود ونسور السلاح الجوي الذين فقدوا حياتهم، صور البيوت التي هُدِّمت فوق أهلها، صور القناصين الذين تم القبض عليهم وإعدامهم!

أعلنت البنتاجون عن صواريخ التاماهوك التي أطلقتها أمريكا وبريطانيا على قوات القذافي التي لم تحترم الحظر. صور الدبابات المدمرة والمحروقة في شوارع بنغازي، صور المدنية وقد تحولت أشلاء تحت قدم العسكريات، السيارات مليئة بالجرحى.

النساء المتبقيات يخرجن إلى الشوارع يزغردن، يرفعن الثياب بألوان الأحمر والأسود والأخضر فوق الأسطح المهشمة، الرشاشات والدبابات المنشقة تلتف بالأوشحة الخضراء، والكل بينه شفرة واحدة، كلمة الله أكبر! يا الله! كم فرحت بفكّ حصار المدينة، كم فرحت بتدخل الناتو في الوقت المناسب، لم أفكر في كم دفع الشعب الليبي ثمنا للتدخل الأجنبي، لم أفكر في النفط الذي أريق على أزقة المصالح، فقط فكرت أنهم إن شاء الله بخير، فكرت بأنها مسألة وقت حتى أعرف حقيقة ما حصل لهم، حتى جاءني ذلك الاتصال.

شعرت أن وزني أثقل من أن تحمله ركبتاي، جلست على رصيف الشارع، لم أتحمل أن أقف، رجل قادم من ليبيا يدعى علي يحمل لي أمانة. أول حجر ينزلق من حاجز الصمت بيني وبين عبد الله، جاءني الرجل الأربعيني الذي فقد عمله والكثير من ممتلكاته هناك في بنغازي، أو هكذا قال لي شاكيا في الهاتف دون مناسبة للحديث، جاءني مستعجلا بجفاء، وبلا أي جمل رسمية ودودة وضع الكيس في يدي، وشبّك عدة جمل في بعضها لم أفهم منها شيئا سوى اسم عبد الله، ثم رحل، رحل وتركني أهوي مع ضربات الاحتمالات الأسوأ، لم يستمع لي حتى وأنا أناديه! فتحت الكيس...

كانت فيه تلك المسبحة!

شهقت، انفجرت باكية في الشارع، انتظرت طويلًا، لأبكي طويلا، لأستوعب، لأصدق، هل يعيدها لي لأنه لم يعد يريدني؟ هل هذه هي النهاية؟ أيقول لي: إنه لن يعود؟ ولكن لماذا اصطحبها معه؟ ولماذا كلف نفسه عناء إعادتها؟ إنها مجرد مسبحة، هل هي أكثر من مجرد مسبحة بالنسبة له؟ بكيت كثيرا على ذلك الرصيف وهي في يدي أفرك حباتها بأصابعي، بكيت وعيون الفضول ترقبني، تطوَّع بعض الناس لسؤالي عن سبب حزني، عن قدرتهم على المساعدة. لا أحد يمكن أن يساعدني الآن، وأنا أريده وهو يريدني، ولا سبيل لنكون معا، لماذا نعقد الأمور؟ لماذا يُصرُّ على تبني الأسى؟ لماذا لا يحاول؟ فقط يعطي للأمر فرصة؟ ولماذا بالله لماذا لا أستطيع أن أرى رجلًا سواه؟

عدت إلى غرفتي بخطى مثقلة بالحنين، فتحت الدرج الأخير وأخرجت تلك الورقة المجعدة، فردتها على مكتبي، وفتحت الكيس الذي لا يحوي سوى علبة فيها المسبحة، وورقة مقطوعة من دفتر، مكتوب عليها العنوان ورقم الهاتف. قارنت بين خط اليد..

لقد كان هو!

هذه الورقة أيضا كتبت بخط عبد الله، لقد كتب كل ما يخصني، إذن فهو يتذكر رقمي، يعرفه ولا يجيبه، لم يكتب لي حرفا، لم يواسيني، لم يودعني، لم يطلب لي أن أنتبه لنفسي، لم يقلها لي قط، ولكني تخيلت أنه سيفعل. هذه ورقة موجهة للرجل الذي أوصلني الأمانة، حتى لم يوجهها لي، قارنت بين الحروف وكأني محققة، كانت تلك هديتي الحقيقية، ورقة أخرى كتب عليها بيده، هذا كل ما سأستطيع أن أجمعه لقلبي لأقول له كان هنا، كان هناك حب، وكان هناك رجل، أنت لم تتعذب للاشيء، لم يكن هذا وهما، وهو في مكان ما هناك لا يزال حيا، لا بد أن يبقى حيا، لا بد أن يعود إليّ، حتى بعد اندلاع المعارك من جديد في أجدابيا ومصراتة والزنتان، حتى والمدينة تستعيد أنفاسها، وتُواري أولادَها تحت ترابها، يا أرض بنغازي، إنه مني، وأنا منه، فأعيديه إلي!

أتساءل لو أنه عاد هل سيتعرف على وجه مصر الجديد؟ وهي تحتفل بأول نتيجة تصويت تشبه النتائج في عالم بلا ديكتاتور، كيف كان سيقف أمام مبنى أمن الدولة وهو غارق في السواد وزبانيته يقفزون من نوافذه إلى حدفهم؟ تفوح منه رائحة الظلم المتفحم، كيف كان سيتحمل منظر توسلاتهم للحفاظ على حياتهم، كيف يصير شعور الإنسان وهو يرى رقبة ظالمه تحت حذائه؟ هل يشفى هذا جرحه؟ هل يقتلع الذل والهوان من جذوره؟ ولكن الذل لا جذور له، الذل وباء لا يعيقه سوى العدل، حتى بعد خروج مصر من محنة الفوضى، حتى بعد البداية من مسافة واحدة لكل الأطراف لا يزال الإسلامي يُهان، لأنه لا يسيء لسواه من التيارات، بينما تعتبر التيارات الأخرى أن الإساءة لغيرها نوع من أنواع الحرية، تغيرت السلطة، ولكن فكر الناس لا يزال متسخًا، حتى بعد أن شاركت كل الفصائل في رفع الوطن على قدميه، لا يزال التيار الإسلامي يُقابَل بالاستهزاء حتى في أي محاولة من متّبعيه لحل مشاكل الوطن!

رجل الدين هو الوحيد غير المسموح له بالحديث في شأن الوطن، هو الوحيد المطلوب منه أن يبقى سلبيا يحصر حديثه وآراءه في المساجد، يُسمع لكل الفئات بداية من العقليات العسكرية حتى سائقي التوكتوك بتكوين رأي سياسي ورؤية وتخطيط لما هو قادم، ما عدا رجل الدين الذي من المستهجن جدا عند الجميع أن يتقن أي شيء في حياته سوى كتب الدين التي درسها، وعلى الرغم من الثبات التنظيمي للتيار الإسلامي في الساحة السياسية، وتقدمهم الملحوظ، بقيت ألحظ أن المعركة معهم غير عادلة، بكمّ التشهير والاستهزاء بهم!

أتساءل كلما لاحظت هذا في وسائل الإعلام أو في الإنترنت كل هذا التشهير والسخرية: أين ادعاء احترام الآخر والاختلاف دون الإهانات، بل أتساءل: أين مدعو الاختلاف دون الخلاف من هذه الممارسات؟ ولماذا يُستثنى التيار الديني من هذه القاعدة دائما؟ لكني لاحظت أن الكثير من الرجال أطلقوا لحاهم، لم يُعدّ أمرا مستغربا، ولم يعد الملتحي يخاف على حياته أو على تعرّضه للتخوين أو الأذي من قِبل أحد، كنت أتساءل لو أن عبد الله عاد الآن، هل كان سيشعر كما نشعر، أن الوطن صار ملموسا بين يديه، هل كان سينظر في وجه مصر مجددا ويبتسم؟ أم أنه كان سيدير لها ظهره، لأن زبانيتها طردوه يوما ما؟

هل نسامح الوطن على حرقه لسنوات حياتنا، وأحلامنا وهويتنا؟

هل كان الوطن متسامحا بالأساس لنسامحه؟

أم أن مسامحة الوطن إجبار؟ واجب وطني آخر؟

لا تبكينا الأوطان لفراقها كما نبكيها، ولا تعطينا بديلا، ولا تبني لنا جسرا لنعبر فيه فوق خسائرنا، العمر خسارة لا تعويض عنها، حاجز يبقى بيننا وبين الوطن! لن تعود لمصر يا عبد الله؛ لأنها مصر، بل لأنها ربما ستعود مصر يوما ما، هذا فقط الأمل الذي سيجعلك تعود لأجله.

نحزن إن فقدنا الاتصال بمن نحب، لو أننا فقدنا الخيط الموازي لخيط حياته، ولكن فقدان وجوده من الأساس، أمرٌ لا سبيل لمقارنته! أن أنتظر في كل لحظة اتصالا من شخص لم يسأل عني، أو لم يجب سؤالي ليس مثل أن أنتظر اتصالا لأعرف إن بقي هذا الشخص على قيد الحياة أم لا!

لكن الموت له نكران يوجع!

ألا يكون هذا الشخص موجودا لتعود له في يوم من الأيام؟ إنه تِيه لا سبيل لعلاجه، لو أن عبد الله صار في عالم آخر لا أستطيع الوصول إليه، كيف يمكنني أن أتحمل ما تبقّى من سنوات حياتي؟ لو أنه ما نَجَا كيف سأنجو أنا من فجيعة موته؟ ماذا أخسر مقابل ألا أخسره؟ لو أن الحياة تقبل أن نقايضها بما لا يُزعجنا فقدانه، لكانت محتملة، العدل أيضا منطق، لا سبيل لفهمه أحيانًا!

اعتدنا الظلم في حياتنا حتى بات تحقيق أبسط أمور العدل مستهجَنا، إن كنا قد تربينا طوال حياتنا على العبودية والقهر، فهل كنا سنفهم أبجدية الحرية لنصنع منها جُملا تُدرك؟ وجود مبارك خلف القضبان كان به شيء من العدل غير مكتمل الملامح، نظرا للمعاملة الفندقية التي كان يُعامل بها، ولتحية الشرطة له ولأبنائه ووزرائه السابقين وكأنهم لا يزالون أسيادهم! قطعنا رأس الحية، لكن لدينا بعض الناس لا يزالون يعبدونها، لا يزالون يرون في ظلمها أفضل من ظلم آخر، الظلم والفساد الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه!

لم يُنكل به، ولم يتعرض لأبسط ظلمات الاعتقال، كان هناك متغطرسا حتى في سرير مرضه المزعوم، لا سبيل للمحة ندم يمكن أن تُرسم ولو حتى تمثيلا على وجه أي أحد منهم، ليس وجودهم خلف القبضان مفزعا بسبب هيبتهم، بل كان بسبب عدم قدرة الذين اعتادوا القهر أن يفهموا معنى العدل، وأن يستطعموا أسلحته في أيديهم! القاضي يحدثه

وكأنه لا يزال رئيسه، أدركت لحظتها أن المخلوع كان مجرد خيال مآتة للفساد، أرادوا إيهام الناس بتحقيق العدل عن طريق إدانة صورية له، لم أشعر بالفرح ولا بالراحة، لم أشعر أنه سيعاقب حقا، لم أشعر أن تلك هي النهاية، كانت تمثيلية واضحة، لكنها تمثيلية ذات طعم حلو، تمثيلية جعلتني أشعر أن لا محال في هذه الدنيا، كل شيء ممكن، وإن كان الظلم وقف متجسدا في شخصه خلف قضبان مزيفة، فربما يوما ما نستطيع أن نُطّهر الوطن، فيصير خلف قضبان حقيقية.

لم يمضِ في بالي خاطر في تلك الأيام، لم أكن أناقش عبد الله فيه في ذهني، كنت أفكر في كيفية تقبله لكل الأحداث التي تحدث والتي ستحدث، كنت أتخيل حتى تعبير وجهه حين يسمعها من فمي، كنت أتمنى أن أتأكد أني أعرفه معرفة كاملة تجعلني أتنبأ برد الفعل الذي سيصدر عنه حقيقة.

من السهل أن تقع في الحب، لكن من الصعب أن تفهم مَن تحب فهما يخلو من الحكم، يخلو من التقبل أو الرفض، مجرد فهم خالص، وكلما أطاح بي الشوق والقلق عليه، كلما أمعنت في معاركي الذهنية بينه وبيني في داخلي، التي كانت تبقيني راغبةً في أن أبقى حية! سأم الانتظار مني حتى ما صدقت عيني وأنا أرى رقما من ليبيا يدق على هاتفي، عدم استيعابي جعلني أتأخر في الرد أربع دقات، حين رددت أول مرة لم يخرج صوتي، حاولت مجددا ونطقتُ الكلمة:

ـ ألو؟ بدر؟ هل أنت معي؟

سمعت أنفاسا تتحدث، ألححت بالسؤال، مضت ثوانٍ طويلة حتى جاءني الصوت:

ـ السلام عليكم.

انحبس صوتي في حلقي، ما كدت أصدق، كان عبد الله، لماذا أخطئ

بينهما في اللحظة التي ما يجب أن أخطئ فيها بينهما؟! كم من الأيام انتظرت فقط أن يعطيني فرصة كهذه لانفجر في الحكي، وها أنا الآن عاجزة حتى عن الرد عليه:

ـ شهد... أعتذر لإزعاجكِ، أرجو أن تكوني بخير.

ـ حـ..... ـمـ..... ـدا لله

بكيت، وضعت يدي على فمي لأمنع الشهقات من أن تصل إليه، ينتابني دائما الخجل في حضوره، تهتز أنوثتي وتتوارى، فيتلعثم القلب، وتتعثر أبسط الكلمات في فمي، لم يكن وقتا مناسبا للتفكير في أي شيء خارج عن نطاق كونه حيا وبخير، حمدت الله بقلبي، بكل كياني، ربما كانت هذه هي اللحظة الأصدق التي شكرت فيها الله في حياتي كلها! انهمرت الكلمات مصاحبة الدموع، لمته كثيرا، عاتبته، أحببته، عانقته، صرخت فيه، سكتَ طويلا، انتظرني حتى انتهي، ثم ناداني بانكسار:

ـ شهد...

أدركت أنه لم يتصل ليطمئني عليه، أدركت أني كنت مخطئة، لم يتصل لحبي له، كان يتصل ليؤدي واجبا، كان يتصل لينقل لي خبرا ما، انتظرت السقف ليسقط علي وأنا اتطلع إليه دون أن ألتفت، لم أسأله، صمتُّ، انتظرتُ حتى خرجت الكلمات على أطراف أصابعها من فمه:

ـ بدر استُشهد يا شهد! البقاء لله.

لم يكن قلبي المعني باتصاله، لم يكن حتى هو الذي يتحدث، كان رجلا آخر، رجلًا تحجَّر حد الانكسار!

أغلقتُ عينيَّ، ووضعت قلبي على رف التأجيل، أخرست احتياجه، كانت تلك هي الخسارة إذن! ذاك هو الثمن الذي يجب أن أدفعه لأحتفظ بعبد الله، صمتَ وصمتُ، وبقي الاتصال لثوانٍ أخرى، قدرما كنت أنتظر اتصاله، قدر ما تمنيت أن يبتعد عني في تلك اللحظة، فبدر لا يليق به حزن،

ولا يليق بفقدانه أسًى، بل لا يليق به الفقدان من الأساس..

اتركني وبدر يا عبد الله، احتاج أن أفهم كيف أستوعب موت رجل لم يمت فيّ بعد!

«يقال: إن الحرب شأن الرجال، افترض إذن أن فقدان الأحبة شأن النساء!»

جمانة حداد

نبأ عبيدي

هل يكتب الرجل في عينيِّ امرأته اسمه؟ هل يظهر للعيان وشم الحب على الجبين؟ هل يقطر الحب من مسامّي؟ لم أفهم كيف مرَّ بي حديث الشيخ راف الله، وهو يتلو عليّ معاني الشفرات التي ظننت أني وحدي أدرك معناها، أني وبدر مقربان، ولكني لم أعلم أن الشيخ راف الله ستأتيه الجرأة ليصارحني بكل بساطة:

ـ إنك تحبين بدر، أليس كذلك؟

ظننت أني فقدت القدرة على قراءة الشفاه، يصاحبني هذا الشعور دائما حين يصدر حديث لن أتوقعه أو حين يصدر من شخص يتكلم بكل هدوء ووقار بحديث يهز حتى جزيئات الهواء، إن صدري يهرب من وقْع الكلمات، فكيف ينطقها هو بمثل هذه الحيادية؟ لا حيادية في هذا الكون إلا في ما لا يهمنا!

ظننت أنه استدعاني ليعيد على مسامعي أخطار التدريبات والقتال، ليذكّرني بدور المرأة الحقيقي في المجتمع، ظننت أنه سيحاول أن يرسم لي الطريق الذي يريدني أن أكون عليه، لكنه أجهد قلبي وأراحه في جملة واحدة، أجهدني التطلع إلى شفتيه وهو ينطقها ويعيد نطقها، ارتعشت وأنا أجيب:

ـ أجل...

ـ إذن لا سبيل إلا لجمعكما في الحلال.

ـ زواج؟

ـ ماذا تنتظرين غيره؟

نعم، ماذا أنتظر غيره؟ إني أحبه، أعشقه، ولكني ما فكرت قط أني سأملك من الحظ ما يجعلني زوجه! علمتني حياتي أن أنسى التمنّي، وأن أختصر أحلامي في المنطق، حتى لا أموت عدة مرات قبل نهاية عمري، ولأني قد مت يوم رأيت جثة أمي، لأني نسيت كيف تكون الحياة، لأني كرّست نفسي للانتقام، وامتهنت القتال، اعتبرت أن حبه قتال، سأردى فيه قتيلة دون شك!

اعتبرت أن وجودي قربه انتقام من سُفلية أحلامي، شيء مستهجن أن تحب امرأة رجلا دون أن تتخيله زوجا، ببساطة كان هذا شيئا لا أسمح لنفسي بمجرد افتراضه، ربما هذا ما جعله يتحول إلى حقيقة!

كنت أدرك أني أصدم رأسي بجدارها حوله، تلك المرأة التي وضعت يدها على قلبه قبلي، كنت ألقن نفسي رفضه كل ساعة، حتى يبقى لي شيء من قلبي إن حدث هذا، وفي نفس تلك اللحظة التي كنت ألقن نفسي فيها اقتلعني من أبراج الظنون، ورماني إلى أسفل قاع عينيه! كان ينظر إليَّ بطريقة غريبة جدا، وكأنه يراني للمرة الأولى والأخيرة، وكأني جئتُ للتو، وكأني سأختفي حالا، وكأني لست امرأته، وكذلك وكأني امرأته الوحيدة! هل أحب بدرا لأني لا أفهمه بشكل كامل، أم لأني أفهمه؟ هل أرى نفسي فيه، أم أني جزء ضئيل مما فيه؟

رمى في وجهي عَلما أبيض واستسلم ببساطة، ورأسه مرفوع. سنتزوج، هكذا إعلان بسيط عن خسارته المعركة واحتلاله لكوني، هكذا تصير أعظم الأمور مختزلة في جملة دون صامتة، دون طبول، هكذا تصير الزلازل دون إنذار، هكذا صرت امرأته!

في ثوب بسيط، وقفت أمامه وهو ينشد الحب إليّ، من الصعب أن تغربل الصدق في مشاعر شاعر، من الصعب أن تفرق الكلمة عن النبضة، كنت أريد أن أبكي، في ليلة عرسي، في ليلة حلمتْ بها أمي طويلا، وداستها الأقدام قبل أن تراها، في ليلة قد تعطيك الحياة كل ما ظننت أنه سيبقى أسير كرم الله في جنته، في تلك الليلة نطقت الكلمات دون أن التقطها من شفتيّ أحد، قلتها: زوجتك نفسي، لأنك نفسي، لأني نفسك، لأني زوجك قبل الولادة وبعد الممات، لأن الزواج منك كان الجنة التي كنت أتمناها، والتي وهبها الله لي في دنياي.

لم أشعر بالخجل، لم أشعر بالخوف، لم أتألم، لم أبكي، كنت أنا، فقط أنا، بين ذراعيه، لم يكن هناك سواي، كنت أتجول في قلبه وحدي، هربت ظلال الأخرى من جدران عينيه، أزالتها أنوار حبي، حين كان يعانقني، أدركت أن روحي مقاس احتياجه، شعرت بنقصي، وأدركت كيف يصير الاكتمال! كنا هناك، رجل وامرأة، آدم وحواء، آخر بذور الحب، تندفن تحت تراب الحرب، كرهت السلاح، كرهت القتال، كرهت كل شيء يمكن أن يأخذه من أحضاني!

تشبثت به حتى كدت أخنقه، أردت لأصابعي أن تتذكر، لكل ما في أن يتذكر معنى قُربه، أردته ولم أرد شيئا سواه، أردت الانتقام من الموت الذي سلبني كل شيء، بالحياة هناك في أنفاسه، أردت أن أبقيه حدّ الخلود، أردت أن أظل مستيقظة، بقيت صامدة أرقب راحته بجواري حتى أوائل لحظات الضوء، ولأول مرة استطعت أن أذق حقيقة النوم.

نمت وحلمت بأولادنا، وبيتنا، وليبيا وهي ليبيا، رأيت أمي تداعب وجهي دون كلمات، زارني السلام في تلك الليلة، وجلس على حافة حلمي، داعبني وقرأ لي حكاية زوجين عاشا بسعادة وهناء حتى خاف الموت منهما وهرب بعيدا إلى جبال الفساد!

حكايات وحكايات، سبحت فيها حتى صحوت وقد نسيت أين تزوجنا، نسيت أننا نقف أنا وبدر على فوهة بركان، بعض الأحلام تركب رؤوسنا وتنسينا يقيننا بما فيها من خرافة! حلّقت خارج السحر وصحوت، ولم يكن هناك، لم يكن بجواري، ولن يكون أبدا!

مدينة بحجم بنغازي، كيف يُختزل غزوها في ساعات؟ كيف جردني النوم من حقي في الدفاع عنها؟! شككت أن نومي كان يومها بفعل من أراد إبعادي بحجة إنقاذي! ما إن تسكعت الشمس ولفت عائدة لبنغازي حتى كان الرصاص أسرابا في سمائها، لم ألحق حتى أذيال المعركة، ما إن صحوت حتى كان الناتو يضع كلمة النهاية، غارات ثم غارات، والكتائب تتحول إلى رماد! عشرات الدبابات والطائرات، صارت جزءا من الأرض التي سقطت عليها، الكلمة الأخيرة للسلاح ومدى قوته وتقدمه، لا قضية ولا حق ولا باطل، سلاحك أقوى ستنتصر، سلاحك أخرق ستتضاءل حتى تُسحق!

نفط القبائل المعادية لنظام القذافي عدل الكِفة لصالح الثوار، وتبقى المصالح مصالح، في عالم يساعد المظلوم فقط إن كانت المصلحة تقتضي ذلك! خرجت وسط ذهولي وعدم استيعابي إلى الشارع، بنغازي تحولت إلى أخدود من الجثث!

لم أعلم من أين أبدأ لأفهم، لم أعلم إلى أين أذهب، ولم أكن أملك من العقل ما يجعلني أركز في الشفاه، كل من تبقى استعمل حياته وجسده في حمل جثث الآخرين، تزاحمت الجثث وتداخلت حتى اختلط الثوار بالمرتزقة، لم يتوانَ الشباب عن حمل الجميع، لم يكن هناك وقت للبكاء، وحدها الحرب لا تجعلنا نستقبل الموت بالبكاء، وإنما نؤجل دموعنا لساعة من السلم، لكني كنت أشعر بما سيحدث قبل أن أعرف، كنت أشعر أن بين كل تلك الجثث هناك جثة ستعنيني!

مهما قللت من معرفة من حولي، مهما أصررت على ألا أقترب من أحد، سيدرك الموت فرحي، سيدركه ويغتصبه ثم يخنقه، حتى لو كان يعنيني شخص واحد، رجل واحد، سيأخذه الموت، ضريبة الحرب، ضريبة الدنيا، ضريبة الجنة الناقصة، الجنة الزائلة المختزلة في لحظات نظنها قد تستمر حتى منتهى العمر، سيجيئني الموت، وستأتي لحظة أتمنى فيها لو أنه يصرعني، فيحررني!

لم أقرأ شفاه ذاك الملتحي، لم أتطلع إلى وجهه قط، لم يكن هناك من داعٍ، حتى حين أنهى الليل كل المهازل، وحين افترشت بنغازي كل الحَقائق في الدماء المسالة على شوارعها، وعاد إليّ عبد الله، عاد لأنه يجب أن يفعل، لأنه يمقت ما يفعل، يمقت الحياة حين تختاره في حفلة موت، يمقت ذنبا أن يكون جسدُه بخير حين لا يكون بخير، يمقت ألا يفقد نفسه مع ما فُقد ومن فُقد! وقف أمامي كارها ورائحة الموت تفوح منه، عائد إليّ، لا بد أن عودته لي في حد ذاتها الرسالة، وقوفه أمامي في حد ذاته إعلان، الحمد لله على صممي، الحمد لله أني لم أسمعه يقرن اسم بدر بالموت، الحمد لله أني تلقفت الحقيقة دون أن تكون منطوقة، قدسية الفاجعة تجعلني أتمناها هكذا، مبهمة، بلا معالم حرفية.

لست أدري ماذا كان يفعل حين انتابتني نوبة الصراخ، لأنه جفل وتراجع وكأني قذيفة، ماذا تعرف يا مصري عن الموت في ليبيا؟ نعم الموت له وجه آخر هنا، طعم آخر، لا يجب أن يسمى نفس الاسم، موت، ولا الفقد ولا الحزن، ولا حتى الحياة، في ليبيا تنقلب المسميات، وتختلف ألوان الدماء وتضيق ساحات العروق، ضربته ودفعته عني، كنت أريد أن أخرج الصوت مني، لا مزيد من الضجيج والأصوات، يجب أن أصرخ، يجب أن أخرج هذا البُعد مني، يجب أن يتبقى لحياتي فقط الصمت!

زواج يوم مثل زواج دهر إن كان حقا زواجا، ساعات اقتنصت فيها

السعادة، ربما لم تكن تلك السعادة من حقي، ربما أدفع الآن ثمن سرقتها، هكذا شعرت وأنا ألمس الثقوب التي أحدثها الرصاص في جسد الرجل الذي تكونتُ من ضلعه، هكذا كانت الصرخات تتلوى في حلقي وأنا أحاول أن أمنطق المشهد الذي أراه، جثة رجل كان لي كل شيء، جثة حياتي أمامي، جثة وطني، ليت قذيفة حولت جثته إلى غبار حتى لا أصدق أحدا في هذا العالم وأعيش على أمل أنه لا يزال حيا في مكان ما في الهواء، عيناه مغمضتان، منذ ساعات كانتا مغمضتين من فرط الحياة وهو على فراش زفافنا، وها هما جفناه الآن ملتصقين للأبد، على حافة نعشه، أهكذا مجرد طرفة عين؟

أهكذا مجرد ضغطة زر، مجرد رصاصة أسطوانية، تنهي كل شيء فيّ؟

لماذا لم تصبني أنا إذن؟

لماذا تركتني أعيش بعد موتي، وأجبرته أن يموت بعد أن عاش؟

كان وجهه بلا تعبير، لقد مات فعلا، فلم تمر لحظة في حياته لم يتوسد فيها تعبير ما وجهه، شعرت أنه يشبهه فقط، هذا الجسد لم يعد فيه بدر! هكذا كنت أشعر وأنا أقبّله وأعانقه، إني لم أكن حقا أعانق بدر، وأنه غادر، غادر هذا المكان كله، غادر ليبيا التي كانها والتي كانته!

رفضتُ ربتات العزاء، رفضت هدوء المنطق، كنت أودعه بالصراخ، الذي لم أسمعه، ولم أعرف كيف كان! تريدونني أن أصمت حتى يصير حزني منسابا بهدوء كما ينسال الدم من ثقوب جسده؟ لن أقبل التحجيم لحزني، لن أقبل وضع خسارتي في قالب العزاءات، دعوني أصرخ، دعوني أفهم أنه مات، دعوني وحدي معه. إن لم يبق لينفذ انتقامه، لينفذ العدل في حق كل ماسلب منا، فمن سينفذ؟ لا حياة لي إن لم أنتقم، لا أستحق أصلا الواجود على هذه الأرض إن لم أثأر لكل جرْحٍ في لحمي وحرْقٍ في قلبي!

لففت برجليّ على كل الجنازات، شاهدت كل ردود الأفعال، انتصرت بنغازي وهي تحمل في كل زقاق جنازة، أمهات الشهداء يزغردن مبتسمات، والدموع تغرق وجوههن، يقبضن علي الفرح والحزن سواء في نفس القلب، الموت بشرف تتماهى فيه المشاعر! في الجنازات مرَّت عيناي على أناس كانوا في حياتي، ساروا بمحاذاتها وقاطعوها في دقائق أو ساعات، في تدريبات أو معاملات، أو جيرة، مئات الأجساد التي أعرف أصحابها مروا بقلبي في ذاك اليوم، ولكني لم أملك غرفة فيه للحزن عليهم، فكان فيض حزني أكبر من كينونتي وحجم وجودي! أردت فقط أن أرقب الحزن وهو يوشم الأرواح بفقد لا يخلد أثره!

وجه تلك الفتاة التي أكتشفت أنها حامل عند حافة قبر زوجها، تحمل في بطنها حياة وفي يديها موت، ترى من منهما ستختار؟ وهل تملك ترف الاختيار؟ في ليلة وضحاها صار حزنها حديث الإعلام، الكل يريد أن يلتقط صورة لأساها وكأنه لوحة يجب مطالعتها على الدوام، لأن زوجها نبوس كان صاحب النافذة الوحيدة التي تطلّ على أحزان الوطن، الذي لم يكن يتورع عن إعلان أسماء القتلى والمصابين وصورهم وكل ما يتعلق بهم، حتى بات واحدا منهم على قناته الخاصة وابتسامته الموشحة بالسواد!

لأن حربه كانت إعلامية، جاء موته إعلاميا، ليرمز لموت كل شاب لم يتحمل فساد وطنه، فصار حزن زوجته أيضا إعلاميا يحتاج لشفافية دموعها حتى يُنقل للعالم أدق خطوط وجه هذا الحزن!

ترى أيهما أقسى:

أن تكون الفاجعة في أعماق النفس، ولا أحد يفهمها؟

أم أن تُعلن على الملأ وتصير حفلة لكل من هبَّ ودبَّ ليضع شيئًا من رثائه أو شماتته أو شفقته على أعتابها؟

أنا وهي فقدنا أزواجنا ولكني لم أُرثي مثلها، ربما لأن زوجي لم يكن مشهورا، أو لأني لم أصر زوجته حقًا في أعين الكل، فماذا كان حقي فيه سوى بضع ساعات في يوم موته؟!

ذابت صراعاتي وآلامي في وجه ذلك العجوز خليفة، أن تفقد زوجا ليس مثل أن تفقد فلذة الكبد، وقطعا ليس مثل أن تفقد كل فلذات أكبادك في معركة وطن واحد! ها قد ضاعت القشة التي كان يتكأ عليها ليعيش، ضاعت وأخذت معها عقله!

رأيته وسط الرجال يحرك شفتيه بحروف متفرقة وكلمات ليست في قاموسي، رأيت الجميع يتدافعون لمعانقته وتحجيم حركة ذراعيه التي وكأنما تدفع الحزن في الهواء! لكني أدرك أني والعجوز متشابهان كثيرا، عمق الجرح ليس غائرًا مثله، لكننا فقدنا تلك القشة، فقدنا كل معنًى للحياة! لم يعد له أحد كما لم يعد لي!

على الأقل هو لا يزال يجلس على نفس الكرسي الذي قضى حياته جالسا عليه، وأنا لم يتبق لي حتى كرسي! لا أثاث ولا بيت، ولا أسرة ولا زوج، ولا وطن ولا شيء! شعرت بالحنق، لا يجب أن يفرح أحد، إنها جريمة أن يفرح أحد في هذا الزمن، تسللت من بين الجميع إلى الجثة. لأن الجثة تفحمت وتقطعت أجزاؤها، فقد غطوها بقماش أبيض، وضعت ما تبقى من متعلقاته على الطاولة بجانب الجثة، بحثت طويلا لم يكن الهاتف بينها، لا بد أن أخبرها، تلك الديمة التي حدثني عنها!

خرجت من الدار وركضتُ في الشوارع، أردد في ذاتي ألا أحد يجب أن يفرح، لا أحد! ركبت إلى خارج البوابة حيث كانت توجد السيارة، التي كان يقف عليها باهي وهو يحمي بنغازي، كانت هناك مفككة، نبشت في كل ركن فيها، لم يكن أيضا هناك، كان ملقى بعيدا عن السيارة بأمتار! أخذته وكأنه غنيمتي، عدت إلى جُحري مع تلك الجارة، وأخذت

هاتفها ووضعت رقمها فيه، استطعت أن أصل إلى الرقم، كتبت الحروف بانتصار وكأنه واجب مقدس، لا بد أن تخبر المرأة أي أخرى فقدت رجُلها، إنها مهمتي الوحيدة التي أتمنى لو أمارسها طوال حياتي، إعلان الفقد، أولست وحدي إعلانًا؟

كتبت لها الرسالة الملغمة وضغطت «إرسال»، واستمتعت برؤية رقمها وهو يتصل بجنون، لا تريد أن تصدق، إنها مثلي لا تريد أن تصدق، تتمنى لو أنها رسالة خاطئة!

أعطيت الهاتف للجارة وأخبرتها أن تكمل المهمة دوني. لم أنس المصرية، لم أنس الغريمة، لكني ـ ببساطة ـ لم أجد رقمها في هاتف زوجي، لم أجد له أي أثر! هل كان يعشقها إلى حدّ أن يحتفظ به في عقله؟ كيف سأبحث عن رقمها في عقله الآن؟ أم أنه رضي بي حتى مسحها من حياته وقلبه؟ ليس هنا ليجيبني، لم يعد هناك حبر يمكن أن يخطّ إجابة تلك الأسئلة التي ستظل تطاردني طوال حياتي!

ماذا يجب على النساء أن يفعلن في أيام الفواجع؟ أن يطبخن، الثوار يقدّمون أرواحهم في محاولة استعادة البريقة بينما نساؤنا هنا، غارقات في التباري في أشهى المأكولات، أواخر متع الحياة التي تبقت، موائد عابري السبيل، موائد الجراح، مكرونات جارية ومبقبقة بسيسة جبالية، وتمر دقله من نخلة بكرية والبازين والكسكسي والبوريك، والكل يأكل ولا يملك سوى أن يأكل، وماذا تبقى غير القتال والأكل لأجل امتلاك طاقة للقتال! روائح الطعام التي تذكرني بالعروق النافرة على كفيّ أمي، مشهد أي امرأة تقف أمام قِدر، تشوي شيئا أو تحضر شيئا على النار يجعلني أتذكر أمي!

أختنق بنسوة من حولي، وأخرج لألتحق بذيل جلسات الرجال، أرقب شفافهم من بعيد وأنا ألف وجهي بشال بدر، إذن فالأسلحة

التي سقطت مع المرتزقة كانت من إسرائيل! نيجريون وتشاديون هم مَن قاتلونا، وهم من تفجرت رؤوسهم على أسطح المدينة! الأعداء انسحبوا من البريقة، وقطر هي الدولة العربية الوحيدة التي تعترف بمجلس الثوار! إذن العرب أجمعون يقبلون وضع يدهم في يد القذافي الذي يقف الآن رئيسا على عدد من الرؤوس المبتورة ليس إلا! ها هي المصالح تبصق عربا!

لا تزال الدول تدعو القذافي للتنحي، وما زال يقصف آبار النفط وحقول الأبراج النفطية، ويشعل النار فيها حتى لا يتبقى للثوار ثمن يدفعونه مقابل إنقاذهم! أنا أو أنا وجحيمي! هكذا يخيرنا المجرم، ويبقى الناتو يتدخل حماية لآبار نفط يظنها ملكه، طائرات الناتو لم تعد تميز العدو من الصديق، طائرات الناتو لتحمي مصالحها قتلت الكثير والكثير من المدنيين، كل يوم عشرات المقتولين نتيجة سهو! خطأ تقدير، طائرة للثوار سقطت بفعل الناتو ويأتينا بعد ساعات اعتذار مدبلج ودموع تماسيح، ربما حين يتشابك أفراد دين واحد ودم واحد وفصيلة واحدة، يصعب حقًا على الغريب تفريقهم!

ما إن تراجع الثعبان إلى جحره، حتى لحقت به النيران، تراجع القذافي إلى أجدابيا ولحق الثوار بقواته، وتم تأمين الطريق بين أجدابيا وبنغازي، تكتل الثوار ولعقوا جراحهم واتجهوا إلى هناك حتى مع المدنيين. قوات المجرم تتمركز عند البوابة الشرقية، وتقصف المناطق السكنية براجمات الصواريخ، حتى صار الشباب يطبق سيطرته على وسط المدينة، وقوات القذافي تشكل دائرة من النار حولهم من كل الجهات!

لقد مات الرجل الذي كان يدفع عني القيل والقال، وكان يساعدني على تضميد جراحي بالقتال، مات فلم يعد مقبولا لي للالتحاق بتلك المعركة. صارت أجدابيا قِبلة للثوار والمدنيين من كل صوت يتلاحقون

لإسقاط المدينة نهائيا في قبضتنا، حتى أن الثوار استعملوا المروحيات! قصف الناتو آليات القذافي عند البوابة الشرقية والغربية، ففتح الطريق للثوار لبلوغ المدينة من مدخلها الشرقي، تراجعت كل قوات القذافي، وعادت أجدابيا إلى حضن الثورة من جديد مهجورة وكأنها مدينة أشباح!

لم أستوعب كمّ الخسائر التي خسرناها في غارات الناتو، طائرات ودبابات وبشر، لم أفهم كيف يمكن أن يوجه عبد الفتاح يونس مجرد نقد لكل هذه الأخطاء الفادحة، والتي يجب أن نطلق عليها جرائم وليس مجرد أخطاء! فقط لأننا بحاجة لدعمهم بحاجة لقوتهم! بعض الكوابيس تطول حتى تشعر أنك بلغت جحيم الآخرة! وفي وسط كل هذه النيران، طرابلس ورأس نوف وزوارة والزنتان ومصراتة، وسط حرب أجدابيا والبريقة وبن جواد، وسط كل هذا الضجيج كانت الزغاريد تجد لنفسها مكانا في وسط لحن الرصاص!

لم تتوقف الأعراس، خلف كل حياة تُسلب حياة أخرى تولد، بيني وبين نفسي كنت أمقت الأفراح في وسط كل هذه المصائب، وأتمنى لو عندي الحق لأسلب الجميع حقهم بالفرح حتى تخرج ليبيا من هذا الكابوس، ولكنّ شيئا ما في تلك الضحكات على وجهي العروسين، كانت يشعرني بالأمل، أن ليبيا كما سقطت ستولد من جديد! كيف يموت الوطن وكيف يولد؟ بعض الأسئلة لا أجد إجابتها، ولكني أجد معناها في بعض المواقف! بقدر ما أمقت الأعراس بقدر ما كنت أشعر في نهايتها أن ليبيا لم تمت، وإن ماتت ستولد من جديد، قد يبلغ الظلم حدا يصعب معه تخيل منتهاه، شيء واحد جعلني أفيق من استحالة تغير الوضع، حين شهدت محاكمة طاغية مصر، شعرت وقتها أن حياتي ذات قيمة، لأني عشت حتى أشهد مثل هذا الحدث الباعث للأمل!

إن الفساد لن يستمر، لن يعود، انكسرت شوكته، لو كان بدر هنا

لقفز فرحة، ولأشبع المشهد بشتائمه، لو كان هنا لارتفع صوته بالعزة والشماتة، لو كان هنا لأشبع المنظر خساراته وانكساراته، العين بالعين، والذل بالذل، ولو أن بعض الذل لا يعادله أضعافه! وهل في حياتي ذل يمكن أن يخلق مثيل له ليشفيني منه؟

اجتمع القذافي برؤساء أفارقة ليشاركوه جريمته، يجتمع بمن وعدهم بالغنائم ومن أشبع فسادهم بفساده، إن كل قائد للدولة يتمنى لو أن كل الدول بها نفس فساده، حتى لا يحسد شعب آخر على رئيسه، وحتى يضمن ألا تتفتح عيونهم على أي حقوق في أراضٍ مجاورة يتمتع بها غيرهم فيطالبونه بها! حقًا إن بعض الحكام ينخدعون بأنفسهم، ويظنون أنهم أزواج الدول لا حاكميها!

شخص واحد لم أفهم طبيعة تغيره، ذاك العبد الله، الذي خلفت الخسارات فيه غضبا هو نفسه لا يدرك أنه يعشش فيه! الرجل الأكثر مسالمة في الكون! كان يغلي وهو يحمل السلاح، كنت أراقبه في التدريبات وهو يسبق الجميع في مهاراته الوليدة للفاجعة، بعض الفواجع تولد فينا طاقات لا تولدها فينا أجمل الأحلام! كنت أشعر به يحاول تعويضي عن بدر، وكأنها كانت وصية بدر مثلا، مع أنه لم يكن يجيد التحدث معي مطلقًا بات يتباسط معي، الحزن جعلنا متواطئين، جعل أقدامنا تقف على نفس النقطة!

بقدر ما كان يخاف الاشتباكات ويقبل أن يدفن الموتى، ويداوي المصابين، على أن ينضم للشباب في المعركة، بقدر ما صار وجهه يتلوى بالقنوط كلما رحلت سيارات الشباب الذين يريدون اللحاق بالمقاتلين! أنا وهو كنا نتحرق لننال فرصة، فقط فرصة لطعن الظلم في مقتل، لتشويهه في وجوه من نقتلهم، لم يعد عبد الله يشعر أن للموت حرمة، بات ـ أخيرًا ـ يستسيغه، بات يرى فيه السبيل الوحيد للخلاص!

فرضت عليه الظروف من جديد أن يمتهن أكثر ما يكرهه، انتزعت الحب من قلبه، انتزعت الخوف، لم يعد لديه ما يخسره سوى نفسه، والنفس تفقد قيمتها حين تعجز عن تقبل ملامح الحياة!

لأني لم أمت حتى الآن صار الموت هو الأمل الوحيد، هو الهدف الذي أعيش لأناله! ولكني لن أموت هكذا، لن أموت سدًى، لن أموت قبل أن أمزق الذي سلبني حياتي بيديّ هاتين، كنت أتطلع إلى يديِّ حين كان الجنود يتفقدون المتطوعين للحرب، أوقفني الجندي ببندقيته محاذية لصدري، تفرس فيّ، كالعادة سيعيدني لأني امرأة، لن أعود للهاوية، السقوط هو وطني الآن، أرجوك لا تعدني للحياة، مرت الثواني وعضلاتي تتصلب، حتى ابتسم، وأشار بطرف بندقيته أن أستمرّ، لم أتحرك بسرعة؛ لأن قدميّ تخشبتا، واحتجت ثوانيَ أخرى للاستيعاب! رأيته يشير إلى زملائه، ويضع في يدي السلاح بابتسامة تقول: يا امرأة قاتلي، فهذا ما تبقّى من هُويتنا الآن!

«أخي إن ذرفت عليّ الدموع

وبللّت قبري بها في خشوع

فأوقد لهم من رفاتي الشموع

وسيروا بها نحو مجدٍ تليد

أخي إنْ نَمُت نلق أحبابنا

فروْضاتُ ربي أُعدت لنا

وأطيارُها رفرفت حولنا

فطوبَى لنا في ديار الخلود»

سيد قطب

عبد الله محمد

لو كان هناك شيء واحد اجتهدت لأتعلمه طوال سنين حياتي، لكان تمالك الأعصاب!

يرهقني أن يترك ظهور تأثري بالأمور على كلامي أو حركاتي أو تعبيرات وجهي نافذة لأي شخص أن يعرف ما لا أريده أن يعرفه، يقلقني أن يطلّع أحد على جزء في نفسي دون أن أسمح له بذلك!

أشعر وكأني عارٍ! تدربت طويلا على ذلك الوجه الذي أرتديه حين يقابلني شيء ليس بحسباني، تدربت طويلا على أن يعتقل تفكيري أي كلمة يمكن أن تخرج من فمي في لحظات استيعاب المفاجأة، لكن هذا الجسد الذي يرتجف، مهما أظهرتُ الجَلَد، فقد خانني وخرج عن المسموح!

سقطت على الأرض لشدة ما فقدت قدرتي على التحكم به، لم يعد ارتجافًا، بل صار زلزلة طاغية تجعل أسناني تصطدم ببعضها وكأني نُقلت فجأة إلى القطب الشمالي!

لففت ذراعي حول جسدي، ضغطت بكل قوتي، كنت أنظر حولي ولا شيء سوى الدماء والجثث، هذا القبر يجمعني بأربعة أجساد! أغمض عينيّ، فكلما اصطدمت عيناي بجثة ارتجف جسدي بجنون، ولكني أراهم أيضا

حين أغلق عينيّ، أرى كيف تخلص بدر من حياة اثنين في لحظة غضب، فخرج من الزاوية رجل لا يزال يحمل سلاحا في جيبه وصوّبه إلى بدر، وقتله هو الآخر، ثم انتهت هذه العاصفة برفعي سلاحي وقتلي له!

من المستحيل تصديق أن أربعة أجساد تحيط بي فقدوا حياتهم في ثوانٍ، مجرد ثوانٍ، ربما لفّ الدهر ودار وابتدأ العمر وانطفأ وعاد من جديد في تلك الثواني!

لقد شختُ ومتُّ ودفنتُ وبعثتُ، وما زلتُ حين أفتح عينيّ أراني بنفس الثياب الملوثة بالخطيئة وجثث أربع تشير بدمائها إليّ!

الدم يدينني، يصرخ بلونه الفاضح وهو يتلوى كالأفعى على الأرض، يصرخ بـ«قاتل»، ثم يسير في منحنيات البلاط ليجد طريقًا يصل إليّ بها، جسدي يلمس دماء الجسد الذي قتلته، يترافع عقلي في محكمة الذنب ويقول: بريء، إنه دفاع عن النفس، إن لم تقتله قتلك، أنت تعيش في حالة حرب، ولا بد أن يحدث هذا!

تخاذلت قدماي، رُغما عني استندت على كفيّ وقدميّ، ولامست بهما الدماء التي تتمشّى على الأرض، ضاقت الغرفة وأطبقت عليّ جدرانها، تاه عني الهواء وصار يدفعني، ما إن أطلقتُ الرصاص حتى ترنحت مرتعشا وأنا أتقيأ حتى سقطت!

لا حل للعذاب سوى الاستسلام للسقوط!

أغلقت عينيّ لعل كل شيء يختفي، لعل سواد الظلام يمحو الخطيئة. تكورت على جنبي، كنت أسعل مختنقا حتى فتحت عينيّ، اصطدمتْ بعينيّ بدر، كانت تتطلعان إليّ، وهو راقد أمامي، بيني وبينه مسافة ذراع وعالَم آخر! كمْ بدا حيا أكثر من أي لحظة في حياته، نظرته المتمردة المتجهمة، لقد قَتل رجلين أعزلين!

شهقت وأنا أتخيل نفسي مكانه، أحاول أن أتحاشى تقييم مثل هذه

الخاتمة، سيحسبه الجميع شهيدا، ولكني رأيته، رأيت نظرة القاتل في عينيه، صرخت فيه، وحاولت إيقافه دون جدوى، لقد أصمّه الغضب، أذلّه الانتقام، حبسه في سوء الخاتمة! أخيرًا تداعت كل السدود وبكيت، شعرت بدموعي تسيل على رقبتي حتى صدري، شعرت بحرارتها، مما زاد من حدة بكائي!

ليس هناك أصعب من موت قريب أكثر من رؤيته يموت ميتة قد تخذله في آخرته، لا شيء أكثر تخفيفًا لوطأة الفقد، سوى أن الفقيد يعيش في جنان أفضل حالا من الجحيم الدنيوي الذي نعيش فيه، لكن وهو يتطلع إليّ هكذا، والرصاصة وشم بين عينيه، شعرت أن البكاء قد يستمر عمرا فوق عمري!

يا الله! لم يكن صوتي يخرج بالدعاء، لكنه كان صاخبا بداخلي، تتزاحم أنفاسي والبكاء ويصعب علي التنفس طويلًا، كلما سعلت شعرت بقطرات الدماء ـ التي التصقت بجسدي من بقائي أرضا على هذه الحال ـ تقفز مع كل سعلة، حاولت النهوض على الرغم من تيبّس عضلاتي، استندت على الحائط الغربي، بدا المشهد أكثر وضوحا، الجسدان الأعزلان متكوّمان فوق بعضهما، أحدهما دماغه تحولت إلى أشلاء، والثالث في أقصى يسار الغرفة، وفي المنتصف تماما كان الصديق!

لم أتمكن من لمسه، بدأت أزحف إلى الخلف، كان عليّ أن أخرج سريعًا من هذا الكابوس! ما إن خرجت حتى عاد إليَّ سمعي فجأة، والتقطتْ أذناي أصوات القنابل والرشاشات، وصوت الطائرات تدفع بالهواء، هل يظل الموت عازلا للصوت، قاتلا للضجيج؟ لكن هل متُّ معهم هناك؟

نظرت خلفي لأتذكر المكان، ثم نهضت وحاولت الركض، لم أحتم

من الرصاص، بل على العكس كنت أتمنى من كل قلبي أن أتخلص من ذنب البقاء حيا، لقد فقدت أسرتي، وكسرت قلبي بيدي حتى لا يفكر قط من جديد في أن يحب، لقد فقدت الوطن، فقدت حتى الأمان، ماذا تبقى لي لأفقد حتى أفقد الفقد نفسه،! لئلا أتألم من جديد؟

على الرغم من اعتيادي كل هذا، لم تعصرني الدنيا بقبضتها كما حدث حين رأيت بدر ميتا! كنت أركض وكأني أهرب من حقيقة موته، وكأنها تركض خلفي! كنت أمرُّ تحت البيوت، وأرى بعض الأشباح تشير إليَّ من خلف النوافذ أن أحتمي من القذائف! دعوني، دعوني أموت، لقد أمات أمي الهجر، وأمات جدي الغضب، وأمات صديقي الانتقام، فإن كان هناك شيء يجب أن أموت بسببه، فهو الخوف من الفقد، الخوف من الألم!

للفواجع دوامات تغرق فيها النفس!

أفقت من غيبوبتي في مِقعد خلفي في باص، وبعض الشباب حولي، أحدهم يتلو الآيات وهو يضع يده على جبيني. قيل لي إني كنت أرتجف وأهذي لساعات، وإن المعركة انتهت، بنغازي رفعت يديها إلى السماء شاكرةً لله، لقد تحررت، وتقهقر ما تبقى من كتائب القذافي إلى أجدابيا! انتهت العاصفة وحان وقت حصر الخسائر، ما تبقى من الشباب يكاد يكون نصف الكتيبة، مات الشيخ راف الله وهو يدافع عن بنغازي، مات باهي، مات بدر، مات نبوس، مات قلب نبأ، ودفنَّا معهم جذلنا وسعادتنا! إن كنا نتمنى الشهادة لأنفسنا فلماذا لا نستطيع أن نسعد بها لغيرنا ونتقبّل غيابهم؟

لم يكن من الصعب عليّ فقدان باهي بقدر ما كان مراقبة والده يبكي ويتوسل الموت ألا يرحل بروح ابنه، هلوسات الحزن أبشع من أي صراخ، وكأننا دفناه مع ابنه، ربما لأنه كان الولد الوحيد الذي تسنّى له أن يدفنه ويودّعه!

في تلك اللحظة التي أسندته فيها ليركع بجوار ما تبقى من جثة ابنه، تمنيت من كل قلبي أن يأخذني الله بدلا منه، لكن لا مبدل لمشيئته.

كان العجوز خليفة يمسك بتلابيبي وكأن بيدي أن أعيد ابنه، ويترجّاني، لم أفقه من قوله سوى اسم باهي، ربما كان هذا العجوز هو أكثر من دفع في حق ليبيا، ربما شرب من الفقد حتى صار يجري في شرايينه!

ربما أتمكن لاحقا من كبح نفسي وتمالكها، ولكني في تلك اللحظة ـ أمام عينيه المتوسلتين اللتين ابيضتَا من الدمع ـ لم أجد بمقدوري سوى الإجهاش بالبكاء!

لم يترك الشباب لأنفسهم وقتا ليحزنوا، جمعوا صفوفهم، واستعدوا للحاق بالشباب في أجدابيا ومصراتة والبريقة، وبقيت بجوار الحزن حتى أفهمه جيدًا، لأتمكن ـ أخيرًا ـ من تجاوزه!

أحاول أن أوازن بين التدريب وخليفة، العجوز صار لا يدرك أي شيء من حوله حتى فقد قدرته على حبس بَوله! تحرّجت الجارة من رعايته، لكني وجدت في خدمته شفاء روحي، المعركة قصمت ظهره وظهري، وكان علينا أن نشفى معا.

لا أملك من الكلمات لأواسيه، ولكني ما إن أمسح جسده بالقماش المبلل، حتى يتطلع إليّ بامتنان، يصحو أحيانا من غيبوبة حزنه، فيحدثني ليثبّتني أحيانا، ويترجاني أحيانا أخرى ألا ألتحق بالشباب في معارك المدن المجاورة، مما يفاجئني كثيرا، ثم يغيب في غيبوبة حزن ويبكي ويهذي، ويسهر الليالي يطرق باب غرفة ابنه ويناديه، يعيش في جوف هذا العجوز رجلان، رجل صابر ثابت ربّت على كتفي منذ ساعات ومسح دمعي، ورجل آخر يكاد يتفطر من الفزع!

في لحظة يقظته بُحت له بأمنيتي، لو أني استشهدت بدلا من باهي، لم يبكِ ولم يهتز لذكر اسم ابنه، وإنما نظر إليّ وقال:

ـ إن مات الجميع فمَن يبقى لليبني يا ولدي؟ حمدا لله على وجودك وبقائك حيا.

وما لبث أن ضمني إليه. ربما كانت تلك هي اللحظة الوحيدة في حياتي كلها التي شعرت فيها بطعم الاطمئنان. لم تكن حبيبة باهي لتتلقى خبر موته كما فعل والده. أخبرتني جارة نبأ ـ التي أعطتها الهاتف بعد أن نقلت خبر موت باهي لحبيبته برسالة نصية ـ كيف سمعت صوت اصطدام شيء ما بمجرد أن أكدت لها الخبر صوتيا، لقد فقدت الفتاة وعيها، وسبّ أهل الفتاة الجارة؛ لأنها تجرأت وأوصلت خبر موت رجل قد قرروا أنه انتهى من حياة ابنتهمن ليعود موته ويؤثر على مجرى سعادتها!

لم يريدوا لها أن تعرف إن كان قد مات أو لا يزال على قيد الحياة!

ظلت الجارة تدعو لهم بالهداية، مشفقة على الفتاة.

تراها تستطيع أن تعيش بعد هذا الخبر، أم أن حياتها ستتوقف عند هذه النقطة؟

بعض الأحزان تبتلع الحياة فينا، والغريب أن الحياة في كل الأحوال تستمر، سواء عشتَ فيها أم متَ فيها! لوهلة شعرت أن عينيّ نبأ قد انطفأتا حين اقتربتُ منها لأعلمها، ربما لم أستطع تمالك تعابير وجهي وأنا أبحث عن الكلمات المناسبة التي أعفتني من نطقها، بدت لي وكأنها كانت تعلم وكأنها توقعت أن يحدث هذا، مع أني ما توقعت قط أن يموت بدر بهذا الشكل وفي هذا التوقيت!

بدا لي أنه يريد أن يطيل عمره حتى يدفن جميع من تسبب في كل ما حدث في ليبيا، ويتأكد أنهم كلهم في محكمة ربهم، ربما تخيلت كثيرا أني سأموت قبله، ربما تخيلتْ نبأ هذا أيضا، لهذا عرفت الخبر حين رأتني، كان حزنها وحشيا مثل أول لقاء التقيتُ بها فيه، حين غرزت أصابعها في لحمي لمجرد أني اقتربت منها!

بدر اقتلع عميقًا منها، فقدت عقلها هي والحاج خليفة، وحدها زوجة نبوس التي تماسكت، بقيت مرتدية المقاس المناسب للحزن، وإن كنت أجهل كيف تواجه نفسها وهي تتجه إلى سريرها كل ليلة، حين تتحول ساعات الراحة إلى سنوات من جَلد الذات، ويتحول الفراش إلى قفص محكمة؟

كيف يمكن أن أعزّيها؟

وقفت أمامها صامتا، ولم أستطع أن أنطق الكلمات المعتادة التي تقال في مثل هذه المناسبات، حتى أنني لم أقدر أن أتطلع إلى وجهها، وكأني من تسبب في قتله، وجدتها تقول بعد الصمت:

ـ البقاء لله يا عبد الله.

لم أستطع حتى أن أردّ، وقفتُ لدقيقة ثم مشيت، خذلتها وخذلته وخذلتني، أتراها شهد أحست بذلك حين حدثتها؟ أتراها شعرت بخذلاني؟ بدا لي صوتها قد خاصمه اشتياقها المعتاد لي، بدت لي في تغير نبرتها بعض الإدانة، أعلم أني المعنِّي بدعائها وبأن موت بدر أخف وطأة بالنسبة لها من موتي، ولكن أليس من الأفضل يا شهد أن أموت؟ حين يصير الموت هو الخيار الأفضل لسير الحياة أتتقبلينه وقتها؟ أوليس الموت حين يمنعني من أن أكون بجوارك أفضل ألف مرة من أن يكون باختياري؟ ألا تفضلين رجلا ميتا ترسمين مشاعره بطريقتك على رجل حي يبقي بعدك، فلا تقدر نفسك على مواجهة مثل هذه الخيبة؟

لم تطلب مني العودة هذه المرة كعادتها، لم تعنفني؛ لأني لم أرد اتصالاتها ولم أشبع قلقها، لم تقل شيئا ولم ترد حتى أن تسترسل في الحديث.

أنهت الاتصال دون وداع، في أكثر لحظاتي اشتياقا لها، في أكثر الأيام التي تمنيت أن تعرف كل شيء، وأن أبوح لها حتى ينتهي قاموس الكلمات، اختارت الصمت حين جمعت ما لدي لأتحدث!

هكذا أنت يا شهد امرأة اللاممكن، اللامعقول. أتراكِ كنتِ ستنضمين للنساء الذين تطوعوا لخدمة من أسرنا من مرتزقة، بطهو الطعام لهم وغسل ثيابهم ومداواة جروحهم؟

أتراكِ كنت ستسامحين؟ أتراكِ كنتِ ستفخرين بي حين تعلمين أني كنت على وشك دقّ عنق أحدهم لمجرد أنه أشاد بالقذافي خلف قضبانه، وأنه لم يكن إلا ليبيًّا لا يزال يؤمن أن الشعب الليبي لن يحركه إلا ديكتاتور؟!

بعض العقول تظن أن استنشاق الوسخ أفضل للرئتين من أن تعتاد الهواء النظيف لتصير أقوى! لماذا يدعي بعض الناس رغبتهم وإيمانهم بالحرية وهم يقبلون أن يركبهم ديكتاتور، بحجة أن أفعال الحكم الديكتاتوري تسيطر على غيرهم من الهمجيين!

لماذا يظن البعض أن الديكتاتور سيميز في ظلمه بين من يستحقه ومن لا يستحقه؟

الظلم لا عقل له ولا تمييز!

كدت أن أجعل جسده يتمزق ليمرّ من بين القضبان، من شدة ما ضغطت عليه وسحبته! إن كنت تريد طاغية، لأنك ترى الشعب من الغباء والفساد بحيث لا ينفعه إلا طاغية، فلم لا تعيش وحدك مع طاغيتك في وطن قذر يجمعكما، فأنتما تستحقان بعضكما، أما أنا فلا ذنب لي، لأني أريد حياة كريمة حرة لي ولكل الأجيال من بعدي، أريد حاكما مسلما فخرا للإسلام، أريد حاكما عربيا فخرا للعرب، أريد الأفضل، لأنه الأفضل، ليس لأنه سيناسبني أكثر.

بعد أن خلص حراس السجن الرجل من بين يديّ، أفقت واستغفرت ربي طويلا. شيطان الغضب يتنفس من ثقوب خسائري، ويجعلني أفعل ما لا أستسيغه، صليتُ ركعتين ودعوت الله في السجود أن يخلصني من نوبات الغضب التي تجتاحني من وقت لآخر!

أخاف الموت في لحظة معصية، أخاف أن ألقى ربي على هذه الشاكلة. لقد اجتهدت طوال حياتي حتى أتقرب إلى ربي، ولا أموت ميتة مخزية، أريد أن أكون شهيدا، شهيدا بحق، حاولت أن أجدد نيتي، حتى أموت في سبيل الله وليس في سبيل تخليص نفسي من كل هذا الجحيم!

كم أتمنى أن أُدفن بثيابي ودمائي، إن كانت حياتي حقا بلا قيمة، فأتمنى أن يكون لموتي أي معنىً أو فائدة تعود على الإسلام أو العرب أو الوطن.

لا أعيش لنفسي حتى أموت لنفسي، كلما جبنت أو خابت نفسي تذكرت الحَوض يوم القيامة، تذكرت الصحابة والشهداء، تذكرت أصحابي، تذكرت الشيخ راف الله ووجهه الباسم حين حملته مع الشباب لقبره..

كلما شعرت أن نفسي تائهة في أجواء التخاذل، شعرت أن ديني يحيطني ليحميني، كلما ضعفت نفسي تذكرت وذكّرت نفسي، فلا تخفت شمعة الإيمان بأن الله يحمل لي الأفضل، مطمئن إلى ربي أنه سيخلق لي مخرجا في الظلام، وأسترجع بلساني قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(*) وأدعو الله أن أكون من الأعلى درجة.

«امرأة بدر هربت!»

هكذا استقبلتني الجارة وأنا أصعد الطوابق لأطمئن عليها، شعرت بوهن في ركبتيّ وأنا أستمع لشكوى الجارة وصراخها، وكأن ابنتها هي مَن هربت، مع أنها كانت تضيق بها تسميه «استرجالها»!

لم يكن سهلا على نبأ أن تتحمل كل هذه الأسابيع دون تدريب، بعض الناس خُلقوا ليواجهوا، ليهاجموا، صفوف الدفاع تخذلهم وتخنقهم، وتشعرهم أن وجودهم دون جدوى!

(*) سورة النساء، الآية ٩٥.

أدركت ذلك من اللحظة الأولى التي نظرت فيها إلى عينيها، إنها حقا النصف الثاني لبدر، المرأة التي كان يجب أن يعرفها ويتزوجها من البداية، لكن قلبه اختار شهد، ربما لم يكن مناسبًا لشهد، ولكني متأكد أني لا أناسبها كذلك!

لماذا يتخبط القلب في دفع مشاعره تجاه الشخص المفترض أنه سيتلقّى هذه المشاعر بما يناسبها، ولماذا علينا أن نتعايش مع مثل هذه الفرص الضائعة والمشاعر المهدرة؟ لو أن كل شعور وُجِّه للشخص الذي يستحقه، لما كانت هناك نُفايات للذكرى! نبأ لم تتحمل شعوري تجاهها بالمسؤولية، لم تتحمل كلمة أرملة، لم تكن مخلوقة لتناسب كلمة زوج بالأساس، كانت ولا تزال مقاتلة، يصعب عليّ أحيانًا أن أرى المرأة فيها، ويصعب عليّ في نفس الوقت أن أتركها هكذا! على الرغم من أن هذا الشعور كان من المفترض أن يكون من نصيب شهد التي ما أرادت رحيلي قط، وذاك الهاتف بداخلي الذي يصرّ على أنها تخصني على الرغم من كل شيء!

ومع هذا رحلت في أثرها، لم يعد لللامبالاة مكان في نفسي! إن خدمة هذا العجوز جعلتني بشكل ما أتمنى لو أن أخرج من بئر التبلّد، لعلي أنال بعض الدفء! أصبحتُ أحتاج للدفء حقا! بحثت عنها لأعلم أنها بخير، فأستطيع أن أهدأ لأفكر. كنت أحاول أن أجدد نيتي بين الفيْنة والأخرى أني لم أرحل عن بنغازي لأجل امرأة، وإنما في سبيل الله...

يجب أن تخضع الأولويات لله، فإن متُّ قبل أن أصل لمبتغاي أصير شهيدا حقا، فلا يزال هاجس سوء الخاتمة يطاردني! كنت أدعو الله لأذكّر نفسي أنه هو الأهم، لا شيء في هذا الكون يهمني سواه متذكّرا الآية: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(*).

لم يكن هناك حديث للشباب سوى محاكمة طاغية مصر وأعوانه، ومجازر التحرير، وقتل المدنيين والثوار. الكل يناقش الأوضاع السياسية التي لا تمَس بلده وكأنه بهذا يخفف من وطأة ما يعيش فيه، كما أن احتمالية الانشقاق والاختلاف في الرأي أقل في أمر من لا يهمنا شأنهم، مع أني أرى أن الانقسام الحزبي واحد في كل الوطن العربي، انقسام الجبهتين واحد، والسيناريو واحد، وكأن صانعه واحد!

لم أكن أراه صراعا على السلطة بقدر ما كان لفرض الهُوية، كانت الوجوه الحقيقية خلف الأقنعة ما بين الصراع على علمنة الدولة، وطمس كل معالم هويتها الدينية والعربية، وما بين جبهة تُتهم أنها تأخذ الدين ذريعة لتصل إلى السلطة، وإني أراها في الحقيقة تدافع عما تبقى في الشخصية المصرية، عما تبقى من فتات الإسلام، وفتات النخوة العربية، والتي ما إن يتطلع أحد لوجهي ولحيتي، لخمّن تضامني الفكري معها دون أن يسألني!

الشعار الحقيقي لهذه الثورة: أنت مع مَن؟ الثورة قامت لتخلق تصنيفا جديدا في تحديدنا لطبيعة الشخصية التي نحادثها. أرى الكثير من مدّعي الحرية والثقافة يتشدقون بنبذ التصنيف وهم أول من يصنفون، ولكني لم أعد أراه تصنيفا بقدر ما صِرت أراه سلسلة لا منتهية مترابطة ببعضها!

بل إنني أجزم أني أستطيع تحديد طبيعة الرأي السياسي لشخص، إن مارس أمامي عادة من عادات حياته، إن عرفت طبيعة من طبائع شخصيته وأخلاقه! ليس هذا نوعا من التعميم، ولكنه نوع من الدراسة الحقيقية لطبيعة الشخصية. لقد مارست المراقبة لسنين طويلة، فالمراقبة أسهل من

(*) سورة التوبة، الآية ٢٤.

الكلام، وسبر أغوار الآخر أكثر متعة من محاولة فهم هذه النفس التعيسة التي تقبع بداخلي! أصبحتُ أؤمن تماما أن الرأي السياسي جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان، وأصبحتُ أؤمن أنه لا يتخذ الرأي السياسي بناءً على من يراه سياسيا ناجحا، أو ما يراه أصلح لوطنه، بل بناءً على منظومة الأخلاق لديه، والصواب والخطأ من وجهة نظره.

أصبح الرأي السياسي يتخذ منهجا شخصيا شيئا فشيئا، هو يحب ماذا ويحب من، ويكره ماذا ويكره من؟ وبناءً عليه يختار الجبهة التي تناسب هذا، لتصيغ كل ما بداخله، الأفكار اللامنطقية بشكل منطقي، ويحاول أن يصدق ما يناسب فكره، ويرفض الاستماع لما قد يهدم فكره، وليس لأن تلك الجبهة التي اختارها ستدير الدولة بشكل جيد. هذا بالضبط ما يفكر فيه أيضا من هم أمثال ذلك الأسير، الذي كدت أقتله حين نادى باسم القذافي، فمن يتمنى حياته القديمة ويكره هذا التغيير، حتى لو كان التغيير ثورة ضد الظلم، تجده ينادي بعودة الديكتاتورية مناجيا أيام حياته القديمة! رأي سياسي بناءً على حنين شخصي لظلم اعتاده!

ربما كان هذا ما يُغذِّي النرجسية المفرطة، التي ولد بها القذافي، والتي جعلته يعتلي عرش ليبيا أكثر من أربعين عاما، لأنه رسَّخ في ذهن الجميع أن أيامهم القديمة أفضل من أيام جديدة مجهولة، لأنه خيّر الناس بين الجحيم وبينه، بين الفوضى وبينه، فوضى مسلحة! لا يزال يظن أنه محور الكون، وأن الكرة لن تدور إن لم يعد هو مركزها، يخرج للإعلام مغرقا في الوطنية، يتهم أهل بنغازي في شرف وطنيتهم، لأنهم قبلوا تدخل حلف الشمال الأطلسي، لأنهم دكوا عنقه! يتباكى الآن متحدثا عن الوطن، عن الضمير، عن إيقاف النزاع وإيقاف القتل!

حين أمسك الموت بتلابيب رجاله، بدأ يفكر في التفاوض دون أن يكون تنحيه خيارا. يستغل القذافي مشهدا كهذا ليثبت وطنيته في قبوله خطة وفد

الاتحاد الأفريقي لحل المعارك ووقفها، وفي نفس الوقت يقصف مصانع الحديد والصلب في أجدابيا، ويقصف مدنيي مصراتة بصواريخ الجراد!

لا فواصل عند القذافي بين المصالحة للتنازل عن تنحيه، وبين استمراره في المذابح الجماعية، انفصام القاتل بين جريمته ورغبته في السلام يجعلني أفرغ ما في جوفي، ويتناوش رجاله مع الشباب على أجدابيا والبريقة من جديد. لم يكن هناك سبيل لحسم سقوط المدينة في أيدينا، لم يكن هناك أيضا مجال للتراجع، أسوأ من القتال الموت البطيء، وإنهاك القوات في كرٍّ وفرٍّ لا طائل منه! لم أعد أدري لمن أسلم نفسي، وفي أي جبهة أقاتل: في الشرق أم في الغرب؟! تمرّ بي الأيام وتتنازعني الجبهات، وأشعر أني أراود الموت، ويراودني الجبن، تارة أقاتل وكأنها النهاية، وتارة أتراجع وكأن بيتا وأسرة وأولادا ينتظرونني.

رحلتْ ما تبقى من كتيبتي إلى معبر وازن عند الحدود التونسية. لم أكن أتخيل أن تطال النيران تونس، لأن معبرها كان نافذة للمدن المحاصرة هناك، بساط أخضر يحمي الهاربين من بطش لا قبل لهم بصده! انتُهك التراب التونسي من قذارات القذافي، التي لا تميز حتى بين طبيعة الحدود! يطارد بفكه حتى مَن تركوا ليبيا له! كانت رحلة طويلة وشاقة على زملائي، لم أشأ أن أشاطرهم إياها، خصوصًا بعد أن علمت باستيقاظ المدينة النائمة. كنت أنتظر أن أسمع صرخة طرابلس!

ربما كان هذا الإبريل هو أكثر شهر دام عشته، ربما لم تشهد عاصمة مثل هذه الاعتقالات والاغتيالات وحالّات الاغتصاب في شوارعها علانية! مُفزع هو الظلم حين يصير على مرأى ومسمع من الجميع، دون أن يقدر أحد على إيقافه! مع كل هذه الانشقاقات في صفوف أمن المدينة، وعلى الرغم من أنها كانت المدينة الوحيدة التي بقي فيها من يهتف باسم القذافي، خرجت البراعم المترمدة من بين أقدام القتلة، وصار لقاح الثورة في كل ذرة هواء يتنفسها النساء والأطفال والرجال.

خطف رجال القذافي العديد من الأطفال، وطالبوا آباءهم بالانسحاب، وقطَّعوا أجساد النساء اغتصابا، وامتلأت الصحراء حول المدينة بالجثث مجهولة الهوية، ولكن لم يعد هناك سبيل للتراجع، ولم يعد هناك ركن للحزن، لا بكاء ولا أنفاس، بقيت فقط أصوات الانفجارات تهتف في أحياء المدينة، في تاجوراء، وسوق الجمعة، وشارع المطار، وحتى نالوت، وجثث شباب قبيلة الجدادف تناثرت على وجه طرابلس تلثمها بالدم، قصف الناتو بيت الطاغية في باب العزيزية، وكلفوه ابنه سيف العرب، والعديد من أحفاده، ومع ذلك لم يشعر باقتراب مخالب الموت من عنقه! استشهد العديد من رجال القذافي وهم يعلنون انشقاقهم أمام فوهات السلاح، بعض الطيارين رفضوا قصف البيوت، فأسقطتهم طائرات المرتزقة قبل أن يسلموا أنفسهم وطائراتهم لجبهة الثوار، سجلت العديد من الفيديوهات في ذاك التوقيت لحملات قتل بشعة للمنشقين، لم تساعد في إخافتهم، بل في زيادة عددهم! يا لغرابة نهاية حياة قاتل الى توبة تجعل منه بطل، يالرحمة الله الواسعة. أتلقى الأخبار، ولساني يلهب بالدعاء بحسن الخاتمة!

سرتُ مع الشباب إلى مصراتة مشيا على الأقدام أكثر من عشرة أيام، كانت الصحراء فيها أمانا، الشرُّ في الأرض أم في البشر؟ هل تقبع الشياطين خارجنا أم في أعمق نقطة من رغباتنا؟ هل هناك جحيم أكثر ظلمة من نية مبيتة للإبادة؟ صحراء ممتلئة بالجثث والعربات المتفحمة، أناس تم نسيانهم في حفلة القتل، لم يعلم أهاليهم بعد حتى إن كانوا أحياء أم موتى! لم نستطع أن ندفن كل من قابلناه في الطريق، وإلا ما كنا أبدا لنصل، لم يكن في استقبالنا سوى الرصاص، والقذائف تطير فوق رؤوسنا، تناثرت أجسادنا بين حفر الصخور، لم يكن هناك وقت للاستيعاب أو الترتيب العسكري، تناثرنا على حدود المدينة نبحث عن فتحة، لننضم لأهلها بالداخل. لم أكن أتخيل أني سأتمكن من تمييزها!

على الرغم من ملابس الجيش التي تغطي جسدها واللثام الذي يخفي وجهها، على الرغم من قبضتها الثابتة في تصويب الرشَّاش، وعدم ترددها، على الرغم من تماهيها في الجانب الذَّكري من القتال، شيء ما فيها جعلني أشعر بالراحة، لا تزال حية، لا تزال بخير، لا يزال هناك وقت لإنقاذها! اقتربت منها أجذبها للتراجع، بعد أن صارت القذائف المضادة على مقربة ذراع منها، لا تزال تلك النظرة الشرسة مرتسمة على وجهها في كل من يحاول منعها من حقيقة وجودها، تعرفت عليّ وتعرفت عليها! لأول مرة أشعر أن هناك أحدا في هذا العالم يشبهني، نبأ وأنا لم يعد لدينا عالم أو وطن نرجع إليه، نبأ وأنا فشلنا في كل شيء في حياتنا ما عدا القتال! إن كان هذا هو فقط ما يمكننا فعله في حياتنا يا نبأ، فعلى الأقل لنفعله معا! لا يا نبأ، بعد أن تجرعت الفقد حتى امتلأتُ، لم أعد أرغب مجددا في أن أكون وحيدا بعد اليوم!

«قالت لي ذات مرة:
«إذا تخدر جرحك المفتوح، فاعلم أنك تموت»

عمرو صبحي

شهد صادق

أرقام الأيام المتلاحقة في التقويم المُعلَّق أمام مكتبي تبدو لي ـ أحيانًا ـ أنها لا تعنيني، ولا تنتقص من عمري، وإنما من عمر غيري! تبدو الأيام بلا ملامح وتتكاثر وتتزاحم عليّ بأحداثها! في عقلي وطنان كبيران، أحدهما يخصني والآخر يخص الآن الرجل الذي هو وطني، حبه في قلبي وطن داخل وطن!

كما تتلاحق الساعات تتلاحق كلماتي على الورق، وتتطاير الأرواح أمام عينيّ كما يتطاير الورق المكتوب، لا بياض في الضحايا، وكأني ظننت متفاءلة ذات يوم، ذات ثورة، أن بسيرها في شوارع وطني ستمحو الظلم والفساد هكذا ببساطة كما تجمعت عقول وقلوب الناس ببساطة! إن الستين عاما الماضية كانت تأكل في لحمنا. ظننت أن سقوط الطاغية يعني أن نخط اسم آخر شهيد، ونبدأ بالبناء، بما أن تلك الروح الجماعية الشفافة ـ التي كنت أراها في الوجوه والعيون والوطن ـ كانت هي السبب في هذا الشعور!

ربما شعرت أننا لن نختلف قط، وأن وجهة الوطن واضحة، والطريق إليه تجاه واحد. ربما هكذا يظن عبد الله الآن وهو يقاتل في وطن ليس

بوطنه، أدرك أن كلمة الله أكبر على أي أرض تجعل تلك الأرض وطنه، أدرك أنه يشعر الآن أنها قضيته، ولكن ماذا لو اعتقلوا الطاغية، لو سجنوه وحاكموه؟

هل سيتوقف ذرف الأرواح؟

هل ستكون الأرض ممهدة للبناء، أم أن أوطاننا خُلقتْ هكذا؟

أم أن خلاياها أصلا محمولة بجينات الفساد؟!

لست أدري كم مرة أقنعت ذاتي ألا أتابع الأخبار، وأن أظل سجينة قوقعتي، أدير ظهري للوطن، حتى لا أبصر حجم قبحه، لكن للقبح صوت ورائحة، ولي أذنان وأنف لا أستطيع إغماضهم! لقد وعدني عبد الله أن يتصل بي كلما ما أمكنه ذلك، وعدني على لقاء بلا لقاء وموعد بلا ميعاد، هكذا كان في حياتي، وهكذا ظلّ! كنت أظنه سيتصل يوم قصف بيت القذافي ومقتل ابنه، كنت خائفة أن يكون طرفا على الأرض في تلك العملية، كنت خائفة أن يكون من المدنيين الذين راحوا ضحية لتلك العملية!

رأس طاغية تساوي شعبا، يموت الشعب ليتخلص من ديكتاتور، فمن يتبقى يصير الديكتاتور التالي! والناتو يرمون بصواريخهم عرضيا لتصيب دائرة كبيرة حول النقطة التي يقبع فيها الهدف، بحجة وجود الأسلحة وبؤرات عسكرية حول الدائرة، ومن ثمَّ يهرع الإسعاف لحمل الجثث المدفوعة سلفا، ومن ثمَّ يخرج أحد أعضاء الحلف ليعتذر مسميا الموتى أنهم مجرد أخطاء في إصابة الهدف! ربما كانت أرض ليبيا هكذا حقا تتزاحم فيها الرمال بالرصاص، ويصعب فيها تمييز الوجوه من فوهات البنادق!

ربما يولد كل مواطن هناك برصاصة

وكل قبيلة بذخيرتها وكل امرأة بدموعها!

هل تحوَّل وجه عبد الله إلى فوهة هو الآخر؟ هل امتهنت يداه القتل، تلك اليدان المرتعشتان على أعتاب الخطيئة! هل نحن في الزمن الذي يصير القتل فيه إجباريا؟ ولكن متى كان هذا الزمان الذي لم يُمتهن فيه القتل تحت أي مسمى، مسمى دفاع أو هجوم، سلام أو حرب، فتنة أو صلح، ولكن وقتها هل ينتظر الوطن؟

أم أنه يتركنا نتيه باحثين عنه كاليهود محرّمة علينا السكينة، غارقين في الغربة حتى آخر حد في المهانة بين وجوه أبنائنا وآبائنا؟ لماذا عاد هذا الشعور البائس إلى صدري من جديد بعد أن ظننت أنه انتهى بنجاح الثورة؟ هل نجحت فعلا؟ كنت أظن ذلك حتى رأيت مصريا يحمل السلاح ليقتل به مصريا آخر بحجة حفظ الأمن، بحجة أن هذه وظيفته! ما إن تكررت هذه المشاهد، وعاد الفضّ بوحشية، ثم اعتذار السلطات بنفس الطريقة على أرواح! نسوا أنهم أرواح، فنسيتُ أنه كان وطني، لبضعة أيام كان بين يدي، ولكنه الآن ما عاد هناك، لقد عاد لهم من جديد!

ما توقعت قط أن الوطن لا يزال مرتكنا على حائط الفتن الطائفية بعد أن رأيت المسيحيين يلفون أجسادهم حول المسلمين وهم يصلون، ما توقعت قط أنه يمكن أن تنطلي علينا مثل هذه الخدع مجددا، وأن تعود تلك النغمة في الحديث إلى الإعلام «المضطهدون»، «القلة»، إلا حين طفت على الساحة مشكلة كنائس عين شمس والعمرانية، وصارت قضية المسيحيين في ماسبيرو. حين أرقب المسيحيين وهم يحملون صليبهم بحرقة، وينادون بدينهم وبأبسط حق لهم أتساءل: لماذا لا نحترق على أبسط ملامح ديننا كما يفعلون؟ لماذا تُقابل صيحاتهم بالاحترام، بينما تُقابل حرقتنا على كبائر ديننا بالاستهزاء والاحتقار، في دولتنا المسلمون فيها هم القلة، وهم المضطهدون، والإسلام فيها هو الغريب!

كم من شباب مسلم ومسيحي مات في أحداث ماسبيرو، وكم من حاملي وظيفة الأمن قضوا على أمن هؤلاء الشباب وهم يدافعون عن حقوقهم ورأيهم! يُذكر الشهيد المسيحي في وطني، ويصير دمه أغلى، وتعداد روحه أكثر وزنا من المسلم، كالفرق بين الدولار والجنيه المصري، ثم يتباكى الإعلام بالفتنة والاضطهاد! من الفخر أن يطلق على مظاهرة أنها مسيحية، على أن تصير نفس تلك الدعوة ونفس تلك الكلمات عارا وتخلفا إن استُبدلت كلمة المسيحية بالإسلام!

ها هم المسيحيون يسيرون بصلبانهم مفتخرين، بينما يسير عبد الله خائفًا يترقب، لأن لحيته مرفق إجرامي لوجوده، لأنه قد يعتقل في أي لحظة تحت أي مسمى، ولن يصرخ أحد المسلمين لنصرته، ولن ينزعج أحد لإهانته!

سيتذكّرون وقتها حرية المعتقد والمساواة، وعدم إقحام الدين في السياسة! انقلاب الحقائق والتناقض يصيبني بالغثيان، ويصعِّب عليّ استيعاب المشاهد أمامي، التي من المفترض أنها واقع أعيشه! لم أفهم كيف صوّر الإعلام من جديد هؤلاء المحتجين على أنهم يهددون أمن الوطن، وكأننا لم نثر لشيء، وكأننا لم نغير شيئا! الإعلام هو الإعلام، الصورة المصدرة لا تزال متناسخة قبلَ وبعدَ الطاغية! لم أفهم هذا الحدث كما لم أفهم قبله. كيف يمكن للضباط مصريّ الجنسية مسلمي الديانة، أن يقفوا ويفدوا حياتهم لحماية سفارة إسرائيل بأي حجة وأي مسمى، ويعتدوا على مصريين مسلمين مثلهم من المواطنين، لأن الأوامر تقتضي ذلك والسياسة تقتضي ذلك!

سياسة مجردة من هوية، ودين لا شيء فيها سوى المصالح، لأن مشاعر إسرائيل ومكانتها محفوظة حتى على أرض عدوها، ربما كان المكان الوحيد الذي قد أحسُّ فيه بالأمان على حياتي، هو سفارة إسرائيل تحديدا!

لماذا يرخص الموت على الأرض العربية، ولماذا هو سهل بهذا الشكل؟!

من السهل أن يدخل جيش القذافي تونس، ويقتل أبناءها فقط؛ لأنه يريد ذلك! لا نحترم شعوبنا ولا نحترم بعضنا ولا حدودنا! الاحترام في الأرض العربية ليست إلا كلمة تقال في الإعلام، وتُنتهك على الأرض! لم أصدِّق عينيّ وأنا أتابع كل يوم موت جنود جيش تونس دفاعا عن حدودهم، لمجرد أنهم أنقذوا الهاربين مما ينتهك في حقهم ببلادهم!

ألسنة الانتهاك طالتهم حتى خارج بلادهم، لأنهم لا يزالون داخل نطاق العرب! العرب ينددون بالحقوق الإنسانية المنتهكة على أرض ليبيا، لكنهم لا يملكون أن يعترفوا بالمجلس الانتقالي، فلا بد أن يأخذوا موافقة دول العالم الكبرى أولا، حتى نتبعهم، ونشكل من خلالهم موقفنا! نحن لا نعنيهم إلا في مصالحهم، ونحن لا نعنينا كذلك إلا في مصالحهم!

أخرج من مهزلة لأجدني أعيش ما هو أكثر قُبحا وغباء منها! أشعر أحيانا أني لا أنتمي لكل هذا، وأنه ليس زمني أو مكاني، وليس الوطن الذي أستحق، وليس الشعب الذي أريد أن أكون منتمية إليه!

من المضحك حقا أن تراقب كل يوم على شاشات الإعلام كذبة تلو الأخرى، يقولها شخص ينظر إليك بعين باردة وبثبات، ويقسم بشرفه وشرف مهنته بأنه يقول لك الحقيقة! ترى كم يستحق الحق ثمنا لبيعه؟ كيف يمكننا أن نعيش في منزل نظفنا فيه فقط حجرة النوم، بينما بقيت كل غرف المنزل بقذاراتها؟ كيف يمكن أن تنهض دولة حين انتزعنا طاغيتها واستبدلناه بمجلس من رجاله؟

هذا ما أراد إيصاله الجميع حين تجمعوا في مظاهرة التطهير، تطهير الأجهزة التي كانت تبث الحياة للطاغية وتجعله ذات قيمة، دعوة ليس فقط لطرده وإنما للتخلص من متعلقاته، ممن عاشوا في نعمة سرقته في كل

مؤسسات الدولة الرئيسية، دعوة لتطهير الشرطة التي تطلق النار على هذه المظاهرة الآن، والقضاء الذي لم يحكم بعدُ على أي من الفاسدين، فهي مجرد محاكمات هزلية صورية!

والإعلام، الذي لست أفهم إلى الآن لماذا لا يزال هناك أحد يستمع إليه، والوجوه نفسها قبل وبعد الطاغية! في هذا الوطن لا يكفي أن تفقد ابنك شهيدا في أي حادثة تخصه، بل يمكن أن يُعتدى على أهل الشهيد الثكالى، الذين فقدوا كل شيء برحيل فلذات أكبادهم؛ فداء لتنظيف وطن يبتزهم ويدوس، ويعتدي عليهم، لأنهم ثاروا في لحظات شعروا فيها أن دم ابنهم قد سال هدرا وصار مَداسا، كما حدث في مسرح البالون، وكما يحدث كل يوم في فض التحرير! لم يعد التحرير رمزا للثورة يعود إليه كل من يرفض ما يراه، بل صار حائط مبكى تذهب إليه كل أم لعل شيئا من ريح ابنها يصيبها! ربما عليّ أن أعيش في هذا المكان طوال عمري! في هذا الوطن قد يبقى المصريون ثائرين متجمعين في التحرير عمرا كاملا، لأن فساد أجيال سابقة لم يعد من الممكن محوه بحسن النية!

يثبت اعتداء الأمن على المواطنين كل يوم نظرية البقاء للأقوى، البقاء للسلاح، الاعتداء اليومي يكاد يقول لهم:

فلتستمعوا بكونكم سلميين، فأنتم أضحية عيد هذا الوطن!

لهذا كانت هذه المظاهرة لينادي الجميع بأن تصير الدولة مدنية، لا يعيش ألم هذه الدولة حقا إلا المدني، فلم يكن من الضحايا سواهم، لكن المشكلة تكمن في كل مَن يدعي أنه له الحق بالقرار عوضا عن الأغلبية! ليس هناك أكثر حقارة من موقف ديمقراطي قد اتخذ فيه الأغلبية قرارا ليكون من لم يعجبهم حزبا ومظاهرة يطالبون فيها بإنزال الديمقراطية تحت حذائهم فقط؛ لإرضائهم، إن من لم يفكر سوى بما يريد فقط هو من يريد حقا أن يضيع هذا الوطن.

اتصلت بدار النشر، وأعلمتهم أني ما زلت أعمل على روايتي حتى أطمئنهم على الرغم من نفاد الحروف في وصف ألمي! لم أكن هكذا في البداية، لم أكن أشعر بهذا القنوط، لكن لا يزال لديّ أمل حين تُسَّلم السلطة إلى الرئيس المدني، حين تعود وجهة كل فصائل الشعب لمساعدته، ليسترد الوطن أنفاسه، حينها سيكون لديّ الكثير لأكتب عنه، حينها سأبني وطنا يناسب أن يولد فيه أولادي، ولا تضيع حياتهم هدرا لطلب الحقوق التي هي بالأساس من حقهم، لئلا تكون حياتهم هينة في عيونهم بهذا الشكل، كما رأيت في عيون أفضل شباب هذا الوطن، لأن الحياة والموت فيه سيان!

ربما من الأفضل لعبد الله ألا يعود الآن! هل يصالح الوطن أبناءه؟ هل يلملم القطع الذي مزقها منهم ويلزقها من جديد؟ هل سيشعر عبد الله أن شيئا ما تغير إن عاد، هل هذا ما أبقاه هناك؟ لأنه في ليبيا يغيره بيديه، يقاتل الفساد بالعين وبالسن! يجب أن تعود مصر حتى يعود إليّ! هو يبحث عن وطن يكفل له كرامته قبل أي شيء، وأنا أبحث عن رجل مثل عبد الله يكفل لي قلبي، وديني ودنياي، وآخرتي، ويكون خير مربٍ لأولادي، لهذا يجب أن يستقيم الوطن بسرعة، يجب أن يعود إليّ!

أسمع أذان العصر، فتنتابني رغبة شديدة في النزول إلى المسجد، يؤلمني أني أتذكر عباداتي كلما احتجت إلي شيء من ربي! يؤلمني أن تكون عبادتي له فقط مصلحة، يؤلمني أني كلما كانت أموري على ما يرام أنسى التضرع إليه، ولا أتقن عبادتي له! ربما لهذا يجب أن أواظب على كل ما أقدر عليه من العبادات، حتى تصير عادةً في يومي لا تنقطع، كما الكتابة، كما القراءة، ليس لأن العادة تُفقد العبادة لذتها، ولكن حتى لا يلهيني شيء عن تقدير ربي حقه!

هكذا كان يقول لي عبد الله. عبد الله كان يجيد الشرح والنصح، كنت أحب أن أسأله وأستثير هذه الطاقة لديه، فيتحدث بسرعة البرق، وتشع

عينيه بريقا خلابا لا يناسب طبيعته الساكنة! كنت أستمع إليه مرات بدافع المعرفة، وباقي المرات بدافع الحب، بدافع مراقبة ذلك الوهج الذي ينبعث منه! لكل رجل نقطة تبث فيه حياة فوق الحياة، وروح فوق الروح!

كنت أتمنى أن أكون أنا تلك النقطة، ربما كانت كل امرأة تتمنى ذلك، ربما هذا ما يجعل المرأة تنجب الطفل تلو الطفل، ليس لتربط بها الرجل، بل لتشاهد هذا الوهج الذي يتقد به حين يحمله فخورا بين ذراعيه، ويكون على الأقل جزءا منها!

تتمنى المرأة أن تكون هدف الرجل، وأن يكون قد كسب قلبها إنجازه الأعظم ونجاحه المستمر، ربما كان هذا سبب خذلان المرأة من الرجل على مدار التاريخ، أنها تريد أن يعاملها الرجل بالمثل، كما يطلب منها أن تعامله، وأن تهتم به، وأن تجعله أول أولوياتها في مختلف مراحل حياتها! إن جل ما أريده هو أن أراه ثانية، لا أريد فقط أن أراه بخير وأن أطمأن عليه، لا، بل أريد أن يكون ملكي، أريد ان يعود إليّ.

كنت أصلي خلف الأمام، وأدعو الله في كل سجدة، مثل تلك المرة التي كنت فيها في مسجد الكلية، وميزت صوته يصلي بنا، أستطيع أن أميز صوته من بين رجال الكون، أستطيع أن أميز بحّته في آيات الوعيد، وصوته الحاني في آيات الترغيب، في ذلك اليوم شعرت بالفخر أني أصلي خلفه. دمعتْ عيناي وأنا أتخيل أنه يصلي بي في منزلنا، بأولادنا، بهذا الصوت والنطق الصحيح للآيات، وتغيّر نغمة الصوت مع معانيها. كم سيفخر أولادي بوالدهم وقتها، ما أجمل أن يكون الأهل أفضل معلم في الدين، وألا يحتاجوا لشخص خارج أسرتهم يعلمهم كل علوم دينهم، ربما هذا ما كنت أحتاجه في أسرتي لأكون مثله، لكنت الآن معه، لما كان تعرض لأي خطر!

أول شيءوقعت عليه عيناي في أول أيام رمضان، هو صرخات الاستغاثة والخيام المحترقة في كل شبر في التحرير، الوجوه المَروَّعة، والرجال والنساء المساقون من ثيابهم بمهانة إلى الاعتقال! لم أصدق أن يتم فضّ اعتصام التحرير بمثل هذه الوحشية في أول يوم من أيام رمضان، وأن يُداس مسجد عمر مكرم ببساطة وليس من طغاة أو كفرة، وإنما من مسلمين! لم أستوعب نوعية من نزلوا للتظاهر، وصرت أرى أن الثورة أصبحت شمَّاعة يعلق عليها الجميع مصالحه وتخريبها، بحجة حماية الثورة ومبادئها! أُصبتُ بحيرة شديدة، لمحاولة فهم المشهد، لمحاولة معرفة الجهة التي أنتمي إليها!

كيف يمكن أن يتصرف الإنسان حين لا يجد موقفا صحيحا ينضم إليه ويمثّله؟ حين يشعر أنه وحيد تماما، حين ينسى، من فرط القبح الشكل الذي كانت عليه الثورة، حين ينسى أصلا لماذا ثار، ولمن ثار، ومن أجل مَن صمد؟! لم أعد أفهم أي شيء في كل تلك الأوراق الموضوعة على الطاولة، لم أعد أفهم طبيعة العدو، وما يريده الصديق، لم أعد أرى أين نحن، وإلى أين سيأخذنا هذا الطريق؟ كانت تلك اللحظة المؤلمة هي التي اختارها عبد الله ليتصل بي، لأول مرة وأنا أرى رقما من ليبيا أتمنى أن يكون بدر وليس عبد الله! كنت أحتاج سخطه وثورته في مثل هذه اللحظات! ما إن سمعت صوته حتى انفجرت في البكاء، صمت يستمع لبكائي، لست أدري لماذا يبقى بكائي شيئا يثير فضوله؟ لماذا أجده ينصت بكل اهتمامه لأكثر اللحظات التي أصمت فيها وأستسلم لنوبة الألم:

ـ لا يزال الوقت مبكرا للبكاء يا شهد، لم ينته كل شيء.

ـ لا أحتاج كلمة النهاية لأبكي.... كل شيء يتداعى، المساجد تداس بالأقدام، والناس الذين أريد أن أدافع عن حقوقهم أجدهم مذنبين وبلا قضية! لست أدري في هذه الحالة، هل التظاهر للاعتراض أفضل لحال

الوطن، أم السكوت والعمل؟ ولكن كيف نصمت وكل هذا القبح أمامنا؟ وكيف يمكن أن نبني أي شيءونحن نعترض فقط؟ ماذا يمكن أن نفعل؟ ماذا يجب أن نفعل؟

بعد أن أخرجتُ كل ما بداخلي، شعرت أنه لم يكن الكلام المناسب الذي يمكن أن أقوله في مكالمة خاطفة من رجل يعيرني لحظة الهدوء الوحيدة في حياته في الوقت الراهن بين قتالين، لكنه مع ذلك استمع إليّ، هدّأتني نبرة صوته وجنوحه للصبر، وتذكيره لي بنصر الله. يجيد المواساة ولا يقبلها مني ولو في تنهيدة، لم يكن عبد الله الذي اعتدت، كان مختلفا وكأنه... يتوسل إليّ!

ـ شهد لا تنسيني في الدعاء، لا أستطيع أن أصف لكِ الحال هنا، لا أستطيع أن أصف لك كم الجثث التي أراها في الساعة، وكم من اضطر لدفنه، ومن اضطر لقتله! ادعي الله بالنصر القريب.

ـ هل ستعود يا عبد الله، بعد أن ينتهي كل شيء؟

ـ .....

ـ هل ما زلت معي؟

ـ ماذا سأجني من العودة يا شهد؟ ما جنيته من البقاء؟ أتمنى الشهادة، لو لم أنشدها هنا سأطاردها، فأينما كان الظلم صارت الجنة خلف إسقاطه!

أريد أن أصرخ أحبك، أريد أن أبكي وأصرخ: أرجوك لا تفعل هذا! لا تمت بعيدا عني، لكني أتجاهل كل هذا، يجب أن أتجاهل كل هذا، فالرجل لا يحب المرأة الصريحة الضعيفة، الرجل يرغب دائما بالمراة التي تترفع عنه! قلتها في النهاية بقهر:

ـ فليحفظك الله من كل سوء، وليكتب لك ما فيه الخير.

خمنت أنه صمت وقد فاجأه ردّ فعلي، ظن أني سأتوسل إليه مثل كل مرة! قال لينه هذه المهزلة:

ـ ربما لن أتمكن من الاتصال بكِ في الأيام القادمة، أستودعكِ الله يا شهد.

ـ فلتفعل ما تريد، لم يعد هذا مهما!

ـ لا أريد أن ننتهي على خلاف.

ـ نحن لم نبدأ أصلا لننته!

ـ .... لن ننتهي!

شعرتُ أنه كان يحدّث نفسه!

أغلق الخط، وترك هذا الاعتراف معلقا، وقلبي معلقا، وسعادتي معلقة، بين نصف أمل نصف بداية ونصف نهاية، وأطنان من الحب!

«ذاكرة الفقد كلاب مسعورة تنهش بلا رحمة، لو أُطلقت من عقالها»

رضوى عاشور

نبأ عبيدي

كرهت اللون الأخضر، لا يجب أن يرمز هذا اللون للسلام والصفاء، يجب أن يرمز للقتل والنهب والمصالح، يجب أن يغيروا اللون الذي يلصقوه بطبيعة ليبيا من الأخضر إلى الأحمر، لون كل ما صرت أراه في هذه الشهور الطويلة، لون له رائحة تشبه الأذرع التي تلتف حول رقبتك لتبتلع حياتك، له لزوجة تشبه تلك الضمائر التي سالت لأجل هدف واحد، القوة، الانتصار! القتال هو دوامتي التي أتيه فيها لئلا أرى ما لا أريد أن أرى، لئلا استوعب ما لا أريد أن أستوعب! القتال هو الذي يعميني عن الموت، القتال هو هذياني الذي أملأ به ساحات الصمت المطبق فيّ! في القتال أشعر أني إنسانة ولا إنسانة، بل إني لا أشعر على الإطلاق!

كثير من الرجال يقاتلون ليثبتوا أنهم أبطال، ليثبتوا رجولتهم لأنفسهم قبل غيرهم، أو ربما لأنه لم يعد لديهم شيء يفعلونه في حياتهم، ولا شيء يتقنوه مثل القتال! وماذا يجيد صانع السلاح إلا خلق غيره أو خلق سبب لاستعماله! أما أنا، لم أعد أشعر أني أقاتل لأنتقم، لم أعد أتذكر لماذا سأنتقم ولمن! إني أقاتل لأرتاح، لئلا أفكر، إن القتال هو قبري وهو جنتي! وجدتُني

فجأة في يوم ما في ساعة ما أستيقظ لأكتشف أن القتال في حد ذاته صار الوطن الذي أنشده، إن صممي لا يمنع صراخ الألم بأعماقي، وأقوى الصراخ ذلك الذي يعرف كلمة لماذا!

بعض الفواجع تحصل دون هدف ودون سبب ودون مسبب، فيقطع كل منطق فيك وكل ذرة بسيف لماذا! لماذا حدث كل هذا، هناك حين أرفع سلاحي، وأسير بين الخرابات وأختبئ خلف أطلال أسرة وأطلال بيت كان يعمُّه الضحك، أشعر أننا سواء، فعلا القتال هو صلب الديمقراطية، الطريقة البدائية الأولى للمساواة، إن قتلتني فزت وإن قتلتك فزتُ أيضا، لا خسارة بالنسبة لي، لأني لم أعد أقاتل لوجهة معينة، إني أقاتل لأنعم بالسلام!

ينتابني الضحك وأنا أتفرج على المظاهرات في شوارع كل مدينة نتسلل إليها لنساعد الرفاق، لم أعد متقيدة بمدينة لأدافع عنها، فكل المدن تساوت، وكلها علا فيها صراخ الفقد والذل، وكلها باتت ذات ملامح واحدة بأسماء مختلف: بنغازي، البريقة، أجدابيا، سرت، مصراتة، طرابلس، كلهم واحد، لكني أضحك؛ لأن بعض الناس لا يزالون يظنون أن المظاهرات قد تفيد أحدًا غير الإعلام، الذي ينقلها لتكون حديثا يقتل الوقت على مائدة غذاء العالم، أو ما شابه!

بعض الناس يجب أن يُقتلوا حتى لا يشعر آخرون بالملل، بعض الناس يجب أن تمر إنسانيتهم بمراحل الألسنة الملتهبة في وجه الظلم والأيدي المشلولة في فعل شيء حقيقي، لإيقاف الظلم! كثير من إنسانية البشر ادّعاء، لتنفيس الشعور بالذنب ليس إلا! لكن لا بأس، ففي هذه الحياة الملهاة كل شيء يفقد معناه وسببه بمرور الوقت، كما فقدتُ معنى وجودي وسبب قتالي بعد أن اعتدته.

كل هذا ولا يزال هناك أمل لدى هؤلاء المجانين السائرين في

مظاهرات، في أنهم قد يُحدِثون فرقا بالحديث! الكلمات لا تمسح دما، إنهم يصيبوني بالغثيان، كما يصيبني هؤلاء المتباكين في جنازة عبد الفتاح يونس، لماذا تصير الرتبة تفخيما للموت؟ لقد كان قائدا ومات، مات رجال كثيرون، ونساء وأطفال وعجائز ميتات أكثر بشاعة، لكن الرمز والوظيفة تضفي على الموت مهابة أكبر مما يستحق!

من الذي يجب أن تقام لأجله الجنازات، ويبكي فيها الناس بمثل تلك الحرقة؟ هو أم الوطن؟ هو أم الإنسانية؟ هو أم الرجولة؟ هو أم البراءة؟ هو أم حجر في جدار بيت كان يأوي الفرح والضحك والحب والاحتواء؟ هو أم زوجي الذي أحياني ومات؟ لحسن حظي أني لم أبق في بنغازي، لأشهد مهزلة جنازة ليبي واحد من وسط الملايين الذين ماتوا والذين سيموتون، والذين لم نعرف بعدُ أين تقع أقدامهم بين الحياة والموت!

بعضنا يعلق في موقف ولا يستطيع الخروج منه للأبد، يظل يعيش فيه لحظة تلو الأخرى، هكذا بدا لي عبد الله! القتال ليس الدوامة التي يغرق فيها، وينسى وجوده، على الرغم من مرور كل هذا الوقت، وعلى الرغم من كل ما شاهدناه لا يزال عقله يعذّبه بالمقابر الجماعية التي اكتشفناها، والتي أدركنا أن الجزء الشرقي منها ينتمي للآلاف الذين قتلوا في بوسليم! بدا لي عبد الله وهو يبكي وينحب، وكأنه تعرّف على جثة أحد أولاد الحاج خليفة، بدا لي وهو يعدّهم ويكشف القبور عن رفاتهم المبعثرة والمشوهة على أنه ـ بطريقة ما ـ ينتمي إليهم، ربما لأنه لم يعد هناك من يبكيهم، ربما جفَّ الدمع كما جفَّ مني وانتهى حزنا على بدر وأمي!

ربما لأننا جميعا خاسرون، جميعا لدينا من مات، فلم يعد البكاء مستساغا، لم يعد هناك من أحد في مصيبة ومن واجب الباقي أن يؤازره في شدته! الجميع خاسر هنا بالتساوي! أخيرًا ـ وللمرة الأولى ـ لم يفرّق الموت في معاملته بين أحد!

لم أشمّ رائحة أكثر قذارة وتقززا في حياتي كما شممت حين اكتشفت أن كمّ الأميال التي سرت عليها، ما هي إلا قبور لأناس ماتوا دون أن يعلم أحد، ودون أن يحزن أحد! جثث أناس لا يزال أهلوهم يمتلكون أملا في عودتهم، في هذه الأرض نهاية هذا الأمل، في هذا الجسد الذي أخذ حيزا في الأرض لا يكفي حجم الحزن الذي خلّفه!

لم يكن هذا أسوأ ما اكتشفناه، لم يساوِ شيئا مقابل تلك اللحظة التي حفرنا فيها أنفاقا وقبورا وجدنا فيه أحياء فقدوا قدرتهم على الرؤية والحديث، بمرور السنين التي بقوا فيها مسجونين في زنازين في أنفاق تحت الأرض! ما هو الذنب الذي يمكن أن يقترفه أي إنسان ليعيش سنوات بلا ضَوء ثمنا لما فعل؟ قطعًا لم يكن ليفعل كما فعل من وضعه في مثل هذا السجن! عاهتي كانت نعمة مقابل تلك العاهات التي أصابتهم، ولم تكن بالولادة، بل بسبب موت قلب أحدهم وهو يضعهم بمنتهى البساطة بقية حياتهم هناك!

لم يستطع أحدهم أن يفهم ما حدث، وأننا جئنا لإخراجه وليس لتعذيبه، وبعضهم رفض الخروج، والقليل منهم الذي كان لا يزال يملك قدرته على الحديث، ليحكي لنا ما يتذكره من سبب حبسه في مثل هذا المكان بالأساس! كل هذا ولا يزال القذافي يخرج للإعلام بكلمة ليعطي لنفسه الحق بالتحدث باسم الشعب، مهينا كل من وضع يده في يد الناتو ليتخلص منه! ببساطة شديدة يعتبر نفسه مجاهدا وبطلا، وكلما جاءت إشاعة بهروبه من طرابلس ينفيها، يكاد يتمزق قلبي في كل مرة أتخيل فيها أنه قد يفلت، أنه بعد كل هذا الأسى والجحيم يمكن أن يفلت منا، لكم يريحني أن يعلن انه لا يزال هنا على نفس الأرض التي أدوسها، لا يزال يملك في حنجرته كلمات يصف بها جحيمه بأن قتاله استعمار، ومتمرديه خونة وعملاء!

سقوط المطارات في أيدينا، وسقوط مبنى التلفاز والحارات والمناطق والشوارع، انهيار ذخائر الأسلحة، واستيلاء رجالنا عليها، الضحك وسط القصف الصراخ وسط الرصاص، كل هذا كان نعيا لما فات، ولكن باب العزيزية، البيت الذي أطلق عليه الطاغية رمزه للصمود، لقد كان متعتي الوحيدة التي حظيت بشرف اختبارها، أن يصل الرصاص من الرشَّاش الذي أمسك به إلى الأسوار الخرسانية المضادة للصواريخ لهذه القبة، التي يقف عليها تمثال نسر أخضر، يكاد يشفي غليلي أن أفصل رأسه عن جسده، وأنتف ريش جناحيه الحجريين!

لأيام لم أتذوق النوم، لأني لا أريد أن أفوِّتْ لحظة استسلام رجاله وهروبهم من البيت الذي كان يعتبره جنته! لأيام كنا ندور حوله، ونأخذ كل المساعدات الممكنة من طائرات الناتو لقصفه! لم يكن يريح أعصابي سوى الطائرات المتجسسة، التي تحرص على رصد القذافي إن حاول الهرب خارج ليبيا، كما فعلت زوجه وأولاده بوصولهم للجزائر. لا يزال جنونه يوهمه أنه بطل، أنه المظلوم والضحية، أن هذا الوطن كان له في يوم ما، وسيظل له، لينال شرف الجهاد من أجل سلطته فيه لا من أجله! لا أكاد أصدق أن هناك ما يستطيع قوله لنفسه ذاك الطاغية وهو يجلس ليحاول استيعاب ما يحصل!

إن ذاك البيت يرقد على فرحة ما قد تكون الأولى التي نتذوقها! لم يعد الرصاص يُطلق للقتل، صار يُطلق للاحتفال! لم يعد المدربون منا هم مَن يحومون حول باب العزيزية لاقتحامه وإعلان سقوطه، بل صار المدنيون يقذفون بكل ما يحملون، مستعدين أن يقذفوا بأنفسهم، لتكون أجسادهم أحجارا يرجمون بها هذا المبنى ورمزه! لقد رأيت الجنون والهوس مجتمعا في الوجوه، وهم يقسّمون الغنائم والأسلحة التي فوجئنا أن كثيرا منها كان من الذهب!

القاتل يُحلي سلاحه بالذهب حتى يتلذذ وهو يدق مسمار الموت في صدورنا، صارت زخارف قبة المبنى من ثقوب الرصاص، وصارت الأحذية تدوس على رؤوس تماثيل القذافي! هنا في جحر أكبر الجرذان تقبع الأسلحة والغنائم، التي تجعله يعيش بقية عمره مرفها هو وأولاده ومحصنا، بينما أهل سرت لم يجدوا مهربا سوى الرحيل!

المنظمات العالمية تعلن عن رحيل أكثر من عشرات الآلاف من المواطنين من سرت؛ لأن الكهرباء والماء انقطعتا عن المدينة، ولأن المَحال أُغلقت جميعا، ولم يعد هناك في تلك المدينة طعام يأكله أحد، بينما هذا الحصن المنيع قصرٌ يعجُّ بالنعم! إني أهرب من النوم، وأهرب من الاختلاء بذاتي، حتى لا أفكر في مثل هذه المفارقات، حتى أترك مساحة في صدري للتنفس ما بين الكره والغل والحقد، حتى أبلع ريقي دون أن تمتلئ معدتي بالمرارة، مدينة كاملة تجوع وحصن من أمتار يكفي هذه المدينة تحصينا وأمنا وطعاما!

حصيلتي من الانتقام تكفيني ليلتين دون قتال، حصيلتي من الاحتفال بأن كلمة النهاية قريبة، وبأني سأكون ممن سيشاركون في وضعها في هذا المسلسل اللاإنساني، الذي كنت مجرد كومبارس أو ترس فيه سيموت أو يعيش، لا فرق، الفرق فقط في موت الرتب والشخصيات الهامة! أنام والسلاح بين ساقيّ، لا أستطيع النوم إلا في هذه الوضعية، يقلق نومي وجوه فقدت جزءا منها أو نصفها، وظلت متجمدة على تعبير ساهم، لا أرى القتلى ساعة لقائي بهم وإنما أراهم حين تنفرد بي أحلامي!

لا أكاد أطيق تلك الشفقة التي تنهال من جميع من حولي نحوي، وكأن المرأة ـ لأنها امرأة ـ مركز لإدرار الشفقة أكثر من غيرها! لا يحصل الرجل على مثل تلك الأطنان من الشفقة إن فقد زوجته؛ لأنها ليست ظهره، بينما يظل في نظر الجميع هو ظهرها، وسر وجودها! ربما كان سر

حيرة الجميع في حقي أني لست امراة في نظرهم بنفس مقاييس الاحتياج والضعف والألم، ربما يشوِّه شكل السلاح القبيح الساكن في صدري شكل جسدي الأنثوي، ويجعله يبدو مسخا بين البراءة والقذارة، ربما هكذا صرت فعلا!

ربما هكذا صارت ليبيا بأعماقي، فهذا زمن يشبه تلك الجثث التي بلا معالم تحت أرجلنا، هذا زمن شُوِّه فيه كل شيء، ليس الجميل فقط، بل حتى المعروف! لا أحب الأسئلة ولا أحب البحث عن إجابات، لا أحب أي شيء صار فيه تفكير، التفكير ألم، التفكير وعي، والوعي جحيم، خصوصا الوعي بما انتهينا إليه، وبأسبابه! لا شيء سوى الهذَيان، يختلط في عالمي ما أراه في كوابيسي، وما أعيشه! فلربما صار الواقع كابوسا، والكابوس أخفّ وطأة مما أعيش!

لا يلمس جسدي سوى أعضاء باردة لزجة فقدت بقية الجسد، الذي كانت تنتمي إليه، والتصقت بي، لكني لم أصرخ في الليل، لأنه لن يكون هناك بدر الذي سيحميني، والذي سيتفهّم صراخي! لو أني أيقظتُ الرجال لصراخي لقالوا ها هي ذي أنثي ضعيفة يجب أن تعود، فأمعن في التهور!

يحاول عبد الله أن يوقفني، يظل جسده الحائل بين الموت وبيني، يمنعني من التقدم إلى أي مكان لم يؤمنه، سواء هو أو بقية الشباب، يظنني أريد الانتحار، ولا يفهم أني متُّ منذ زمن بعيد، وأن بقائي على هذا الحال لن يفيد في شيء!

إني لا أفهمه، لا يزال هناك حياة في قلبه، لا تزال المرأة التي يحب حية، وهو حي، لا ظروف تمنع الحب سوى الموت. إن كان لم يطأ جنتهما بعد، فلماذا يتطلع إلى أشياء أخرى تمنعه؟ لماذا ننتقد الغباء ونمتهنه في نفس الحياة التعيسة؟! لماذا يحتاج هو أن يحمل جثتها بين يديه، ليدرك أنه أخطأ

بتركها، أو بترك أي شيء يوقفه عنها؟ كنت أظنه سيتعلم، كنت أظنه سيستوعب كلما نظر إلى عينيّ!

ثلاثمائة دولار هي حصيلتي، مقابل موت أمي، ومقابل موت بدر، ومقابل ما شهدته، حصيلة أي أسرة ذاقت الفقدان! هذا الرقم كتب على القبور وأخرس الأحزان في الصدور، هذا الرقم هو النتيجة وهو البرهان، وهو الجواب وإعلان نهاية الانتظار! كم أحتاج من الدولارات لأحس أن لي بيتا حتى وأنا بداخل بيت؟ لأحسّ أن لي أسرةً حتى وإن كانوا أحياء يكلمونني وكل منهم مات في داخله؟ كم أحتاج من الدولارات لأداوي قلبا ما عاد يحسّ؟

أي تعبير يجب أن يضعه المسؤول مصطفى عبد الجليل وهو يعلن في أمريكا مقتل ٢٥ ألف قتيل رسميا قبل أن تُعد الأجساد الضمنية، الأجساد التي بلا هوية، أو الأجساد التي أرادت الموت بشدة، واثقة أنه لم يعدني بينهم، مع أني بينهم منذ زمن! كم يملك أوباما من كلمات ليواسي، ربما عليه أن يواسي الحياة نفسها! ها نحن نعلن للعالم بؤرة جرحنا، ربما نحتاج لقناع الثبات أو قناع الأسى، نعم، فالحزن صار قناعا، لأن ما نراه فوق معنى الحزن بعدة سماوات!

انحنت لنا طرابلس أخيرا، تذلل لنا بيت الصمود، فُتحت لنا أحياء العاصمة، لم نعد نسمع الزغاريد، لاسترجاع المدينة كان الرصاص، ولسقوطها كان الرصاص، وللاحتفال بتحريرها صار الرصاص، ففي ليبيا الطلقة زغرودة، والزينة على الحوائط رصاص، وحناء الأجساد جروح الرصاص! ما ينقص الرصاصة فقط أن يكون لونها أخضر! لم يتبق في هذا الوطن سوى جسد القذافي لم يخترقه الرصاص بعدُ! إني سأحرص على أن أكون هناك، حين أرسم بأظافري على جسده كل ما أردتُ قوله، وامتنعت عن قوله، كل ما لم أعد أستطيع نطقه، سأحفر على جسده فقداني عذريتي وترمّلي ويُتمي!

ربما سيفهم وقتها ما اقترف، ربما هذا ما هوَّن عليّ البيات في حفرة بحجم دائرة في صحراء سرت، لا جدران في الصحراء تقيك أي شيء، الرمال التي يمكن أن تدفنك هي نفسها التي يمكن أن تُشكِّلْ حائلا بينك وبين عدوك، التي يمكن أن تسلخك في النهار يمكن أن تدفئ أوصالك في الليل! لا أرى في حفرتي وجه أحد، وأدرك أني لن أسمع أي نداء أو أي همهمات ليلية! كنت أحس أني وحدي في بيتي وقبري، كنت أنتظر صدق الشائعات التي حامت حول مرور القذافي من هنا بمساعدة قبيلة الطوارق؛ هربا بعد أن فقد المربع تلو المربع من أرضه، لدينا ثقة في كلام طائرات الناتو، عقدة الفرنجة، ذات نهار، ذات ساعة، ذات حلم، بكل بساطة أطلقت طائرة بلا طيار صواريخ على موكب سري مرّ بالقرب من المنطقة التي اختبأنا بها، وبكل بساطة أصابته!

لم أسمع الانفجار لكن الرمال التي غطتني في حفرتي وأنا غافلة أيقظتني، نهضت مختنقة لأرى الانفجار في آخر مربع في مرمى بصري، رأيت الرجال يركضون تجاه الانفجار، والطائرات تلف كالنسور فوق بؤرة الدخان، تطلق صاروخا تلو الآخر! تدافعت السيارات وداست بعضها، لجمتني الصدمة لدقائق حتى استوعبت، استوعبت أنها اللحظة التي عشت لأجلها، ركضت وأنا أدعو الله كالغريق، أدعوه بكل ما أملك، أدعوه بكل ذرة فيّ تركض لبدايتها ومنتهاها! كلما اقتربت رأيت دائرة من الرجال حول جسد، التقطتْ عيناي الحركة المجنونة للشفاه، التقطت اسمه، لقد كان هو القذافي!

وقفت ألتقط أنفاسي، وأتأكد بعينيّ وهم يطيحون به يمينا ويسارا، والدم يسيل من رأسه، التقطتْ عيناي شفتيه وهو يهذي، يعلن أنه معنا! ضد من؟ لست أدري، يسأل ماذا فعل لنا، لا يزال يسأل، لا يزال يتطلع بعينين تملأهما البراءة لأجساد حالفها سوء الحظ، بأن بقيت حية ليلقي إليها هذه العبارة الموقوتة!

أدرك أن جميع الواقفين في هذه الدائرة يملكون جُرحا فُقد في قلوبهم، ولكن معذرة لن يكون هناك أحدٌ منهم قد فقد كما فقدت! لا تمزقوه، لا تلمسوه، لا تنهوا حياته، ليس قبل أن أقتص منه، ليس قبل أن أحقق الأمنية!

خلعتُ قفازيّ، رميت سلاحي، خلعت هذا الرداء الصامت الهادئ الذي ارتديته طوال تلك الشهور، ارتميت عليه، سقط وسقطت فوقه، وهو يتوسل إليَّ بعينين ملتاعتين شعرت وكأني أسمعه، أسمع توسلاته بالرحمة، تطلعتُ إليه مرة أخيرة قبل أن أنهشه.

معذرة، لقد أنسيتني ماذا تعني هذه الكلمة!

«هناك لحظة تجد نفسك فيها عاجزا عن إضافة أو تغيير شيء،
كل ما تكره لا يتبدّل، وكل ما تحبه يتم تدميره بعناية، وعندها تشعر بالاحباط،
وتتساءل: لماذا لم يحبني ذلك الوطن كما أحببته؟
ثم تشعر باليأس، وتفرّ، ثم يغلبك الحنين فتعود، والأمر في النهاية يتلخص في أن
خلاياي مصرية، سواء أردت أم لم أرد!»

أحمد خالد توفيق

عبد الله محمد

من المفترض أن الإحساس يجعل منك إنسانا، لكن الإفراط في بعض المشاعر يجعل الحيوان يبدو أكثر إنسانية منك، فلا تصبح شبيها بالحيوان في اتباعه في غرائزه فحسب، وإنما في السير مثله، وحتى الكلام يتحول إلى صرخات وحشية مماثلة!

فجرٌ متأخر أعلن بداية اليوم، وأصوات انفجارات كانت أول ملامح هذا النهار،الاتصالات حول سرت مراقبة منذ سقوط طرابلس، وكل المداخل والمخارج ـ بحسب اعترافات الأسرى ـ فلقد كانت هذه الدائرة التي تحيط بسرت، هي المنطقة التي يختبئ فيها الطاغية!

لأسابيع كانت مهمتي والشباب تمشيط الصحراء، بل الرمال نفسها للقبض عليه، لم يخطر ببالي قط أنه سيتم القبض عليه حيا، كما لم يخطر في بالي أنه لا يزال حقا على قيد الحياة، أو أنه لا يزال في ليبيا بعد هروب أفراد أسرته والكثير من رجاله واستسلامهم.

افترضت أنه حتى لو كان لا يزال له وجود، فإنه سينتحر! لقد ركع الطاغية أمام قذيفة طائرة فرنسية بدون طيار، ربما كان يحتاج العثور عليه

إلى آلة لا إلى عقل بشري، ربما يعجز العقل الذي شبَّ على الظلم في تصور نهايته!

هذا ما شعرت به حين أعلن رصاص الرجال قبضهم عليه، رصاصة تلو رصاصة تنادي أن تعالوا، اشهدوا لحظة ستتزاحم وتتعارض فيها الضحكات والدموع، اشهدوا لحظة تطيل عمرا، لحظة من اختصر أعمار الملايين في إجرامه، لحظة لو لم أشهدها بعينيّ لسخرت منها لآخر يوم في حياتي!

لم يكن أحد يدرك أنه بالفعل قد قُبض عليه، الكل كان يردد اسمه، ليؤكد له ولكل من حوله أنه حقًا بين أيديهم، الكل كان يدفعه عنه ويشده إليه في نفس اللحظة، الرجال كانوا يحدقون إلى وجهه، ليصدقوا، ثم تلف أنظارهم في الكون كله بلا تصديق!

الكل إلا هي!

نبأ لم تكن إنسانة في تلك اللحظة، نبأ أمسكت بذاك الذي جرّدها من بشريتها، أمسكت به كما لو أنها عاشت عمرها بأكمله فقط لهذه المهمة!

لم أرَ في حياتي لحما يمكن أن يُمَّزق بيدين عاريتين من السلاح! لم تكن تسعفها أظافرها التي لم تتخضب بدمائه فقط، وإنما بدمائها هي! كادت أن تخلع أظافرها في لحمه، فانقضت عليه بأسنانها!

رفعت اللثام عن وجهها حتى سقط، وكُشف شعرها، وأدرك الرجال أنها امرأة، لكن الجميع كان في حفلة جماعية من هوس الانتقام! أتذكر أنه كان يتوسل إليهم بأنه معهم، ويتساءل بسذاجة:

«ماذا فعلت لكم؟!»

تساءلت لو أن أحدهم امتلك ترف الإجابة، فماذا سيقول؟ ومن أين سيبدأ؟

لقد كان الجميع مشغولا بلكمه، والتنكيل به، للتنكيل بأحزانه الداخلية،

للتشفي من أجل الأبرياء، كل منهم كان يحمل بريئا في قلبه مات ويجد نفسه أمام من قتله يقول بمنتهى البساطة: ماذا فعلت؟! كلما ازداد توسله، ازدادت رغبة الجميع في تمزيقه، تجمدوا في لحظات لمراقبة المرأة التي تحوّلت إلى ذئب، هي نفس تلك النظرة التي تلقيتها حين قابلتها أول مرة، ربما لو بقيت للدقائق أطول بين يديها، لكان لحمي قد تمزق كما يحدث معه الآن!

لم يستوعب أحد صراخها ومنظر أسنانها الذي امتلأ بدمه، لم تتكلم ولم تبكي، كانت ترتعش بلذة الانتقام، وكان هو يصرخ وكأنه يُؤكل حقا! بدت لي كمصاصة دماء لن تشبع قط، ربما كانت دماؤه هي الطريقة الوحيدة لإطفاء نار خسارة وطن، وخسارة شعب، أضحية الانتقام، ليلملم البركان حممه! أفاق الرجال بعد دقيقة كاملة من النهش، بدؤوا يحاولون تخليصه منها، لكن الأمر كان أشبه بالاقتراب من وحش!

دفعت جسدي بينه وبينها، وطالني نبش مخالبها، تشنجتْ وهي تشعر أن اللحظة التي أرادتها قد انتهت، كل هذه الدماء ولم تشبعي بعد يا نبأ؟ فمها وأسنانها ووجهها وشعرها وثيابها، صارت ملطخة بدمه، صرختْ فيّ وظلت تضربني وتدفعني حتى تكاتف الجميع على تقييدها، رفعت صوتها بالصراخ، حتى ظننت أن كل مدن ليبيا قد سمعته، وقفت إلى جانبها لأخلص عينيها من نهش عينيه، فظلت تصرخ في وجهي، ثم قالت:

ـ اخرج من هنا، اخرج، هذه ليست معركتك، ليست معركـــــــتك!

حاولت تهدئتها بكل الطرق، كانت تحتاج حقنة مخدر بالفعل، انطفأت عيناها ولم تعد ترى أو تسمع، لم يكن جسدها يتحرك إلا لتخليص نفسها لتصل إليه من جديد! انتقلت حالتها إلى الباقي، فبدؤوا بنزع ثيابه، وأخذ قطع منها كتذكار! نزع أحدهم خاتمه ولبسه بالدم، وظل يصرخ بهيستريا أنهم قبضوا على القذافي وكأننا لم نعلم بعد!

خلع البعض أحذيتهم وضربوه بها، ووضعوها فوق رأسه، ليأخذوا

صورة تذكارية يمكن أن يقفوا أمامها براحة كلما تذكروا الظلم الذي تعرضوا له، ثم جعلوا وجبته الوحيدة هي التراب! حاولت أنا وبعض الشباب تخليصه من بين أيديهم، حاولنا أن نتحدث بالمنطق، لا مكان للمنطق في الثأر، سلِّم لي على المنطق حين تسنح لك فرصة لتطفىء بها نار فقدانك في عينيٍّ من تسبَّب فيه! لقد كان يهذي، ونحن نصرخ أنه أسير لا تجوز معاملته هكذا، لنتركه للمحاكمة! كنت أدعو الله أن نستطيع إخراج جسده من بؤرة الانتقام هذه، لكن الله أراد غير هذا، أثار نبأ رؤيتي وأنا أدافع عن جسده، صرخت فيّ:

ـ يا مغفل يا خاين، الآن تدافع عنه! لو أنه اغتصب امرأتك أو اغتصبك رجاله، لو أنه قتل أحد أفراد أسرتك، كما قتل لكل أسرة ليبية، لمزقت لحمه مثلنا!

ـ إنه أسير، تنادون بالله أكبر، أن الله اكبر، أكبر من غضبكم، الله أمرنا بمعاملة الأسير، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(*) صدق الله العظيم، أفيقوا يرحمكم الله، الله أكبر، الله أكبر يرانا فوق رؤوسنا، دعوه للمحاكمة.

وانهالت التعليقات من كل الوجوه: لا تكلمنا بالدين الآن، اغرب عن وجهنا يا مصري، أتظننا مغفلون مثلكم! ما دخلك أنت، ابعد يا شيخ، حتى امتدت يد نبأ إلى قميصي وهي لا تدرك أنها تبكي:

ـ هذا ليس مكانك، عد إليها، لست أفهم كيف تستطيع أن تبتعد عنها وفي إمكانك أن تكون إلى جوارها؟ كيف يمكن لعاشق أن يملك طريقة يكون فيها مع حبيبه ولا يفعل؟ طالما لم يطل أحدكما الموت، فستظل هي قضيتك، اخرج، اخرج!

(*) سورة الإنسان، آية (٨، ٩).

صرخاتها أنهت المشهد بوصول الكتائب، حُملت جثته وهو يهذي وينزف على أيدي الرجال، كان حيا في اللحظة التي حاولت فيها أن أخرجه، حين وصلت إلى الغرفة التي أخفوا فيها جسده كان ميتا، عاريا مسجىًّ على قماش علي الأرض، جلس الرجال حوله، وكأنه مأدبة، كان هناك شيخ من أحد القادة المنشقين لكتيبة بسرت جالسا عند رأسه يحدثه! ارتجف جسدي، كان يحدثه وكأنه يسمعه، يحاوره وكأنه سيجيبه يسأله:

أين سلطانك؟ أين مجدك؟

لم تُصلّ على الرسول حيا وها أنت جثة، فبماذا نفعك كُفرك وكبرياؤك؟

ماذا ستقول لربك حين تلقاه؟

وماذا كان يفيد في دولة كاملة أو كرسي تملكه إن كنت الآن جثة بين أيدينا لا حول لك ولا قوة؟

لم أتمكن من التحمّل وبكيت كالنساء! بكى جميع الواقفين في هذه البقعة، وامتد البكاء حتى طال الحراس في الخارج! هل ينفع عتاب توبة لله بعد الموت؟ لم يبكه أحد، وإنما الكل كان يبكي نفسه، يبكي رحمة الله وعدله، يبكي تقصيره في حق عبادته، يبكي خوفا من نهاية مماثلة، وآخرة مماثلة، الكل ـ سواء كان مؤمنا أو متشككا ـ خاف، الكل بقدر ما ترقَّب كلمة النهاية، خافها، نهاية الآخر ليست كنهايتنا، إننا نهرب من ظلم الدنيا للقاء لله، ونهرب من لقاء الله بيوم آخر ربما كان أفضل في الدنيا!

لم أدرك في حياتي كلها أني سأشهد نهايته أمامي هكذا ببساطة، ترى لو كان بدر هنا هل كان جسد الطاغية سيبقى قطعة واحدة متصلة ببعضها؟ لو كان الشيخ خليفة هنا، لو كان باهي هنا، لو كان بقي وقت أطول بين يديّ نبأ!

دفنوه في قبر بلا معالم، ولا مكان ولا هُوية، طمس الدين والهوية في وطن، فدفن في ترابه دون هوية، لم يكن مستهجنا أن نرى أحدهم قد

نبش قبره واقتص من هيكله! لو أن المكان صار معلوما للجميع، لصار قبلة للقصاص، ولما نامت امرأة دون أن تدفن في جسده حسرتها على ابنها أو زوجها، لصارت عظامه رمادا تحت الأحذية!

هربتْ نبأ من جديد، حتى عثر عليها نائمة تحت أنقاض بيتها في أجدابيا، هكذا فعل الجميع، هكذا نهضت ليبيا، حين عاد كلٌ يستظل بأنقاضه، ليبنيها من جديد! لم أنل الشهادة، ولم أحمل فيّ خسارات وأنقاضا، لم أملك أي شيء، رحلتُ عن بنغازي كما جِئتها، بلا وطن بلا هوية، فقط ربي يؤنسني، يرسل إليَّ بعض الإشارات، ليخفف عني! فقدت إحساسي بالاتجاهات!

إلى أين؟

بل من أين؟

حدثٌ كهذا يفقد الحياة هيبتها في نفس من يشهده، أريد الرحيل إلى سورية، أريد أن أعيش في الموت، ربما كانت هذه هي الحياة التي ترضيني، هناك على أعتاب الرحيل جلست عاجزا عن تحديد أين يجب أن أذهب! لأسبوع بقيت أقضي الساعات كاملة في المطار، أراقب الطائرات التي تهبط والتي تطير، وكأن وجهة إحداهما ستكون الإجابة، كنت أراقب المصريين يعودون إلى ليبيا، إلى كسب رزقهم من جديد في وطن آخر، شعرت أني كنت غارقا في دوامة الدم تلك لشهور طويلة، وما إن خرجت منها حتى وجدت وطني كما هو، المكائد تحاك فيه لكل من يريد أن يُخلد الفساد، الكثير من المجازر والجثث، مزيد من الشهداء، والمزيد من المغتربين في الوطن، وخارجه، المزيد من الهاربين منها لبقعة رزق بعد أن شحّ فيه الأمان!

عضضت على حسرتي، وتنبهت إلى تلك الأسرة التي جلست جواري في ساحات الانتظار، التقطتُ لهجتهم المصرية، فابتسمت بيني وبين نفسي، ابنتهم المراهقة كانت الأقرب إليّ، والتي لاحظتُ اهتمامها بقراءة كتاب في

يدها منذ جلوسها قربي، لكن ما إن رأته وحتى نهضت دون أن تلحظ ما تركته خلفها، تركت حقيبتها المفتوحة، واندفعت إلى صدر والدها الذي كان بانتظار وصولهم، ربما كان أفقر من أن تسنح له فرصة الهرب من ليبيا، أو أكثر إنسانية من أن يفعل، عانقهم فردا فردا، فواريت عينيّ بين ثنايات حقيبتها...

طرف كتاب كان يخرج منها، ربما كانت المرة الأولى التي يهزمني فيها الفضول لأجذب الكتاب، لأرى النصف الباقي من الصورة على الغلاف الخلفي، ليلف قلبي دورته كاملة...

فجأةً، صار الكتاب في يدي، كأنه نداء، كأنه استثناء، كأنه رَجاء، ابتسامتها في الصورة وهي تتطلع إليّ...

أكانت حقا تتطلع إليّ؟ أهي حقا؟ أم امرأة تشبهها؟ ألم أرها منذ فترة طويلة حتى عجزت عن تمييزها؟

قلبت الكتاب، ورأيت اسمها متربعا فوق العنوان، طال عناق الأسرة حتى كفاني أن أسير بأطراف أصابعي عليه، على اسمها، تجرأت وفتحت الكتاب، تراها عن أي شيء كتبت؟

تراها وجدت ما يستحق أن يُكتب؟ تراها لا تزال تريدني؟ لا تزال تذكرني؟

تراني خارج مساحة أحلامها؟ أتراه رجلا آخر قد التقط قلبها بعد أن خلفته وراء غبائي؟

كانت الصفحة الأولى هي الجواب، قفزت عيناي فوق الكلمات وهي تقول:

إليكَ..

يا تائها أحببته..

لم أصدق عينيّ، لم أتخيل أنها حقا تعنيني! زغللت الدموع بصري فمسحتها وأنا أتطلع إلى تلك الأسرة المشغولة ببعضها عن فضولي! لم أدرِ ماذا أفعل، هل أعود؟

هل يمكن أن تكون هناك عودة؟ هل يمكن أن تقبلني؟

هل تسامح النساء في غباء الرجال عوضا عن رعونتهم؟ هل تَبقى مساحة في القلب للمسامحة بجوار حب مهدر...

فكان جوابها:

أضع روايتي بين يديك
تذكرة عَودة
لأناديك حتى يبحَّ الصوتُ..
وتنفد الكلمات..
عُدْ إليّ!

إنها تلك المرأة، تلك المرأة التي خُلقت لي، وخُلقت لها، إنها ضلعي، إنها قضيتي، إنها بوصلتي، إنها وطني وأسرتي وعودتي، فإن كنت قد رحلتُ، وإن رحلت الآن، وإن انتظرتني أو لم تنتظر، إنها.... امرأتي!

أعدتُ الكتاب إلى مكانه بسرعة، نهضت، وسرت والدمع يغلف كل ما تقع عليه عيناي، أنقذني حنين تلك الأسرة، فترك لي الوقت لأختلس الكلمات وأستوعب، تحرك فمي مبتسما بامتنان ضائعٍ عثر على أول الطريق.

مشهد

يناير ٢٠١٢

صَعَدتْ درجات المِنصة وهي تحاول أن تسير بهدوء، خائفة أن تتعثر أمام كل هذا الحضور، رحبتْ بالحضور بصوت مرتعش، ينظر إليها الجميع بتشكك، في أيديهم كتابها وهي أمامهم، مجرد فتاة صغيرة ضئيلة الخبرة في الحياة، فكيف تراها تملي عليهم أفكارها؟!

راقبوها بانتقاد وهي تضحك خجلةً تردّ على بعض الثناء الذي طال حضورها، تحاول ألا تتطلع إلى عدسات الكاميرات التي تلتقط تعبيراتها.

قدمت كتابها وفكرته والرسالة التي أرادت أن تصل للقارئ من خلاله، ثم قرأت مقاطع من صفحاته الشيقة. اتبعت بروتوكول الدعاية المفروض في مثل تلك المناسبات. كانت تجلس إلى منصة نجاحها مرتعشة ووحيدة أمام العيون المنتقدة، رفع أحدهم يده بمجرد أن انتهى التصفيق، وطلب إليها أن تقرأ الإهداء، مما أثار استغرابها، فأخفت دهشتها بضحكة خجلة، واهتز صوتها في نطق أُولى كلمات الإهداء، ثم صار أكثر عمقا حين نطقت أكثر الكلمات صدقًا:

«عُدْ إليّ»

أعطاها التصفيق ثوانيَ لتبتسم، حتى وقف ذاك الرجل، وقال لها:

ـ ليس أمامي سوى أن أسأل كاتبتنا المبدعة شهد: تراه عاد إليك؟

ـ مَن هو؟

ـ حبيبك، أو أي صفة تحبين أن تطلقيها على مَن وجهتِ إليه هذه الكلمات العذبة؟ أعلم أن الشهرة تَحول دون اعتراف القلوب باسم ساكنيها، لكن لا شيء يمكن أن يخفي الحب ذاته، ولقد كان مكتملا في كلماتك.. لن أطيل عليكِ أو أحرجك أكثر من هذا، وسأكتفي بصُلب سؤالي: هل عاد إليكِ من نال شرف توجيه تلك الكلمات إليه؟

انتقلت الأعين من وجهه إلى وجهها في قراءة جماعية لأثر جرأة السؤال على تلك الكاتبة. حدقّت فيه لثوانٍ، ثم أدارت عينيها على مَن بالقاعة. أطرقت وهي تفكر، وقلبها يدوي نبضا، أتراه الجمهور من يشعر مهابة لقاء شهير، أم أن الشهير هو الذي يعاني دوار لقاء جمهوره؟

لا فائدة من التنصل أو الكذب!

رفعت عينيها بعد أن أعاد الصدق إليها ثقتها وثباتها، حركت أحبال صوتها المتجمدة بسعال، ثم قالت:

ـ نعم، أحسُّ أنه عائد إليَّ!

تمت بحمد الله

يوم الأربعاء ١ أكتوبر ٢٠١٤
في التاسعة مساء ـ الإسكندرية.